50 to 56 Surahs Qaaf to Waqiah
Tafsir Nanzamuddurar fi tanaasubu al aayaat wa sawar
Baqaaee

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي

50 Qaaf	**القلم**
51 Adhdhaariyaat	**الذاريٰت**
52 At-Toor	**الطور**
53 An-Najm	**النجم**
54 Al-Qamar	**القمر**
55 Ar-Rahmaan	**الرحمٰن**
56 Al Waqiah	**الوقعه**

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

▲ سورة ق

50

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي

▲ تفسير الآيات رقم [1- 6]

{ق وَالْقُرْآَنِ الْمَجِيدِ (1)
بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2)
أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3)
قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (4)
بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5)
أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6)}

لما ختم سبحانه الحجرات بإحاطة العلم قال أول هذه: {ق} إشارة إلى أنه هو سـبحانه وحده المحيط علماً وقدرة بما له من العلو والشـدة والقوة القيومية والقهر ونافذ القضـاء والفتح لما أراد من المغلقات، بما أشـارت إليه القاف بصفاتها وأظهرته بمخرجها المحيط بما جمعه مسماها من المخارج الثلاث: الحلق واللسان والشفاه.

وقد قال الأستاذ أبو الحسن الحرالي في سر افتتاح المفصل بهذا الحرف فقال في آخر كتابه في هذا الحرف: اعلم أن القرآن منزل مثاني، ضمن ما عدا المفصل منه الذي هو من قاف إلى آخر الكتاب العزيز وفاتحة ما يختص بأولي العلم والفقه من مبسوطات الحكم ومحكمات الأحكام ومطولات الأقاصيص، ومتشابه الآيات، والسورة المفتتحة بالحروف الكلية للإحاطة لغيبية المتهجى المسندة إلى آحاد الأعداد، فلعلو رتبة إيراده وطوله ثنى الحق سبحانه الخطاب وانتظمه في سور كثيرة العدد يسيرة عدد الآي قصيرة مقدارها، ذكر فيها من أطراف القصص والمواعظ والأحكام والثناء وأمر الجزاء ما يليق بسماع العامة ليسهل عليهم سماعه وليأخذوا بحظ مما أخذه الخاصة وليكرر على أسماعهم في قراءة الأئمة له في الصلوات المفروضة التي لا مندوحة لهم عنها ما يكون لهم خلفاً مما يعولهم من مضمون سائر السور المطولات، فكان أحق ما افتتح به مفصلهم حرف ق الذي هو وتر الآحاد، والظاهر منها مضمون ما يحتوي عليه مما افتتح بألف لام ميم، وكذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقرأ في خطبة يوم الجمعة إليهم لأنها صلاة جامعة الظاهر بفاتحة المفصل الخاص بهم، وفي مضمونها من معنى القدرة والقهر المحتاج إليه في إقامة أمر العامة ما فيه كفاية، وشفعت بسورة المطهرة فخصوا بما فيه القهر والإنابة، واختصرت سورة نون من مقتضى العلم بما هو محيط بأمر العامة المنتهي إلى غاية الذكر الشامل للعالمين.

ولما كان جميع السور المفتتحة بالحروف المتضمنة للمراتب التسع، العاشر الجامع قواماً وإحاطة في جميع القرآن، ولذلك كانت ســـورة قاف وســـورة ن قواماً خاصــــاً وإحاطة خاصــــة بما يخص العامة من القرآن الذين يجمعهم الأرض بما أحاط بظاهرها من صـــــورة جبل قاف، وما أحاط بباطنها من صـــورة حيوان «نون» الذي تمام أمرهم بما بين مددي إقامتها ولهذا الســـورة المفتتحة بالحرف ظهر اختصــاص القرآن وتميزه عن ســائر الكتب لتضــمنها الإحاطة التي لا تكون إلا بما للخاتم الجامع، واقترن بها من التفضـــــيل في ســـورها ما يليق بإحاطتها، ولإحاطة معانيها وإتمامها كان كل ما فســرت به من معنى يرجع إلى مقتضـاها، فهو صـحيح في إحاطتها ومنزلها من أسـماء الله وترتبها في جميع العوالم، فلا يخطئ فيها مفســـر لذلك لأنه كلما قصـــد وجهاً من التفسير لم يخرج عن إحاطة ما تقتضيه، ومهما فسرت به من أنها من أســـماء الله تعالى أو من أســـماء الملائكة أو من أســـماء الأنبياء أو من مثل الأشـــياء، وصـــور الموجودات أو من أنها أقســـام أقســـم بها، أو فواتح عرفت بها الســـور، أو أعداد تدل على حوادث وحظوظ من ظاهر الأمر أو باطنه على اختلاف رتب وأحوال مما أعطيه محمد صلى الله عليه وسلم من مقدار أمد الخلافة والملك والســـلطنة وما ينتهي إليه أمره من ظهور الهداية ونحو ذلك مما يحيط بأمد يومه إلى غير ذلك، وكل داخل في إحاطتها، ولذلك أيضــاً لا تختص بمحل مخصـوص تلزمه علامة إعراب مخصـوصـة فمهما قدر في مواقعها من هذه الســـورة جراً أو نصـــباً أو رفعاً، فتداخل في إحـاطـة رتبتهـا ولم يلزمهـا معنى خـاص ولا إعراب خـاص لمـا لم يكن لهـا

انتظام، لأنها مســتقلات محيطات، وإنما ينتظم ما يتم معنى- كل واحد من المنتظمين بحصول الانتظام، وذلك يختص من الكلم بما يقصر عن إحاطة مضمون الحروف حتى أنه متى وقع استقلال وإحاطة في كلمة لم يقع فيها انتظام.

ولما أشار سبحانه إلى هذه الإحاطة بالقاف، أقسم على ذلك قسماً هو في نفسه دال عليه فقال: {والقرآن} أي الكتاب الجامع الفارق {المجيد *} الذي له العلو والشــرف والكرم والعظمة على كل كلام، والجواب أنهم ليعلمون ما أشــارت إليه القاف من قوتي وعظمتي وإحاطة علمي وقدرتي، وما اشــتمل عليه القرآن من المجد بإعجازه واشتماله على جميع العظمة، ولم ينكروا شيئاً من ذلك بقلوبهم، ومجيد القرآن كما تقدم في أثناء الفاتحة ما جربت أحكامه من بين عاجل ما شــهد وآجل ما علم بعلم ما شــهد، وكان معلوماً بالتجربة المتيقنة بما تواتر من القصص الماضي، وما شهد من الأثر الحاضر وما يتجدد مع الأوقات من أمثاله وأشباهه، وإذا تأملت السورة وجدت آيها المنزلة على جميع ذلك، فإنه ســبحانه ذكرهم فيها ما يعلمون من خلق الســماوات والأرض وما فيهما ومن مصــارع الأولين وكذا الســورة الماضــية ولا ســيما آخرها المشــير إلى أنه أدخل على الناس الإيمان برجل واحد غلبهم بمجده وإعجازه لمجد منزله بقدرته وإحاطة علمه- والله الهادي، ومن أحاط علماً بمعانيه وعمل ما فيه مجد عند الله وعند الناس.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما كانت ســـورة الفتح قد انطوت على جملة من الألطاف التي خص الله بها عباده المؤمنين كذكره تعالى أخوتهم

وأمرهم بالتثبت عند غائلة معتد فاسق {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ} الآية، وأمرهم بغض الأصوات عند نبيهم وأن لا يقدموا بين يديه ولا يعاملوه في الجهر بالقول كمعاملة بعضهم بعضاً، وأمرهم باجتناب كثير من الظن ونهيهم عن التجسس والغيبة، وأمرهم بالتواضع في قوله {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى} وأخبرهم تعالى أن استجابتهم وامتثالهم هذه الأوامر ليست بحولهم، ولكن بفضله وإنعامه، فقال: {ولكن الله حبب إليك الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان} الآيتين، ثم أعقب ذلك بقوله {يمنون عليك أن أسلموا} الآية، ليبين أن ذلك كله بيده ومن عنده، أراهم سبحانه حال من قضى عليه الكفر ولم يحبب إليه الإيمان ولا زينه في قلبه، بل جعله في طرف من حال من أمر ونهى في سورة الفتح مع المساواة في الخلق وتماثل الأدوات فقال تعالى: {والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم} الآيات، ثم ذكر سبحانه وتعالى وضوح الأدلة {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم} الآيات، ثم ذكر حال غيرهم ممن كان على رأيهم {كذبت قبلهم قوم نوح} ليتذكر بمجموع هذا من قدم ذكره بحاله وأمره ونهيه في سورة الفتح، ويتأدب المؤمن بآداب الله ويعلم أن ما أصابه من الخير فإنما هو من فضل ربه وإحسانه، ثم التحمت الآي إلى قوله خاتمة السورة {نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم} الآيات- انتهى.

ولما كان هذا ظاهراً على ما هدى إليه السياق، بنى عليه قوله دلالة أخرى على شمول علمه: {بل} أي أن تكذيبهم ليس لإنكار شيء من مجده ولا لإنكار صدقك الذي هو من مجده بل لأنهم {عجبوا} أي الكفار، وأضمرهم

قبل الذكر إشارة إلى أنه إذا ذكر شيئاً خارجاً عن سنن الاستقامة انصرف إليهم، والعجب من تغير النفس لأمر خارج عن العادة.

ولما كان المقام لتخويف من قدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم أو منّ عليه بالإسلام أو غيره، أو لتخويف من أنكر البعث، اقتصر على النذارة فقال: {أن جاءهم منذر} أنذرهم حق الإنذار من عذاب الله عند البعث الذي هو محط الحكمة، وعجب منهم هذا العجب بقوله: {منهم} لأن العادة عندهم وعند جميع الناس أنه إذا كان النذير منهم لم يداخلهم في إنذاره شك بوجه من الوجوه، وهؤلاء خالفوا عادة الناس في تعجبهم من كون النذير- وهو أحدهم- خص بالرسالة دونهم، ولم يدركوا وجه الخصوصية لكونه مثلهم، فكذلك أنكروا رسالته وفضل كتابه بألسنتهم نفاسة وحسداً لأنهم كانوا معترفين بخصائصه التي رفعه الله تعالى عليهم بها قبل الرسالة فحطهم عجبهم ذلك إلى الحضيض من دركات السفه وخفة الأحلام، لأنهم عجبوا أن كان الرسول بشراً وأوجبوا أن يكون الإله حجراً، وعبجوا من أن يعادوا من تراب، وتثبت له الحياة، ولم يعجبوا أن يبتدؤوا من تراب ولم يكن له أصل في الحياة، ولذلك سبب عنه قوله: {فقال} أي بسبب إنذاره بالبعث وعقبه {الكافرون} فأظهر في موضع الإنذار إيذاناً بأنهم لم يخف عليهم شيء من أمره، ولكنهم ستروا تعدياً بمرأى عقولهم الدالة على جميع أمره دلالة ظاهرة، وعبر بما دل على النذارة لأنها المقصود الأعظم من هذه السورة، وجميع سياق الحجرات ظاهر فيها: {هذا} أن يكون النذير منا خصص بالرسالة من دوننا، وكون ما أنذر به هو البعث بعد الموت {شيء عجيب *} أي بليغ

في الخروج عن عادة أشـــكاله، وقد كذبوا في ذلك، أما من جهة النذير فإن أكثر الرسل من الطوائف الذين أرسلوا إليهم، وقليل منهم من كان غريباً ممن أرســل إليه، وأما من جهة البعث فإن أكثر ما في الكون مثل ذلك من إعادة كل من الملوين بعد ذهابه وإحياء الأرض من بعد موتها وابتداء الإحياء لجميع موات الحيوان وإخراج النبات والأشـــجار والثمار وغير ذلك مما هو ظاهر جداً.

ولما كان المتعجب منه مجملاً، أوضــــحه بقوله حكاية عنهم مبالغين في الإنكار، بافتتاح إنكارهم باستفهام إنكاري: {إذا متنا} ففارقت أرواحنا أشباحنا {وكنا تراباً} لا فرق بينه وبين تراب الأرض. ولما كان العامل في الظرف ما تقديره: نرجع؟ دل عليه بقوله والإشــارة بأداة البعد إلى عظيم اســتبعادهم: {ذلك} أي الأمر الذي هو في تمييز ترابنا من بقية التراب في غاية البعد، وهو مضــمون الخبر برجوعنا {رجع} أي رد إلى ما كنا عليه {بعيد *} جداً لأنه لا يمكن تمييز ترابنا من بقية التراب. ولما كان الســياق لإحاطة العلم بما نعلم وما لا نعلم، توقع الســـامع الجواب عن هذا الجهل، فقال مزيلاً لسببه، مفتتحاً بحرف التوقع: {قد} أي بل نحن على ذلك في غاية القدرة لأنا قد {علمنا} بما لنا من العظمة {ما تنقص الأرض منهم} أي من أجزائهم المتخللة من أبدانهم بعد الموت وقبله، فإنه لو زاد الإنســان بكل طعام يأكله ولم ينقص صار كالجبل بل نحن دائماً في إيجاد وإعدام تلك الأجزاء، وذلك فرع العلم بها كل جزء في وقته الذي كان نقصــه فيه قل ذلك الجزء أو جل، ولم يكن شـــيء من ذلك إلا بأعيينا بما لنا من القيومية والخبرة النافذة في

البواطن فضـــلاً عن الظواهر والحفظ، الذي لا يصـــوب إلى جنابه عي ولا غفلـة ولا غير، ولكنـه عبر بمن لأن الأرض لا تـأكل عجب الذنـب، فـإنـه كالبزر لأجسام بني آدم.

ولما كانت العادة جارية عند جميع الناس بأن ما كتب حفظ، أجرى الأمر على ما جرت به عوائدهم فقال مشـــيراً بنون العظمة إلى غناه عن الكتاب: {وعندنا} أي على ما لنا من الجلال الغني عن كل شـيء {كتاب} أي جامع لكل شيء {حفيظ *} أي بالغ في الحفظ لا يشذ عنه شيء من الأشياء دق أو جل، فكيف يســـتبعدون على عظمتنا أن لا نقدر على تمييز ترابهم من تراب الأرض ولم يختلط في علمنا شـيء من جزء منه بشـيء من جزء آخر فضلاً عن أن يختلط شيء منه بشيء آخر من تراب الأرض أو غيرها.

ولما كان التقدير: وهم لا ينكرون ذلك من عظمتنا لأنهم معترفون بأنا خلقنا الســـماوات والأرض وخلقناهم من تراب وإنا نحن ننزل الماء فينبت النبات، أضـرب عنه بقوله: {بل الذين كذبوا بالحق} أي الأمر الثابت الذي لا أثبت منه {لما} أي حين {جاءهم} لما ثار عندهم من أجل تعجبهم من إرســـال رســولهم من حظوظ النفوس وغلبهم من الهوى، حســداً منهم من غير تأمل لما قالوه ولا تدبر، ولا نظر فيه ولا تفكر، فلذلك قالوا ما لا يعقل من أن من قدر على إيجاد شـــيء من العدم وإبدائه لا يقدر على إعادته بعد إعدامه وإفنائه.

ولما تســـبب عن انتســـابهم في هذا القول الواهي وارتهانهم في عهدته اضـــطرابهم في الرأي: هل يرجعون فينســـبوا إلى الجهل والطيش والســـفة

والرعونة أم يدومون عليه فيؤدي ذلك مع كفرهم بالذي خلقهم إلى أعظم من ذلك من القتال والقتل، والنســـبة إلى الطيش والجهل، قال معبراً عن هذا المعنى: {فهم} أي لأجل مبادرتهم إلى هذا القول السفساف {في أمر مريج *} أي مضـــطرب جداً مختلط، من المرج وهو اختلاط النبت بالأنواع المختلفة، فهم تارة يقولون: ســحر، وتارة كهانة، وتارة شــعر، وتارة كذب، وتارة غير ذلك، والاضـــطراب موجب للاختلاف، وذلك أدل دليل على الإبطال كما أن الثبات والخلوص موجب للاتفاق، وذلك أدل دليل على الحقية، قال الحســـن: ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرهم- وكذا قال قتادة، وزاد: والتبس عليهم دينهم.

ولما أخبرهم أنهم قالوا عن غير تأمل أنكر عليهم ذلك موبخاً لهم دالاًّ على صحة ما أنكروه وفساد إنكارهم بقوله، مسبباً عن عجلتهم إلى الباطل، {أفلم ينظروا} أي بعين البصر والبصيرة {إلى السماء} أي المحيط بهم وبالأرض التي هم عليها. ولما كان هذا اللفظ يطلق على كل ما علا من ســـقف وســحاب وغيره وإن كان ظاهراً في الســقف المكوكب حققه بقوله: {فوقهم} فإن غيرهم إنما هو فوق ناس منهم لا فوق الكل. ولما كان أمرها عجباً، فهو أهل لأن يسأل عن كيفيته دل عليه بأداة الاستفهام فقال: {كيف بنيناها} أي أوجدناها على ما لنا من المجد والعزة مبنية كالخيمة إلا أنها من غير عمد {وزيناها} أي بما فيها من الكواكب الصــغار والكبار الســيارة والثابتة {وما} أي والحال أنه ما {لها} وأكد النفي بقوله: {من فروج *} أي فتوق وطاقات وشقوق، بل هي ملساء متلاصقة الأجزاء، فإن كانت هذه الزينة من

تحتها فالذي أوقع ذلك على هذا الإحكام الذي يشاهدونه بما فيه من المنافع والستر الذي لا يختل على مر الجديدين، فهو من القدرة بحيث لا يعجزه شيء، وإن كانت الزينة من فوقها فكذلك، وإن كان بعضها من فوق وبعضها من تحت فالأمر عظيم، وهذا يدل على أن السماء كرة مجوفة الوسط مقببة كالبيضة، فإن نفي الفروج فيها على هذا الوجه المؤكد يدل على ذلك دلالة ظاهرة، وأفرد السماء ولم يجمع لأن بناءها على ما ذكر وإن كانت واحدة يدل على كمال القدرة، فإن البناء المجوف لا يمكن بانيه إكمال بنائه من غير أن يكون له فروج، وإن اختل ذلك كان موضع الوصل ظاهراً للرائين ما فيه من فتور وشقوق وقصور وما يشبه ذاك، ولم يمكنه مع ذلك الخروج منه، إن كان داخله فلم يقدر على حفظ خارجه، وإن كان خارجه لم يتمكن من حفظ داخله، وهذا الكون محفوظ من ظاهره وباطنه، فعلم أن صانعه منزه عن الاتصاف بما تحيط به العقول بكونه داخل العلم أو خارجه أو متصلاً به أو منفصلاً عنه، أو محتاجاً في الصنعة إلى إله أو في الحفظ إلى ظهير أو معين، وجمع الفرج للدلالة على إرادة الجنس بالسماء بعد ما أفاده إفراد لفظها، فيدل الجمع مع إرادة الجنس على التوزيع، مع الإفهام إلى أن الباني لو احتاج في هذا الخلق الواسع الأطراف المتباعد الأكناف إلى فرج واحد لاحتاج إلى فروج كثيرة.

فإن هذا الجرم الكبير لا يكفي فيه فرج واحد لمن يحتاج إلى الحركة، فنزل كلام العليم الخبير على مثل هذه المعاني، ولا يظن أنه غيرت فيه صنعة من الصنع لأجل الفاصلة فقط، فإن ذلك لا يكون إلا من محتاج، والله

متعال عن ذلك، ويجوز – وهو أحسن – أن يراد بالفروج قابلية الإنبات لتكون – مثل الأرض – يتخللها المياه فيمتد فيها عروق الأشجار والنبات وتظهر منها، وأن يراد بها الخلل كقوله تعالى {ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور} [الملك: 3] أي خلل واختلاف وفساد، وهو لا ينفي الأبواب والمصاعد – والله أعلم.

▲ تفسير الآيات رقم [7– 11]

{وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7)
تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8)
وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9)
وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10)
رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11)}

ولما دل سبحانه على تمام قدرته وكمال علمه وغير ذلك من صفات الكمال بآية السماء، أتبع ذلك الدلالة على أنه لا يقال فيه داخل العالم ولا خارجه لأنه متصل به ولا منفصل عنه، نبه على ذلك بالدلالة على آية الأرض، وأخرها لأن السماء أدل على المجد الذي هذا سياقه، لأنها أعجب صنعة وأعلى علوّاً وأجل مقداراً وأعظم أثراً، وأن الأرض لكثرة الملابسة لها والاجتناء من ثمارها يغفل الإنسان عن دلالتها، بما له في ذلك من الصنائع والمنافع، فقال: {والأرض} أي المحيطة بهم {مددناها} أي جعلناها لما لنا

من العظمة مبســوطة لا مســنمة. ولما كان الممدود يتكفأ، قال: {وألقينا} بعظمتنا {فيها رواســـي} أي جبالاً ثوابت كان ســـبباً لثباتها، وخالفت عادة المراسي في أنها من فوق، والمراسي تعالجونها أنتم من تحت.

ولما كان سكانها لا غنى لهم عن الرزق، قال ممتناً عليهم: {وأنبتنا} بما لنا من العظمة {فيها} وعظم قدرتها بالتبعيض فقال: {من كل زوج} أي صنف من النبات تزاوجه أشـكاله بأرزاقكم كلها {بهيج *} أي هو في غاية الرونق والإعجاب، فكان- مع كونه رزقاً- متنزهاً.

ولما ذكر هذه الصنائع الباهرة، عللها بقوله: {تبصرة} أي جعلنا هذه الأشياء كلها، أي لأجل أن تنظروها بأبصـاركم، ثم تتفكروا ببصـائركم، فتعبروا منها إلى صـــانعها، فتعلموا ما له من العظمة {وذكرى} أي ولتتذكروا بها تذكراً عظيماً، بما لكم من القوى والقدر فتعلموا بعجزكم عن كل شـيء من ذلك أن صـانعها لا يعجزه شـيء، وأنه محيط بجميع صـفات الكمال، لو ألم بجنابه شائبة من شوائب النقص لما فاض عنه هذا الصنع الغريب البديع.

ولما كان من لا ينتفع بالشـيء كأنه عادم لذلك الشـيء، قصـر الأمر على المنتفع فقال: {لكل عبد} يتذكر بما له من النقص وبما دل عليه هذا الصنع من الكمال أنه عبد مربوب لصـانعه. ولما كان الإنسـان لما له من النقصـان لا يزال كلما أعلاه عقله أســفله طبعه، فكان ربما ظن أنه لا يقبل إذا رجع، رغبة في الرجوع بقوله: {منيب *} أي رجاع عما حطه عنه طبعه إلى ما يعليه إليه عقله، فيرجع من شـهود هذه الأفعال إلى شـهود هذه الصـفات إلى علم الذات.

ولما كان إنزال الماء أبهر الآيات وأدلها على أنه أجلّ من أن يقال: إنه داخل العالم أو خارجه، أو متصل به أو منفصل عنه، مع أن به تكوّن النبات وحصول الأقوات وبه حياة كل شيء، أفرده تنبيهاً على ذلك فقال: {ونزلنا} أي شيئاً فشيئاً في أوقات على سبيل التقاطر وبما يناسب عظمتنا التي لا تضاهى بغيب، بما له من النقل والنبوع والنفوذ فنزل دفعة واحدة فأهلك ما نزل عليه فزالت المفقرة وعادت المنفعة مضرة {من السماء} أي المحل العالي الذي لا يمسك فيه الماء عن دوام التقاطر إلا بقاهر {ماء مباركاً} أي نافعاً جداً ثابتاً لا خيالاً محيطاً بجميع منافعكم.

ولما كان الماء سبباً في تكون الأشياء، وكان ذلك سبباً في انعقاده حتى يصير خشباً وحباً وعنباً، وغير ذلك عجباً، قال: {فأنبتنا} معبراً بنون العظمة {به جنات} من الثمر والشجر والزرع وغيره مما تجمعه البساتين فتجنّ– أي تستر– الداخل فيها. ولما كان القصب الذي يحصد فيكون حبه قوتاً للحيوان وساقه للبهائم، خصه بقوله: {وحب الحصيد} أي النجم الذي من شأنه أن يحصد من البر والشعير ونحوهما، وأومأ بالتقييد إلى أن هذه الحبوب أشرف من حب اللآلئ الذي ينبته الله من المطر لأنها لقيام النبتة؟ وتلك للزينة، ولما كان النخل من أعجبه ما يتكون منه مع ما له من المنافع التي لا يساويه فيها شجر، والطباق للزرع بالطول والقصر والاتساق بالاقتيات للآدميين والبهائم، قال: {والنخل باسقات} أي عاليات طويلات على جميع الأشجار المثمرة ذوات أثمار طيبة {لها} مع يبس ساقها {طلع نضيد *} أي مصفوف متراكم بعضه فوق بعض، وهو حشو طلعه، والطلع ذلك الخارج

من أعلى النخلة كأنه فعلان مطبقان، والحمل النضـــيد بينهما، والطرف محدد، أو الطلع ما يبدو من ثمر النخل أول ظهورها، وذلك القشـر يسـمى الكفرى لتعطيته إياه على أحكم مما يكون وأوثق، والطلع يشـــبه ما للناقة المبسق من اللبا المتكون في ضرعها قبل النتاج، ثم يصير بعد اتحاده في البياض وهو طلع إلى الافتراق حال الينوع إلى أحمر وأصفر وأخضر وغير ذلك من الألوان الغريبة، والأوصـــاف العجيبة، وهي محيطة المنافع بالتفكه على عدة أنواع والاقتيات وغير ذلك، وطلعها مخالف لعادة أكثر الأشـــجار فإن ثمارها مفردة، كل حبة منفردة عن أختها.

ولما ذكر سبحانه بعض ما له في الماء من العظمة، ذكر له علة هي غاية في المنة على الخلق فقال: {رزقاً للعباد} أي أنبتنا به ذلك لأجل أنه بعض ما جعلناه رزقهم.

ولما كان ذلك أعظم مذكر للبصراء بالبعث ولجميع صفات الكمال، أتبعه ما له من التذكير بالبعث بخصوصه فقال: {وأحيينا به} أي الماء بعظمتنا {بلدة} وسمها بالتاء إشارة إلى أنها في غاية الضعف والحاجة إلى الثبات والخلو عنه، وذكر قوله: {ميتاً} للزيادة في تقرير تمكن الحاجة فيها. ولما كان هذا خاصة من أوضح أدلة البعث، قال على سبيل النتيجة: {كذلك} أي مثل هذا الإخراج العظيم {الخروج *} الذي هو لعظمته كأنه مختص بهذا المعنى، وهو بعث الموتى من قبورهم على ما كانوا عليه في الدنيا، لا فرق بين خروج النبات بعد ما تهشم في الأرض وصار تراباً كما كان من بين أصفره وأبيضه وأحمره وأخضره وأزرقه إلى غير ذلك، وبين إخراج ما

تفتت من الموتى كما كانوا في الدنيا، قال أبو حيان: ذكر تعالى في السماء ثلاثة: البناء والتزيين ونفي الفروج، وفي الأرض ثلاثة: المد وإلقاء الرواسي والإنبات، قابل المد بالبناء لأن المد وضع والبناء رفع، وإلقاء الرواسي بالتزيين بالكواكب لارتكاز كل واحد منها– أي على سطح ما هو فيه والإنبات المترتب على الشق بانتفاء الفروج، فلا شق فيها، ونبه فيما تعلق به الإنبات على ما يقطف كل سنة ويبقى أصله، وما يزرع كل سنة أو سنتين ويقطف كل سنة، وعلى ما اختلط من جنسين، فبعض الثمار فاكهة لا قوت، وأكثر الزرع قوت والثمر فاكهة وقوت.

http://www.al-eman.com/%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%AA%D8%A8/%D9%86%D8%B8%D9%85%20%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%B1%D8%B1%20%D9%81%D9%8A%20%D8%AA%D9%86%D8%A7%D8%B3%D8%A8%20%D8%A7%D9%84%D8%A2%D9%8A%D8%A7%D8%AA%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%B1%20%20***/i376&n124&p1

تفسير الآيات رقم [12– 16]

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12)
وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13)
وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14)
أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)
وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16)}

ولما وصل الأمر إلى حد لا خفاء معه، فصح أنهم يعلمون ذلك ولم يحملهم على التصـريح بالتكذيب به إلا المبادرة إلى ذلك بغلبة الهوى من غير تأمل لعاقبته، فصـار من باب لزوم الغلط، وكان السياق لإنكار البعث الذي جاء به منذر من القوم المنذرين، كان كأنه قيل : إن إنكار هؤلاء أعجب، فهل وقع هذا لأحد قط، فقال تعالى مسـليا لهذا النبي الكريم لأن المصـيبة إذا عمت هانت، مبيناً لمجد القرآن ولمجد آياته تحقيقاً للإنذار وتحذيراً به لا للنصيحة: {كذبت} وسم الفعل بالتاء إشارة إلى هوانهم في جنب هذا المجد ولما كان هؤلاء الأحزاب المذكورون لقوتهم وكثرتهم كأنهم أهل المجد قاطبة قد استغرقوا زمانها ومكانها، أسقط الجارّ فقال: {قبلهم}.

ولما لم تكن لهم شهرة يعرفون بها قال: {قوم نوح} وأشار إلى عظيم التسلية بأنهم جاءهم منذر منهم، وكانوا في القوة في القيام فيما يحاولونه والكثرة بحيث لا يسع الأفهام جميع أوصافهم، فآذوا رسولهم وطال أذاهم قريباً من عشـرة قرون ولما كان آخر أمرهم أنه التقى عليهم الماءان: ماء السـماء، وطلع إليهم ماء الأرض فأغرقهم، أتبعهم من طائفتهم قصـتهم بأن نزل بهم الماء فأوبقهم لما بين حاليهم من الطباق دلالة على عظيم القدرة والفعل بالاختيار فقال: {وأصحاب الرس} أي البئر التي تقوضت بهم فخسفت مع ما حولها فذهبت بهم وبكل ما لهم كما ذكرت قصـتهم في الفرقان . ولما كانت آية قوم صـالح من أعظم الدلالات على القدرة على البعث، وكان إهلاكهم مناسـباً لإهلاك من قبلهم، أما لأصـحاب الرس فكان بالرجفة التي هي على مبدأ الخسف، وأما لقوم نوح فلأن الرجفة تأثرت عن الصيحة التي

حملتها الريح التي من شـــأنها حمل الســـحاب الحامل للماء، أتبعهم بهم، وكانوا أصـحاب بئر ولم يخسـف بهم فقال: {وثمود *} ولما اتفق قوم هود عليه السـلام والقبط بالإهلاك بالريح التي أثرت بها صـيحة ثمود، أولئك مع الحجارة والرمل وهؤلاء بالماء الذي فرقه الله بالريح عند ضـــرب العصـــي، وكان لكل منهما من ضـــخامة الملك وعز الســـلطان ما هو مشـــهور قدم أشـدهما أبداناً وأوسـعهما ملكاً لأن إهلاكهم كان أدل دليل على القدرة وأقرب شبهاً بهلاك ثمود فقال: {وعاد} وعطف عليه أقرب الطائفتين شبهاً بالهلاك بقوم نوح وأصحاب الرس فقال: {وفرعون} نص عليه لأنه ليس في مادة هذا الغرق كافر غيره، والنص عليه يفهم غيره، وما تقدم في غير هذه الســـورة غير مرة من وصـــفه بأنه ملك قاهر وأنه اســـتخفهم فأطاعوه فيعلم كفرهم طاعة له، وأنه ليوافق ما قبله وما بعده. ولما كان السياق للعزة والشقاق، فلم يدع داع إلى إثبات ذي الأوتاد.

ولما كان هلاك المؤتفكات جامعاً في الشبهة بهلاك جميع من تقدم بالخسف وغمرة الماء بعد القلب في الهواء، أتبعهم بهم معبراً عنهم بأخصر من تسميه قبائلهم أو مدنهم لأنها عدة مدن، وعبر بالأخوة دون القوم لأن الســـياق لتكذيب من هو منهم لأنه أدخل في التســـلية فقال: {وإخوان لوط *} أي أصـهاره الذين جبروا بينهم وبينه مع المصـاهرة بالمناصـرة لملوكهم ورعاياهم على من ناواهم بنفســه وعمه إبراهيم عليهما الســـلام كما مضـــى بيانه في البقرة ما صـار كالأخوة، ومع ذلك عاملوه بما اشـتق من لفظ هذا الجمع من الجناية له ولأنفسهم وغيرهم.

ولما كان الشـجر مظنة الهواء البارد والروح، وكان أصـحابه قد عذبوا بضـد ذلك قال: {وأصـــحاب الأيكة} لمشـــاركتهم لهم في العذاب بالنار، وأولئك بحجارة الكبريت النازلة من العلو وهؤلاء بالنار النازلة من ظلمة الســـحاب، وعبر عنهم بالواحدة والمراد الغيضة إشارة إلى أنها من شدة التفافها كالشجرة الواحدة. ولما كان {تبع} مع كونه من قومه ملكاً قاهراً، وخالفوه مع ذلك، وكان لقومه نار في بلادهم يتحاكمون إليها فتأكل الظالم، ختم بهم فقال: {وقوم تبع} مع كونه مالكاً، وهو يدعوهم إلى الله، فلا يظن أن التكذيب مخصـوص بمن كان قوياً لمن كان مسـتضـعفاً، بل هو واقع بمن شـئنا من قوي وضعيف، لا يخرج شيء عن مرادنا.

ولما لم يكن هنا ما يقتضـــي التأكيد مما مر بيانه في ص قال معرياً منه: {كل} أي من هذه الفرق {كذب الرسل} أي كلهم بتكذيب رسولهم، فإن الكل متســـاوون فيما يوجب الإيمان من إظهار العجز والدعاء إلى الله {فحقَّ} فتســـبب عن تكذيبهم لهم أنه ثبت عليهم ووجب {وعيد} أي أي الذي كانوا يكذبون به عند إنذارهم لهم إياه، فعجلنا لهم منه في الدنيا ما حكمنا به عليهم في الأزل فأهلكناهم إهلاكاً عاماً كإهلاك نفس واحدة على أنحاء مختلفة كما هو مشـــهور عند من له بأمثاله عناية وأتبعناه ما هو في البرزخ وأخرنا ما هو في القيامة إلى البعث، بإهلاكنا لهم على تنائي ديارهم وتباعد أعصـــارهم وكثرة أعدادهم أن لنا الإحاطة البالغة فتسـلَّ بإخوانك المرسـلين وتأسَّ بهم، ولتحذر قومك ما حل بمن كذبهم إن أصروا.

ولما ذكر سـبحانه التسـلية بتكذيب هذه الأحزاب بعد ذكر تكذيب قريش وإقامة الأدلة القاطعة على ما كذبوا به وبطلان تكذيبهم، وختم بحقوق الوعيد الذي شوهدت أوائله بإهلاكهم، فثبت صدق الرسل وثبتت القدرة على كل ما يريد سـبحانه بهذا الخلق من الإيجاد والإعدام أنكر عليهم التكذيب ووبخهم عليه تقريراً لحقوق الوعيد، فقال مسـبباً عن تكذيبهم بعد ما ذكر أنه خلق جميع الوجود: {أفعيينا بالخلق} أي حصـل لنا على ما لنا من العظمة الإعياء، وهو العجز بسبب الخلق في شيء من إيجاده وإعدامه {الأول} أي من السماوات والأرض وما بينهما حين ابتدأناه اختراعاً من العدم، ومن خلق الإنسان وسائر الحيوان مجدداً، ثم في كل أوان من الأطوار المشاهدة على هذه التدريجات المعتادة بعد أن خلقنا أصـله على ذلك الوجه مما ليس له أصل في الحياة، وفي إعدامه بعد خلقه جملة كهذه الأمم أو تدريجاً كغيرهم ليظنوا بسبب العجز بالخلق الأول الذي هو أصعب في مجاري العادات من الإعادة أن نعجز عن الإعادة ثانياً، يقال: عيي بالأمر – إذا لم يهتد لأمره أو لوجه مراده أو عجز عنه، ولم يطق إحكامه.

ولما كان التقدير قطعاً بما دلت عليه همزة الإنكار: لم نعي بذلك بل أوجدناه على غاية الإحكام للظرف والمظروف وهم يعلمون ذلك ولا ينكرونه ويقرون بتمام القدرة عليه، وفي طيه الاعتراف بالبعث وهم لا يشعرون أضرب عنه لقولهم الذي يخل باعتقادهم إياه فقال: {بل هم في لبس} أي خلط شـديد وشـبهة موجبة للتكلم بكلام مختلط لا يعقل له معنى، بل السـكوت عنه أجمل، قال علي رضـي الله عنه: يا جار، إنه لملبوس عليك، اعرف بالحق

تعرف أهله. ولبس الشيطان عليهم تسويله لهم أن البعث خارج عن العادة فتركوا لذلك القياس الصحيح والحكم بطريقة الأولى {من} أجل {خلق جديد *} أي الإعادة. ولما ذكر خلق الخافقين، أتبعه خلق ما هو جامع لجميع ما هو فيها فقال: {ولقد} أي والحال أنا قد {خلقنا} بما لنا من العظمة {الانسان} وهو أعجب خلقاً وأجمع من جميع ما مضى ذكره بما فيه من الأنس والطغيان، والذكر والنسيان، والجهل والعرفان، والطاعة والعصيان، وغير ذلك من عجيب الشأن، ووكلنا به من جنودنا من يحفظه فيضبط حركاته وسكناته وجميع أحواله {ونعلم} أي والحال أننا نعلم بما لنا من الإحاطة {ما توسوس} أي تكلم على وجه الخفاء، {به} الآن وفيما بعد ذلك مما لم ينقدح بعد من خزائن الغيب إلى سر النفس كما علمنا ما تكلم {نفسه} وهي الخواطر التي تعترض له حتى أنه هو ربما عجز عن ضبطها، فنحن نعلم أن قلوبهم عالمة بقدرتنا على أكمل ما نريد وبصحة القرآن وإعجازه وصدق الرسول به صلى الله عليه وسلم وامتيازه، وإنما حملهم الحسد والنفاسة والكبر والرئاسة على الإنكار باللسان حتى صار ذلك لهم خلقاً وتمادوا فيه حتى غطى على عقولهم، فصاروا في لبس محيط بهم من جميع الجوانب.

ولما كان العالم بالشيء كلما كان قريباً منه كان علمه به أثبت وأمكن، قال ممثلاً لعلمه ومصوراً له بما نعلم أنه موجبه: {ونحن} بما لنا من العظمة {أقرب إليه} قرب علم وشهود من غير مسافة {من حبل الوريد *} لأن أبعاضه وأجزاءه تحجب بعضها بعضاً، ولا يحجب علم الله شيء، والمراد به الجنس، والوريدان عرقان كالحبلين مكتنفان لصفحتي العنق في مقدمها

متصلات من الرأس إلى الوتين وهو عرق القلب، وهذا مثل في فرط القرب، وإضافته مثل مسجد الجامع، وقد مضى في تفسير سورة المائدة عند قوله {والله يعصمك من الناس} [المائدة: 67] ما ينفع هنا، قال القشيري: وفي هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم، وروح وأنس وسكون قلب لقوم.

▲ تفسير الآيات رقم [17- 19]

{إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17)
مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)
وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19)}

ولما كان سبحانه قد وكل بنا حفظة تحفظ أعمالنا وتضبط أقوالنا وأحوالنا، فكان المعروف لنا أن سبب الاستحفاظ خوف الغفلة والنسيان، قدم سبحانه الإخبار بكمال علمه فأمن ذلك المحذور، علق بأقرب أو نعلم قوله تأكيداً لما علم من إحاطة علمه من عدم حاجته، وتخويفاً بما هو أقرب إلى مألوفتنا {إذ} أي حين {يتلقى} أي بغاية الاجتهاد والمراقبة والمراعاة من كل إنسان خلقناه وأبرزناه إلى هذا الوجود {المتلقيان} وما أدراك ما هما؟ ملكان عظيمان حال كونهما {عن اليمين} لكل إنسان قعيد منهما {وعن الشمال} كذلك {قعيد *} أي رصد وحبس مقاعد لذلك الإنسان بأبلغ المقاعدة ونحن أقرب منهما وأعلم علماً، وإنما استحفظناهما لإقامة الحجة بهما على مجاري عاداتكم وغير ذلك من الحكم.

ولما كانت الأفعال اللسانية والقلبية والبدنية ناشئة عن كلام النفس، فكان الكلام جامعاً، قال مبيناً لإحاطة علمه بإحاطة من أقامه لحفظ هذا الخلق

الجامع في جواب من كأنه قال : ما يفعل المتلقيان : {ما يلفظ} أي يرمي ويخرج المكلف من فيه، وعم في النفي بقوله: {من قول} أي مما تقدم النهي عنه في الحجرات من الغيبة وما قبلها وغير ذلك قل أو جل {إلا لديه} أي الإنسان أو القول على هيئة من القدرة والعظمة هي من أغرب المستغرب {رقيب} من حفظتنا شديد المراعاة له في كل من أحواله {عتيد *} أي حاضر مراقب غير غافل بوجه، روى البغوي بسنده من طريق الثعلبي عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر».

ولما كان مثل إرسال الخافقين ثم الموت ثم النفخ بإرسال الملك في الدنيا إلى الناس لعرضهم فيصير الإنسان منهم ساعياً في التزين للملك بما يعجبه في مقصود ذلك العرض في الأجل الذي ضربه لهم، فإذا جاء ذلك الوقت الذي هو كالموت أخذته الرسل فباءوا به كما يفعل حال الموت بالميت ومن أحضروه منهم حبسوه على باب الملك لتكامل المعروضين، فإذا كمل جمعهم وأمر بقيامهم للعرض زعق لهم المنادي بالبوق الذي يسمى النفير وهو كالصور، فلهذا قال تعالى مبيناً لإحاطة قدرته بجميع خلقه عاطفاً على ما تقديره: فاضطرب ذلك الإنسان الموكل به في الوقت المأمور بالتردد فيه بما يرضي الله بالقول والفعل على حسب إرادته سبحانه سواء كان موافقاً

للأمر أو مخالفاً إلى أن أوان الرحيل معبراً بالماضـــي تنبيهاً على أن الموت مع أنه لا بد منه قريب جداً: {وجاءت} أي أتت وحضرت {سكرة الموت} أي حالته عند النزع وشدته وغمرته، يصير الميت بها كالسكران، لا يعي وتخرج بها أحواله وأفعاله وأقواله عن قانون الاعتدال، ومجيئاً متلبســاً {بالحق} أي الأمر الثابت الذي يطابقه الواقع فلا حيلة في الاحتراس منه من بطلان الحواس وكشف الغطاء عن أحوال البرزخ من فتنة السؤال وضيق المجال أو سعة الحال، وقيل للميت بلسان الحال إن لم يكن بلسان القال: {ذلك} أي هذا الأمر العظيم العالي الرتبة الذي يحق لكل أحد الاعتداد له بغاية الجد {ما} أي الأمر الذي {كنت} جبلة وطبعاً.

ولما كانت نفرته منه وهربه من وقوعه بحفظ الصـــــحة ودواء الأداء في الغاية، كان كأنه لا ينفر إلا منه، فأشــار إلى ذلك بتقديم الجارّ فقال: {منه تحيد *} أي تميل وتنفر وتروع وتهرب.

▲ تفسير الآيات رقم [20- 26]

{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20)

وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21)

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23)

أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24)

مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25)

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26)}
ولما كان التقدير : فأخذ ذلك الإنســـان بالقهر من بين الأهل والإخوان، والعشـائر والجيران، وضـم إلى عسـكر الموتى وهم بالبرزخ نزول، ولانتظار بقيتهم حلول، ولم يزالوا كذلك حتى تكامل القادمون عليهم الواصــلون إليهم، عطف عليه قوله مبنياً لإحاطة من عامل الملكوت والعز والجبروت: {ونفخ} أي بأدنى إشارة وأيسر أمر {في الصـور} وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السـلام للموت العام والبعث العام عند التكامل، وانقطاع أوان التعامل، وهو بحيث لا يعلم قدر عظمه واتســاعه إلا الله تعالى، وهو عليه الصــلاة والسلام التقم الصور من حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر، فيا لها من عظمة ما أغفلنا عنها، وأنسانا لها، وآمننا منها، والمراد بهذه نفخة البعث.
ولما كان ذلك الأثر عن النفس هو سـر الوجود، وأشـار إلى عظمته بقوله: {ذلك} أي الوقت الكبير العظيم الأهوال والزلازل والأوجال {يوم الوعيد *} أي الذي يقع فيه ما وقع الإيعاد به.
ولما كان التقدير : فكان من تلك النفخة صـيحة هائلة ورجة شـاملة، فقال الناس عامة من قبورهم، وحصــل ما في صــدورهم، عطف عليه قوله بياناً لإحاطة العرض: {وجاءت كل نفس} أي مكلفة كائناً {معها سـائق} يسـوقها إلى ماهي كارهة للغاية لعلمه بما قدمت من النقائص {وشــهيد *} يشــهد عليها بما عملت، والظاهر من هذا أن السـائق لا تعلق له بالشـهادة أصـلاً، لئلا تقول تلك النفس: إنه خصـم، والخصـم لا تقبل شـهادته، ويقال حينئذ

للمفرط في الأعمال في أسلوب التأكيد جرياً على ما كان يستحقه إنكاره في الدنيا، وتنبيهاً على أنه لعظمه مما يحق تأكيده: {لقد كنت} أي كوناً كأنه جبلة لك {في غفلة} أي عظيمة محيطة بك ناشـــئة لك {من هذا} أي من تصور هذا اليوم على ما هو عليه من انقطاع الأسباب، والجزاء بالثواب أو العقاب لأنه على شدة جلائه خفي على من اتبع الشهوات {فكشفنا} بعظمتنا بالموت ثم بالعبث {عنك غطاءك} الذي كان يحجبك عن رؤيته من الغفلة بالآمال في الجاه والأموال وسائر الحظوظ والشهوات، تحقيقاً لما له سبحانه من الإحاطة بالتقدير والتعجيز، وعن الواسطي: من كشف عنه غطاء الغفلة أبصر الأشياء كلها في أسر القدرة وانكشف له حقائق الأشياء بأسرها، وهذا عبارة عن العلم بأحوال القيامة.

ولما تسبب عن هذا الكشف الانكشاف التام، عبر عنه بقوله: {فبصرك اليوم} أي بعد البعث {حديد *} أي في غاية الحدة والنفوذ، فلذا تقر بما كنت تنكر.

ولما أخبر أخبر تعالى بما تقوله له الملائكة أو من أراد من جنوده، وكان قد أخبر أن معبوداتهم من الأصنام والشياطين وغيرها تكون عليهم يوم القيامة ضداً، أخبر بما يقول القرين من السائق والشهيد والشيطان الذي تقدم حديثه في الزخرف، فقال عاطفاً على القول المقدر قبل «لقد» معبراً بصيغة المضي تأكيداً لمضمونه وتحقيقاً: {وقال قرينه} أي الشيطان الذي سلط على إغوائه واستدراجه إلى ما يريد.

نقله الكرماني عن ابن عباس رضـــي الله عنهما {هذا} أي الإنســـان الذي قرنتني به. ولما كان الأمر في كل من الطائع والعاصـــي في غاية العجب، لأن الطائع ينابذ هواه فيكون ملكياً مجرداً من حظوظه ونوازع نفوســـه وما بنيت عليه من النقائص والشـهوات، والعاصـي طوع يدي الشيطان، يصـرفه في أغراضه كيف يشاء، فيطيعه بغاية الشهوة مع علمه بعداوته، وأن طاعته لا تكون إلا بمخالفة أمر الله الولي الودود، وكان العاصـــي أكثر كثرة يكون الطائع فيها بالنسبة إليه كالشعرة البيضـاء في جلد الثور الأسود، وكان ذلك منابذاً للعقل، أشــــار إلى هذه المنابذة بأداة من لا يعقل وإلى جميع ما في أمره من العجب بلدي فقال: {ما لدي} أي الأمر الذي عندي من الأمر المستغرب جداً لكون المطيع عصـاني، وهو مطبوع على النقائص والحظوظ التي يرى أنها حياته ولذته وراحته، والعاصـــــي أطاعني وهو يعلم بعقله أني شــر محض، وترك الخير المحض وهو عالم بأن في ذلك هلاكه {عتيد *} أي حاضر مهيأ لما يراد منه.

ولما كانت العادة جارية بأن من أحضـر إليه شـيء تبادر إلى أمهر بقوله أو فعل، وصـل بذلك ما هو نتيجته، وبدأ بالعاصـي لأن المقام له، فقال ما يدل على أنه لا وزن لـه، فلا وقفة في عذابه بحســـابه ولا غيره، مؤكداً خطاباً للمؤكد بالإلقاء أو خطاباً للسـائق والشـهيد، أو السـائق وحده مثنياً لضـميره تثنية للأمر كأنه قال: ألق ألق– تأكيداً له وتهويلاً: {ألقيا} أي اطرحا دفعاً من غير شـــفقة، وقيل: بل هو تثنية وأصـــل ذلك أن الرفقة أدنى ما يكون ثلاثة، فجرى كلام الواحد على صـــاحبه، ألا ترى أن الشـــعراء أكثر شـــيء

قيلاً: يا صــاحبيّ يا خليليّ، والســر فيه إذا كان المخاطب واحداً إفهامه أنه يراد منه الفعل بجد عظيم تكون قوته فيه معادلة لقوة اثنين {في جهنم} أي النار التي تلقى الملقى فيها بما كان يعامل به عباد الله من الكبر والعبوســة والتكره والتعصب. ولما كان المقصود تعليل إلقائه بوصف يعم غيره ليكون لطفاً لمن أراد الله عصــمته ممن ســمع هذا المقال وحجة على من أراد الله إهانته: {كل كفار عنيد *} أي مبالغ في ستر الحق والمعاداة لأهله من غير حجة حمية وأنفة نظراً إلى استحسان ما عنده والثبات عليه تجبراً وتكبراً على ما عند غيره ازدراء له كائناً من كان {مناع} أي كثير المنع {للخير} من {مريب *} أي داخل في الريب وهو الشــك والتهمة في أمر الدين، وموقع غيره فيه، ثم أبدل من «كل» قوله بياناً لمبالغته في الكفر الذي أوجب له كل شر {الذي جعل} كفراً مضاعفاً وعناداً ومنعاً للخير الذي يجب عليه في قلبه ولســانه وبدنه، وتجاوزاً للحدود دخولاً في الشــك وإدخالاً لغيره فيه {مع الله} أي الذي له الإحاطة بجميع صــفات الكمال، فليس أمره خفياً عن كل ذي عقل {إلهاً}.

ولما كان ربما تعنت متعنت فنزل الآية على من يدعو الله بغير هذا الاســم الأعظم، صــــرح بالمراد بقوله: {آخر} وزاد الكلام أنه مأخوذ من التأخر الناظر إلى الرداءة والسقوط عن عين الاعتبار بالكلية.

ولما كان هذا قد جحد الحق الواجب لله لذاته مع قطع النظر عن كل شــيء ثم ما يجب له من جهة ربوبيته وإنعامه على كل موجود، ثم من جهة إدامة إحسانه مع المعصية بالحلم، وعاند في ذلك وفي إثباته للغير ما لا يصح له

بوجه من الوجوه، سبب عن وصفه قوله: {فألقياه في العذاب} أي الذي يزيل كل عذوبة {الشديد *}.

▲ تفسير الآيات رقم [27– 33]

{قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27)
قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28)
مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29)
يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30)
وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31)
هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32)
مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33)}

ولما كان القرين قد قال ما تقدم مريداً به– جهلاً منه– الخلاص من العذاب بإظهار أنه ليس بأوصاف هذه النفس، بل من كبار المؤمنين، فأجيب مقاله بإلقاء تلك النفس معللاً للأمر بإلقائها بما شمل هذا القرين، فتشوف السامع إلى ما يكون من حاله، وكانت العادة جارية أن من تكلم في شخص بما فيه مثله ولا سيما إن كان هو السبب فيه أو كان قد تكلم ذلك الشخص فيه، فكان قياس ذلك يقتضي ولا بد أن تقول تلك النفس القول فيها، وهذا عند

الأمر بإلقائها: ربنا هو أطغاني: أجاب تعالى عند هذا التشوف بقوله: {قال قرينه} منادياً بإسقاط الأداة دأب أهل أهل القرب إيهاماً أنه منهم: {ربنا} أيها المحسـن إلينا أيتها الخلائق كلهم {ما أطغيته} أي أوقعته فيما كان فيه من الطغيان، فإنه لا سـلطان لي عليه وأنت أعلم بذلك {ولكن كان} بجبلته وطبعه {في ضـلال بعيد *} محيط به من جميع جوانبه لا يمكن رجوعه معه، فلذلك كان يبادر إلى كل ما يغضـب الله، وإن حركته إليه أن فإنه لا يحتاج إلى أدنى تحريك فيثور له ثورة من هو مجبول مركوز في طباعه.

ولما كان كأنه قيل: بم يجاب عن هذا؟ وهل يقبل منه؟ قيل: لا {قال} أي الملك المحيط علماً وقدرة الذي حكم عليهم في الأزل: {لا تختصموا} أي لا توقعوا الخصومة بهذا الجد والاجتهاد {لديَّ} أي في دار الجزاء بهذه الحضرة التي هي فوق ما كنتم تدركونه من الأخبار عنها بكثير، وأعجب بما يدرك حق الإدراك، فقد أتم انكشاف ما كان يستغربه الخاصة بل خاصة الخاصة، ففات بانكشافها نفع إيمان جديد {وقد} أي والحال أنه قد {قدمت} أي تقدمت، أي أمرت وأوصيت قبل هذا الوقت موصلاً ومنهياً {إليكم} أي كل ما ينبغي تقديمه حتى لم يبق لبس ولا تركت لأحد حجة بوجه، وجعلت ذلك رفقاً بكم ملتبساً {بالوعيد *} أي التهديد وهو التخويف العظيم على جميع ما ارتكبتموه من الكفران والعدوان في الوقت الذي كانت فيه هذه الحضـرة التي هي غيب الغيب ومسـتورة بسـتائر الكبرياء والعظمة وبل كان ما دونها من الغيب مستوراً، فكان الإيمان به نافعاً.

ولما كانت الأوقات كلها عنده سبحانه حاضرة، عبر سبحانه في تعليل ذلك ب «ما» التي للحاضر دون «لا» التي للمستقبل فقال: {ما يبدل} أي يغير من مغير ما كان من كان بوجه من الوجوه بحيث يجعل له بدل فيكون فيه خلف {القول لدي} أي الواصــــل إليكم من حضـــرتي التي لا يحاط بأمر غرابتها بأن من أشرك بي لا أغفر له وأغفر ما دون ذلك لمن أشاء، والعفو عن بعض المذنبين ليس تبديلاً لأن دلائل العفو تدل على تخصيص الوعيد، وأنه مشروط بشرائط {وما أنا} وأكد النفي فقال: {بظلام} أي بذي ظلم {للعبيد *} لا القرين ولا من أطغاه ولا غيرهم، فأعذب من لا يستحق أو أعفو عمن قلت : إني لا أغفر له وأمرت جندي فعادوه فيّ، ولو عفوت عنه كنت مع تبديل القول قد سؤتهم بإكرام من عادوه فيّ ليس إلا.

ولما كان هذا التقاول مما يهول أمره ويقلع القلوب ذكره، صور وقته بصورة تزيد في ذلك الهول، وينقطع دون وصـــفها القول، ولا يطمع في الخلاص منها بقوة ولا حول، فقال ما معناه: يكون هذا كله {يوم} ولما كان المقصود الإعلام بأن النار كبيرة مع ضيقها، فهي تسع من الخلائق ما لا يقع تحت حصـــر، وأنها مع كراهتها لمن يصـــلاها وتجهمها لهم تحب تهافتهم فيها وجلبهم إليها عبر عنه على طريق الكناية بقوله: {نقول} أي على ما لنا من العظمة التي لا يسوغ لشيء أن يخفى عنها {لجهنم} دار العذاب مع الكراهة والعبوســة والتجهم إظهاراً للهول بتصـــوير الأمر المهدد به، وتقريع الكفار، وتنبيه من يســـمع هذا الخبر عن هذا الســـؤال من الغفلة: {هل امتلأت} فصدق قولنا {لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} [هود: 119] وذلك

بعد أن يلقى فيها من الخلائق ما لا يحيط به الوصف، فتقول: لا، {وتقول} طاعة لله ومحبة في عذاب أعدائه وإخباراً بأنها لم تمتلئ لأن النار من شأنها أنها كلما زيدت حطباً زادت لهباً: {هل من مزيد *} أي زيادة أو شيء من العصاة إزادة، سواء كان كثيراً أو قليلاً، فإني أسع ما يؤتى به إليّ ولا تزال كذلك كما ورد في الحديث «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع الجبار فيها قدمه» أي يضربها من جبروته بسوط إهانة فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط وعزتك، ثم يستمرون بين دولتي الحر والزمهرير، وقد جعل الله سبحانه لذلك آية في هذه الدار باختلاف الزمان في الحر والبرد، فإذا أفرط الحر جاءت رحمته تعالى بالبرد وبالماء من السماء فامتزجا معاً فكان التوسط، وإذا أفرط البرد جاءت رحمته بالحر بواسطة الشمس، فامتزج الموجدان، فكان له توسط، وكل ذلك له دوائر موزونة بأقساط مقسطة معلومة بتقدير العزيز العليم- ذكر ذلك ابن برجان.

ولما ذكر النار وقدمها لأن المقام للإنذار، أتبعها دار الأبرار، فقال ساراً لهم بإسقاط مؤنة السير وطيّ شقة البعد: {وأزلفت} أي قربت بأيسر أمر مع الدرجات والحياض الممتلئة {الجنة للمتقين} أي العريقين في هذا الوصف، فإذا رأوها تسابقوا إليها وتركوا ما كانوا فيه من الموقف من منابر النور وكثبان المسك ونحو هذا، وأما غيرهم من أهل الإيمان فقد يكون لهم على غير هذا الوصف، فيساق إليها الذين اتقوا كما مضى في الزمر.

ولما كان القرب أمراً نسبياً أكده بقوله: {غير بعيد *} أي إزلافاً لا يصح وصفه ببعد.

ولما كان التقريب قد لا يدري الناظر ما سـببه، قال سـاراً لهم: {هذا} أي الإزلاف والذي ترونه من كل ما يسـركم {ما} أي الأمر الذي {توعدون} أي وقع الوعد لكم به في الدنيا، وعبر بالمضـارع حكاية للحال الماضـية، وعبر عن الإزلاف بالماضي تحقيقاً لأمره وتصويراً لحضوره الآن ليكون المضارع من الوعد في أحكم مواضـعه، وأبهم الأمر لأنه أكثر تشـويقاً، والتعيين بعد الإبهام ألذ، فلذلك قال بياناً للمتقين، معيداً للجار لما وقع بينه وبين المبدل منه من الجملة الاعتراضـية جواباً لمن كأنه قال: لمن هذا الوعد؟ فقال تعالى: {لكل أواب} أي رجاع إلى الاسـتقامة بتقوى القلب إن حصـل في ظاهره عوج، فنبه بذلك على أنه من فضـله لم يشـترط في صـحة وصـفه بالتقوى دوام الاستقامة {حفيظ} أي مبالغ في حفظ الحدود وسار العهود بدوام الاسـتقامة والرجوع بعد الزلة، ثم أبدل من «كل» تتميماً لبيان المتقين قوله: {من خشـي} ولم يعد الجارّ لأنه لا اعتراض قبله كالأول، ونبه على كثرة خشيته بقوله: {الرحمن} لأنه إذا خاف مع استحضار الرحمة العامة للمطيع والعاصـي كان خوفه مع اسـتحضـار غيرها أولى، وقال القشـيري: التعبير بذلك للإشـارة إلى أنها خشـية تكون مقرونة بالأنس يعني الرجاء كما هو المشـروع، قال: ولذلك لم يقل {الجبار} أو {القهار} قال: ويقال: الخشـية ألطف من الخوف، فكأنها قريبة من الهيبة {بالغيب} أي مصـاحباً له من غير أن يطلب آية أو أمراً يصير به إلى حد المكاشفة، بل استغنى بالبراهين القاطعة التي منها أنه مربوب، فلا بد له من رب، وهو أيضـاً بيان لبليغ خشيته.

ولما كان النافع من الطاعة الدائم إلى الموت، قال: {وجاء} أي بعد الموت {بقلب منيب *} أي راجع إلى الله تعالى بوازع العلم، ولم يقل: بنفس، لطفاً بالعصاة لأنهم وإن قصرت نفوسهم لم يكن لها صدق القدم فلهم الأسف بقلوبهم، وصدق الندم.

▲ تفسير الآيات رقم [34- 37]

{ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37)}

ولما كان الإخبار بكونها لهم وإن كان أمراً ساراً لا يقتضي دخولها في ذلك الوقت، زاد سرورهم بالإذن بقوله معبراً بضمير الجميع بياناً لأن المراد من «من» جميع المتقين: {ادخلوها} أي يقال لهم: ادخلوا الجنة. ولما كان المراد استقبالهم بالإلذاذ بالبشارة قال: {بسلام} أي مصاحبين للسلامة من كل يمكن أن يخاف، فأنتج ذلك قوله إنهاء للسرور إلى غاية لا توصف: {ذلك} أي اليوم العظيم جداً {يوم} ابتداء أو تقرير {الخلود *} أي الإقامة التي لا آخر لها ولا نفاذ لشيء من لذاتها أصلاً، ولذلك وصل به قوله جواباً لمن كأنه قال: على أي وجه خلودهم؟: {لهم} بظواهرهم وبواطنهم {ما يشاؤون} أي يتجدد مشيئتهم أو تمكن مشيئتهم له {فيها} أي الجنة {ولدينا} أي عندنا

من الأمور التي في غاية الغرابة عندهم وإن كان كل ما عندهم مســـتغرباً {مزيد *} أي مما لا يدخل تحت أوهامهم يشــاؤه، فإن ســياق الامتنان يدل على أن تنوينه للتعظيم، والتعبير بلدى يؤكد ذلك تأكيداً يناســبها بأن يكونوا كل لحظة في زيادة على أمانيهم عكس ما كانوا في الدنيا، وبذلك تزداد علومهم، فمقدورات الله لا تنحصر، لأن معلوماته لا تنتهي.

ولما ذكر ســبحانه أول الســورة تكذيبهم بالقدرة على اعترافهم بما يكذبهم في ذلك التكذيب، ثم ســـلى وهدد بتكذيب الأمم الســـابقة، وذكر قدرته عليهم، وأتبعه الدلالة على كمال قدرته إلى أن ختم بالإشـــارة إلى أن قدرته لا نهاية لها، ولا تحصر بحدّ ولا تحصى بعدّ، رداً على أهل العناد وبدعة الاتحاد في قولهم «ليس في الإمكان أبدع مما كان» عطف على ما قدرته بعد {فحق وعيد} من إهلاك تلك الأمم مما هو أعم منه بشموله جميع الزمان الماضي وأدل على شــمول القدرة، فقال: {وكم أهلكنا} أي بما لنا من العظمة. ولما كان المراد تعميم الإهلاك في جميع الأزمان لجميع الأمم، نزع الجار بياناً لإحاطة القدرة فقال: {قبلهم} وزاد في دلالة التعميم فأثبته في قوله: {من قرن} أي جيل هم في غاية القوة، وزاد في بيان القوة فقال: {هم} أي أولئك القرون بظواهرهم وبواطنهم {أشد منهم} أي من قريش {بطشاً} أي قوة وأخذاً لما يريدونه بالعنف والسطوة والشدّة، وحذف الجار هنا يدل على أن كل من كان قبل قريش كانوا أقوى منهم، وإثباته في ص يدل على أن المذكورين بالإهلاك هناك مع الاتصاف بالنداء المذكور بعض المهلكين لا كلهم. ولما أخبر سبحانه بأشديتهم سبب عنه قوله: {فنقبوا} أي أوقعوا النقب {في البلاد}

بأن فتحو فيها الأبواب الحســـية والمعنوية وخرقوا في أرجائها ما لم يقدر غيرهم عليه وبالغوا في السير في النقاب، وهي طرق الجبال والطرق الضيقة فضـــلاً عن الواســـعة وما في الســـهول، بعقولهم الواســـعة وآرائهم النافذة وطبائعهم القوية، وبحثوا مع ذلك عن الأخبار، وأخبروا غيرهم بما لم يصـــل إليهم، وكان كل منهم نقاباً في ذلك أي علامة فيه فصــارت له به مناقب أو مفاخر.

ولما كان التقدير: ولم يســلموا مع كثربة تنقيبهم وشــدته من إهلاكنا بغوائل الزمان ونوازل الحدثان، توجه سؤال كل سامع على ما في ذلك من العجائب والشـدة والهول والمخاوف سـؤال تنبيه للذاهل الغافل، وتقريع وتبكيت للمعاند الجاهل، بقوله: {هل من محيص *} أي معدل ومحيد ومهرب وإن دق، من قضائنا ليكون لهؤلاء وجه ما في رد أمرنا.

ولما ذكرنا هنا من المواعظ ما أرقص الجماد، فكيف بمن يدعي أنه من رؤوس النقاد، أنتج قوله مؤكداً لأجل إنكار الجاحد وعناد المعاند: {إن في ذلك} أي الأمر البديع من العظات التي صـــــرفناها هنا على ما ترون من الأســـاليب العجيبة والطرق الغريبة في الإهلاك وغيره {لذكرى} أي تذكيراً عظيماً جداً. ولما كان المتذكر بمصـــارع المهلكين تارة بأن يكون حاضـــراً فيرى مصـارعهم حال الإيقاع بهم أو يرى آثارهم بعد ذلك، وتارة يخبر عنها، قال بادئاً بالرائي لأنه أجدر بالتذكير: {لمن كان} أي كوناً عظيماً {له قلب} هو في غاية العظمة والنورانية إن رأى شيئاً من ذلك فهو بحيث يفهم ما يراه

ويعتز به، ومن لم يكن كذلك فلا قلب له لأن قلبه لما كان غير نافع كان عدماً.

ولما كان قد بدأ بالناظر لأنه أولى بالاعتبار وأقرب إلى الادكار، ثنى بمن نقلت إليه الأخبار فقال: {أو ألقى} أي إلقاء عظيماً بغاية إصغائه حتى كأنه يرمي بشيء ثقيل من علو إلى سفل {السمع} أي الكامل الذي قد جرده عن الشواغل من الحظوظ وغيرها إذا سمع ما غاب عنه {وهو} أي والحال أنه في حال إلقائه {شهيد *} أي حاضر بكليته، فهو في غاية ما يكون من تصويب الفكر وجمع الخاطر، فلا يغيب عنه شيء مما تلي عليه وألقي إليه، فيتذكر بما ذكرناه به عن قدرتنا من الجزئيات ما أنتجه من القدرة على كل شيء، ورأى مجد القرآن فعلم أنه كلام الله فسمعه منه فصدق الرسول، وقبل كل ما يخبر به، ومن سمع شيئاً ولم يحضر له ذهنه فهو غائب، فالأول العالم بالقوة وهو المجبول على الاستعداد الكامل فهو بحيث لا يحتاج إلى غير التدبر لما عنده من الكمال المهيأ بفهم ما يذكر به القرآن، والثاني القاصر بما عنده من كثافة الطبع فهو بحيث يحتاج إلى التعليم فيتذكر بشرط أن يقبل بكليته، ويزيل الموانع كلها، فلذلك حسن جداً موقع «أو» المقسمة وعلم منه عظيم شرف القرآن في أنه مبشر للكامل والناقص، ليس منه مانع غير الإعراض.

▲ تفسير الآيات رقم [38- 43]

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38)

فَاصْــبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَــبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّــمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39)
وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (40)
وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (41)
يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42)
إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43)}

ولما دل على تمام علمه وشمول قدرته بخلق الإنسان إثر ما ذكره من جميع الأكوان، ثم بإعدامه لأصـــناف الإنســـان في كل زمان، ذكر بخلق ما أكبر منه في المقدار والإنســـان بعضـــه على وجه آخر، فقال عاطفاً على {ولقد خلقنا الانسان} وأكد تنبيهاً لمنكري البعث وتبكيتاً، وافتتحه بحرف التوقع لأن من ذكر بخلق شــيء توقع الإخبار عما هو أكبر منه: {ولقد خلقنا} أي بما لنا من العظمة التي لا يقدر قدرها ولا يطاق حصـرها {السـماوات والأرض} على ما هما عليه من الكبر وكثرة المنافع {وما بينهما } من الأمور التي لا ينتظم الأمر على قاعدة الأسباب والمسببات بدونها {في ستة أيام} الأرض في يومين، ومنافعها في يومين، والسـماوات في يومين، ولو شـاء لكان ذلك في أقل من لمح البصر، ولكنه سن لنا التأني بذلك {وما مسنا} لأجل ما لنا من العظمة {من لغوب *} أي إعياء فإنه لو كان لاقتضـى ضـعفاً فاقتضـى فســاداً، فكان من ذلك شـــيء على غير ما أردناه، فكان تصـــرفنا فيه غير تصـرفنا في الباقي، وأنتم تشـاهدون الأمر في الكل على حد سـواء من نفوذ الأمر وتمام التصرف، من اللغب وهو الإعياء، والريش اللغاب وهو الفاسد.

ولما دل سبحانه على شمول العلم وإحاطة القدرة، وكشف فيهما الأمر أتم كشف، كان علم الحبيب القادر بما يفعل العدو أعظم نذارة للعدو وبشارة للولي، سبب عن ذلك قوله: {فاصبر على ما} أي جميع الذي {يقولون} أي الكفرة وغيرهم. ولما كانت أقوالهم لا تليق بالجناب الأقدس، أمر سبحانه بما يفيد أن ذلك بإرادته وأنه موجب لتنزيهه، وكماله، لأنه قهر قائله على قوله، ولو كان الأمر بإرادة ذلك القائل استقلالاً لكان ذلك في غاية البعد عنه، لأنه موجب للهلاك، فقال: {وسبح} أي أوقع التنزيه عن كل شائبة نقص متلبساً {بحمد ربك} أي بإثبات الإحاطة بجميع صفات الكمال للسيد المدبر المحسن إليك بجميع هذه البراهين التي خصك بها تفضيلاً لك على جميع الخلق في جميع ما {قبل طلوع الشمس} بصلاة الصبح، وما يليق به من التسبيح غيرها {وقبل الغروب} بصلاة العصر والظهر كذلك فالعصر أصل لذلك الوقت والظهر تبع لها.

ولما ذكر ما هو أدل على الحب في المعبود لأنه وقت الانتشار إلى الأمور الضرورية التي بها القوام والرجوع لقصد الراحة الجسدية بالأكل والشرب واللعب والاجتماع بعد الانتشار والانضمام مع ما في الوقتين من الدلالة الظاهرة على طي الخلق ثم نشرهم، أتبعه ما يكون وقت السكون المراد به الراحة بلذيذ الاضطجاع والمنام فقال: {ومن الليل} أي في بعض أقواته {فسبحه} بصلاتي المغرب والعشاء وقيام الليل لأن الليل وقت الخلوات وهي ألذ المناجاة.

ولما ذكر الفرائض التي لا مندوحة عنها على وجه يشمل النوافل من الصلاة وغيرها، أتبعها النوافل المقيدة بها فقال: {وأدبار السـجود *} أي الذي هو أكل بابه وهو صـلاة الفرض بما يصلى بعدها من الرواتب والتسبيح بالقول أيضاً، قال الرازي: واعلم أن ثواب الكلمات بقدرة صدورها عن جنان المعرفة والحكمة وأن تكون عين قلبه تدور دوران لسـانه ويلاحظ حقائقها ومعانيها، فالتسبيح تنزيه من كل ما يتصور في الوهم أو يرتسم في الخيال أو ينطبع في الحواس أو يدور في الهواجس، والحمد يكشف عن المنة وصنع الصنائع وأنه المتفرد بالنعم. انتهى. ومعناه أن هذا الحمد هو الحقيقة، فإذا انطبقت في الجنان قامت باللسـان، وتصـورت بالأركان، وحمل على الصـلاة لأنها أفضـل العبادات، وهي جامعة بما فيها من الأقوال والأفعال لوجهي الذكر: التنزيه والتحميد، وهاتان الصـلاتان المصـدر بهما أفضـل الصـلوات فهما أعظم ما وقع التسبيح بالحمد، والمعنى. والله أعلم. أن الاشتغال استمطار من المحمود المسبح للنصر على المكذبين، وأن الصلاة أعظم ترياق للنصر وإزالة الهم، ولهذا كان النبي صـلى الله عليه وسـلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

ولما سـلاه سـبحانه عما يسـمع منهم من التكذيب وغيره من الأذى بالإقبال على عليّ حضـرته والانتظار لنصـرته، أتبعه تعزية الإشـارة فيها أظهر بما صـوره يوم مصـيبتهم وقربه حتى أنه يسـمع في وقت نزول هذه الآية ما فيه لهم من المثلات وقوارع المصـيبات، تحذيراً لهم وبشـرى لأوليائه بتمام تأييده عليهم ونصره لهم في الدنيا والآخرة فقال: {واستمع} أي اسمع بتعمدك للسمع

بغاية جهدك بإصغاء سمعك وإقبال قلبك بعد تسبيحك بالحمد ما يقال لهم {يوم يناد المناد} لهم في الدنيا يوم بدر أول الأيام التي أظهر الله فيها لأوليائه مجده بالانتقام من أعدائه، وفي الآخرة يوم القيامة في صورة النفخة الثانية وما بعده.

ولما كان المراد إظهار العظمة بتصوير تمام القدرة، وكان ذلك يتحقق بإسماع البعيد من محل المنادي كما يسمع القريب سواء، وكان القرب ملزوماً للسماع، قال مصوراً لذلك: {من مكان} هو صخرة بيت المقدس {قريب} أي يسمع الصوت من بعد كما يسمعه من قرب، يكونون في البقاع سواء لا تفاوت بينهم أصلاً.

ولما عظم هذا المقام بما كساه من ثوب الإجمال أبدل منه إيضاحاً وزيادة في التعظيم قوله: {يوم يسمعون} أي الذين ينادون {الصيحة} أي صيحة أصمتهم المستنفر لهم إلى بدر في الدنيا، فكانت صيحة قاضية بصممهم عن جميع تصرفاتهم، وصيحة النفخة الثانية في الصورة في الآخرة فهما نفختا حشر إلى القضاء بين المحق والمبطل {بالحق} أي لأمر الثابت الذي كانوا يسمونه سحراً، ويعدونه خيالاً، فيعلمون حينئذ أن الواقع قد يطابقه، فكان حقاً فإنه قد طابقه الواقع، فكان الإخبار به صدقاً.

ولما عظمه سبحانه باجمال بعد إجمال، إشارة إلى أن ما فيه من شديد الأهوال، يطول شرحه بالمقال، زاده تعظيماً بما أنتجه الكلام فقال: {ذلك} أي اليوم العظيم الذي يظهر به المجد ويعلو بضعفاء المؤمنين المجد {يوم الخروج} أي الذي لا خروج أعظم منه وهو خروجهم من بيوتهم في الدنيا

إلى مصــارعهم ببدر، ومن قبورهم من الأرض التي خلقوا منها إلى مقامعهم في النار.

ولما بنيت دعائم القدرة ودقت بشـائر النصـرة وختم بما يصـدق على البعث الذي هو الإحياء الأعظم دالاً بما هو مشـــاهد من أفعاله، وأكده لإنكارهم البعث، فقال: {إنا} أي بما لنا من العظمة {نحن} خاصـة {نحيي ونميت} تجدد ذلك شيئاً بعد شيء سنة مستقرة وعادة مستمرة كما تشاهدونه، فقد كان منا بالإحياء الأول البدء {وإلينا} خاصاً بالإماتة ثم الإحياء {المصير *} أي الصـيرورة ومكانها وزمانها بأن نحيي جميع من أمتناه يوم البعث ونحشـرهم إلى محل الفصـل، فنحكم بينهم وليس المعاد بأصـعب من المبدأ، فمن أقر به وأنكر البعث كان معانداً أو مجنوناً قطعاً.

▲ تفسير الآيات رقم [44- 45]

{يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (44)
نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (45)}

ولما تحقق بذلك أمر البعث غاية التحقق، صـــور خروجهم فيه فقال معلقاً بما ختم به الابتداء مما قبله زيادة في تفخيمه وتعظيمه وتبجيله: {يوم تشقق الأرض} وعبر بفعل المطاوعة لاقتضـــاء الحال له، وحذف تاء المطاوعة إشـارة إلى سـهولة الفعل وسـرعته {عنهم} أي مجاوزة لهم بعد أن كانوا في بطنها فيخرجون منها أحياء كما كانوا على ظهرها أحياء، حال كونهم {سـراعاً} إلى إجابة مناديها، وأشـا إلى عظمه بقوله: {ذلك} أي الإخراج

العظيم جداً {حشـــر} أي جمع بكره، وزاد في بيان عظمة هذا الأمر بدلالته على اختصـاصـه بتقديم الجار فقال: {علينا} أي خاصـة {يسـير *} فكيف يتوقف عاقل فيه فضــــلاً عن أن ينكره، وأما غيرنا فلا يمكنه ذلك بوجه. انتهى.

ولما أقام سـبحانه الأدلة على تمام قدرته وشـمول علمه وختم بسـهولته عليه واختصـاصـه به، وصـل تسـلية للنبي صـلى الله عليه وسـلم بتهديدهم على تكذيبهم بالعلم الذي هو أعظم التهديد فقال: {نحن} أي لا غيرنا ولا هم أنفســهم {أعلم} أي من كل من يتوهم فيه العلم {بما يقولون} أي في الحال والاستقبال من التكذيب بالبعث وغيره مع إقرارهم بقدرتنا.

ولما كان التقدير: فنحن قادرون على ردهم عنه بما لنا من العلم المحيط وأنت لهم منذير تنذرهم وبال ذلك، عطف عليه قوله: {وما أنت عليهم} ولما أفاد حرف الاستعلاء القهر والغلبة صرح به مؤكداً في النفي فقال: {بجبار} أي متكبر قهار عات تردهم قهراً عما تكره منهم من الأقوال والأفعال، إنما أنت منذر، ولما نفى عنه الجبروت، أثبت لهم ما أفهمه واو العطف من النذارة كما قدرته قبله، فقال مسبباً عنه معبراً بالتذكير الذي يكون عن نسيان لأن كل ما في القرآن من وعظ إذا تأمله الإنسـان وجده شـاهداً في نفســه أو فيما يعرفه من الآفاق {فذكر} أي بطريق البشارة والنذارة {بالقرآن} أي الجامع بمجده لكل خير المحيط كل صــلاح {من يخاف وعيد *} أي يمكن خوفه، وهو كل عاقل، ولكنه ســاقه هكذا إعلاماً بأن الذي يخاف بالفعل فيكشــف الحال عن إســلامه هو المقصــود بالذات، وغيره إنما يقصــد لإقامة الحجة

عليه لا لدده ولا يؤسـف عليه ولا يتأثر بتكذيبه بل يعتقد أنه عدم لا تضـر عداوته ولا تنفع ولايته، وما آذى إلا نفسـه وكل من والاه في الدنيا والآخرة، وهذا هو المجد للقرآن ولمن أنزله ولمن أتى به عنه بتمام قدرة من هو صفته وشمول علمه، فقد انعطف هذا الآخر على ذلك الأول أشد انعطاف، والتفت فروعه بأصـله أتم التفاف، فاعترفت به أولو براعة وأهل الإنصـاف والاتصاف بالتقدم في كل صناعة بالسبق الذي لا يمكن لحاقه أيّ اعتراف. والله الهادي للصواب.

▲ سورة الذاريات

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي

▲ تفسير الآيات رقم [1- 8]

{وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1)

فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2)

فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3)

فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (4)

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5)

وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6)

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7)

إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8)}

لما ختم سبحانه ق بالتذكير بالوعيد، افتتح هذه بالقسم البالغ على صدقه، فقال مناسباً بين القسم والمقسم عليه: {والذاريات} أي الرياح التي من شأنها الإطارة والرمي والتفريق والإذهاب، وأكد ذلك بقوله: {ذرواً * } أي بما تصرفها فيه الملائكة، قال الأصبهاني: الرياح تحت أجنحة الكروبيين حملة العرش، فتهيج من ثم فتقع بعجلة الشمس ثم تهيج عن عجلة الشمس فتقع

برؤوس الجبال، ثم من رؤوس الجبال تقع في البر، فأما الشـــمال فإنها تمر تحت عدن فتأخذ من عرف طيبها فتمر على أرواح الصـــديقين، ثم تأخذ حدها من كرســـي بنات نعش إلى مغرب الشـــمس، وتأتي الدبور حدها من مغرب الشمس إلى مطلع سهيل، وتأتي الجنوب حدها من مطلع سهيل إلى مطلع الشـــمس، وتأتي الصـــبا حدها من مطلع الشـــمس إلى كرســـي بنات نعش، فلا تدخل هذه في حد هذه ولا هذه في حد هذه.

ولما كانت غاية الذرو التهيئة للحمل، قال مســبباً ومعقباً: {فالحاملات} أي من السحب التي فرقت الريح أصلها وهو الأبخرة، وأطارته في الجو في جهة العلو ثم جمعته، فانعقد سحاباً فبسطه مع الالتئام فحمله الله ما أوجد فيه من مراده من الماء والصـــواعق وغيرها {وقراً *} أي حملاً ثقيلاً، وقد كان قبل ذلك لا يرى شـــيء منه ولا من محموله، فتحققوا قدرة الله على كل ما يريد وإن لم تروا أسبابه، ولا يغرنكم بالله الغرور.

ولما كان الحمل إنما هو الوضـــع في الأماكن التي يراد ضـــرها أو نفعها، وكان سير الغمام بعد الحمل في ساحة الجو وباحة الأفق من غير ممسك يرى أدل على القدرة، ولا سيما إذا كان مع الجري الذي يضرب به لسرعته المثل، وكذا جري السفن في باحة البحر بعد ثقلها بالوسق قال: {فالجاريات يسراً *} أي جرياً ذا سهولة.

ولما كان في غاية الدلالة على تمام القدرة بغريق محمولها في الأراضـــي المجتاحة ولا ســـيما إن تباعدت أماكن صـــبه ومواطن ســـكبه، وكان ذلك التفريق هو غاية الجري المترتب على الحمل المترتب على الذرو، قال

مســـبباً معقباً مشـــيراً بالتفعيل، إلى غرابة فصـــلها لقطراتها وبداعة تفريقها لرحمتها من عذابها، وغير ذلك من أحوال الجاريات وتصـريف الســاريات: {فالمقسمات} أي من السحب بما تصرفها فيه الملائكة عليهم السلام، وكذا السفن بما يصرفها الله به من الرياح اللينة أو العاصفة من سلامة وعطب وســـرعة وإبطاء، وكذا غيرهما من كل أمر تصـــرفه الملائكة بين العباد وتقسمه.

ولما كان المحمول مختلفاً كما تقدم، قال جامعاً لذلك: {أمراً *} أي من الرحمة أو العذاب، قال الرازي في اللوامع: وهذه أقسام يقسم الله بها ولا يقسم بها الخلق لأن قسم الخلق استتشـــهاد على صـحة قولهم بمن يعلم السـر كالعلانية وهو الله تعالى، وقسم الخالق إرادة تأكيد الخبر في نفوسهم فيقسم ببعض بدائع خلقه على وجه يوجب الاعتبار ويدل على توحيده، فالرياح بهبوبها وسكونها لتأليف السحاب وتذرية الطعام واختلاف الهواء وعصوفها مرة ولينها أخرى والســـحاب بنحو وقوفها مثقلات بالماء من غير عماد وصـــرفها في وقت الغنى عنها بما لو دامت لأهلكت، ولو انقطعت لم يقدر أحد على قطرة منها، وبتفريق المطر وإلا هلك الحرث والنســـل، والســـفن بتسـخير البحر لجريانها وتقدير الريح لها بما لو زاد لغرق، ولو ركد لأهلك، والملائكة تقسم الأمور بأمر ربها، كل ذلك دليل على وجود الصانع الحكيم، والفاطر العليم، القادر الماجد الكريم.

ولما كانوا يكذبون بالوعيد، أكد الجواب بعد التأكيد بنفس القسم فقال: {إنما} أي الذي {توعدون} أي من الوعد للطائع والوعيد للعاصـــي، وإن لم تروا

أســــبابه، ولما كان ما توعدوا به لتحقق وقوعه وقربه كأنه موجود يخاطبهم عن نفســه، عبر عن المصــدر باسـم الفاعل فقال: {لصــادق *} أي مطابق الإخبار به للواقع، وسترون مطابقته له إذا وقع، وتعلمون أن ذلك الواقع حق ثابت لا خيال لمطابقته للخبر، قال ابن برجان: واعلم أن الله عز وجل ما أقسـم بقسم إلا مطابقاً معناه لمعان في المقسـم من أجله بسـراج منير يهدي بـه الله تعالى من يشـــــاء، وإنما يعمي عن رؤية ذلك ظواهر إشــــخاص للمحسـوسـات، ويصـم عن إسـماع ندائها ضـوضـاء المشـاهدات، ولولا ذلك لنودوا بها من مكان قريب، وقال البيضــاوي: كأنه اسـتدل باقتداره على هذه الأشياء العجيبة المخالفة لمقتضى الطبيعة على اقتداره على البعث.

ولما كان أجل وعيدهم وما يتعلق بالجزاء يوم القيامة وكانوا ينكرونه، قال: {وإن الدين} أي المجازاة لكل أحد بما كسب يوم البعث، والشرع الذي أرسلت به هذا النبي الكريم {لواقع *} لا بد منه وإن أنكرتم ذلك، فيظهر دينه على الدين كله كما وعد بذلك، ثم نقيم الناس كلهم للحساب.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير في برهانه: لما ذكر ســـــبحانه المواعيد الأخروية في ســـورة ق وعظيم تلك الأحوال من لدن قوله {وجاءت ســـكرة الموت بالحق} إلى آخر الســـورة، أتبع ســـبحانه ذلك بالقســـم على وقوعه وصـدقه فقال: {والذاريات ذرواً} إلى قوله: {إنما توعدون لصـادق وإن الدين لواقع} والدين الجزاء، أي أنهم سـيجازون على ما كان منهم ويوفون قسـط أعمالهم {فلا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون} {إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً}. ولما أقســم الله على صـــدق وعده ووقوع الجزاء، عقب ذلك بتكذيبهم

بالجزاء وازدرائهم فقال {يسـألون أيان يوم الدين} ثم ذكر تعالى حال الفريقين وانتهاء الطريقين إلى قوله: {وفي الأرض آيات للموقنين} فوبخ تعالى من لم يعمل فكره ولا بسط نظره فيما أودع سبحانه في العالم من العجائب، وأعقب بذكر إشـــارات إلى أحوال الأمم وما أعقبهم تكذيبهم، وكل هذا تنبيه لبســـط النظر إلى قوله: {ومن كل شـــيء خلقنا} بقوله: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} أي إن هذا دأبهم وعادتهم حتى كأنهم تعاهدوا عليه وألقاه بعضهم إلى بعض فقال تعالى: {تواصوا به أم هم قوم طاغون} أي عجباً لهم في جريهم على التكذيب والفســـاد في مضـــمار واحد، ثم قال تعالى: {بل هم قوم طاغون} أي أن علة تكذيبهم هي التي اتحدت فاتحد معلولها، والعلة طغيانهم وإظلام قلوبهم بما سـبق {ولو شـئنا لأتينا كل نفس هداها} ثم زاد نبيه عليه الســلام أشـياء مما ورد على طريقة تخييره عليه السـلام في أمرهم من قوله تعالى: {فتول عنهم فما أنت بملوم} ثم أشار تعالى بقوله: {وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين} إلى أن إحراز أجره عليه الســـــلام إنما هو في التذكار والدعاء إلى الله تعالى، ثم ينفع الله بذلك من سـبقت له السـعادة {إنما يسـتجيب الذين يسـمعون} ثم أخبر نبيه عليه الصلاة والسلام بأن تكذيبه سينالهم قسط ونصيب مما نال غيرهم من ارتكب مرتكبهم، وســـلك مســـلكهم، فقال تعالى {وإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم} إلى آخر السورة– انتهى.

ولما أخبر ســـبحانه عن ثبات خبره، أتبعه الإخبار عن وهي كلامهم، فقال مقسماً عليه لمبالغتهم في تأكيد مضامينه مع التناقض بفعله الجميل وصنعه

الجليل، إشـــارة إلى أنهم لم يتخلقوا من أخلاقه الحســـنى بقول ولا فعل : {والســـماء ذات الحبك *} أي الآيات المحتبكة بطرائق النجوم المحكمة، الحســنة الصــنعة، الجيدة الرصــف والزينة، حتى كأنها منسـوجة، الجميلة الصــنعة الجليلة الآثار، الجامعة بين القطع والاختلاط والاتفاق والاختلاف، وأصـل الحبك الإحكام في امتداد واطراد– قاله الرازي في اللوامع. {إنكم} يا معشـــر قريش {لفي قول} محيط بكم في أمر القرآن والآتي به وجميع أمر دينكم وغيره مما تريدون به إبطال الدين الحق {مختلف *} كاختلاف طرائق الســـماء التي لا تكاد تنتظم، ولا يعرف أولها من آخرها، واختلاف هذه الأشـياء المقسـم بها من أول السـورة واختلاف غاياتها لكنه مع ذلك متدافع، وإن كنتم تجتهدون في تزيينه وتقريبه للأفهام وتحســـينه فإنه لا يكاد إذا عرضـــه الناقد على الفكر النافذ ينضـــبط بضـــابط ولا يرتبط برابط، بل تارة تقولون: هذا شعر فيلزمكم وصفه بما تصفون به الشعر من الاتساق بالوزن المجرد والروي المتحد، والعذوبة والرشـاقة، وتارة تقولون: هذا سـحر فيلزمكم مع الإقرار بالعجز عنه أنه لا حقائق له والواقع أنه لا يتأمله ذو فهم إلا رأى حقائقه أثبت من الجبال، وتارة تقولون : أضـــغاث أحلام، فيلزمكم أنه لا ينضبط بضابط، ولا يكون له مفهوم يحصل، ولا يعجز أحد عن تلفيق مثله، فقد أبطلتم قولكم: إنه شعر وإنه سحر.

وتارة تقولون: إنه كهانة فيلزمكم أن تعتقدوا منه ما تعتقدون في أقوال الكهان من الإخبار بالمغيبات وإظهار الخبء وفصل الحكم، فأبطلتم ما مضـى من قولكم أضـغاث أحلام وسـحر وشـعر، وتارة تقولون، إنه جنون، فقد نقضـتم

جميع أقوالكم الماضـية وناديتم على أنفسـكم بالمباهتة، تقولون في الآتي به: إنه شــاعر وســاحر ومجنون وكاهن وكاذب، وكل قول منها ينقض الآخر، وأنتم تدعون أنكم أصـدق الناس وأبعدهم عن عار الكذب، وأنكم أعقل الناس وأنصـــــفهم، فقد تباعد أولاً ما بين أقوالكم، ثم ما بينها وبين أفعالكم، فكان اختلاف طرائق النجوم دالاًّ على مانع مختار تام العلم كامل القدرة، وكذا اختلاف قولكم على هذا الوجه مع ما لكم من العقول دالّ على قاهر لكم على ذلك، فهما آيتان في الآفاق وفي أنفسكم.

▲ تفسير الآيات رقم [9- 18]

{يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9)
قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10)
الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11)
يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12)
يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13)
ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14)
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15)
آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16)
كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17)
وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18)}

ولما كان هذا الاختلاف مما لا يكاد يصدق لأنه لا يقع فيه عاقل، بين سببه بأنهم مغلوبون عليه بقهر يد القدرة فقال: {يؤفك} أي يصــرف بأيســر أمر وأسهله عن سنن الاستقامة، ويقلب من وجهه لقفاه }عنه} أي يصدر صرفه عن هذا القول مجازاً لما يلزمه من عاره، فهو لأجل ذلك يقوله {من أفك *} أي قلبه قلب قاهر أي تبين بهذا الصـرف الذي هو أعظم الصـرف أنه حكم في الأزل حكماً ثابتاً جامعاً، فصار لا يصد عنه قول ولا فعل إلا كان مقلوباً وجهه إلى قفاه لا يمكن أن يأتي منه بشــــيء على وجهه، فكأنه لا مأفوك سواه لشدة افكه وعجيب أمره.

ولما كان الكذب الإخبار بما لا حقيقة له وتعمد الافتراء، وكان الخرص الكذب والافتراء والاختلاف وكل قول بالظن، قال معلماً بما لهم على قولهم هذا: قتلوا أو قتلتم– هكذا كان الأصل ولكنه أظهر الوصف الذي استحقوه بقولهم: {قتل الخراصون *} أي حصل بأيسر أمر قتل الكذابين ولا محالة من كل قاتل، والمتقولين بالظن المنقطعين للكلام من أصـــل لا يصـــلح للخرص وهو القطع، وهم الذين يقولون عن غير سند من كتاب أو سنة أو أثارة من علم، وهو دعاء أو خبر لأنه مجاب: {الذين هم} خاصـــة {في غمرة} أي أعماق من العمى والضـــلال، غارقون في ســكرهم وجهلهم الذي غمرهم، ولذلك هم مضطربون اضطراب من هو يمشي في معظم البحر فهو لا يكاد ينتظم له أمر من قول ولا فعل ولا حال {ساهون *} أي عريقون في السـهو وهو النسـيان والغفلة والحيرة وذهاب القلب إلى غيره ما يهمه، ففاعل ذلك ذو ألوان متخالفة من هول ما هو فيه وشدة كربه.

ولما حكم بسهوهم، دل عليه بقوله: {يسئلون} أي حيناً بعد حين على سبيل الاستمرار استهزاء بقولهم: {أيان} أي متى وأي حين {يوم الدين *} أي وقوع الجزاء الذي يخبرنا به، ولولا أنهم بهذه الحالة لتذكروا من أنفســـهم أنه ليس أحد منهم يبث عبيده أو أجراءه في عمل من الأعمال إلا وهو يحاسبهم على أعمالهم، وينظر قطعاً في أحوالهم، ويحكم بينهم في أقوالهم وأفعالهم فكيف يظن بأحكم الحاكمين أن يترك عبيدة الذين خلقهم على هذا النظام المحكم وأبدع لهم هذين الخافقين وهيأ لأجلهم فيهما ما لا ضـــرورة لهم في التزود للمعاد إلى سواه فيتركهم سدى يوجدهم عبثاً.

ولما تقرر أمر القيامة بالتعبير بساهون قال: {يوم} أي نقول يوم {هم على النار يفتنون *} أي يرمون فيحرقون ويعذبون ويصبحون... من الاختلاف مقولاً لهم على ســبيل القرع والتوبيخ: {ذوقوا فتنتكم}. . . العقوبة من الفتنة المحيطة.

.. واستعجالكم ما توعدون استهزاء وتكذيباً {هذا الذي كنتم به تستعجلون *} أي تطلبون عجلته... {إن المتقين} أي الذين كانت التقوى لهم وصفاً ثابتاً {في جنات} أي بساتين عظيمة نحن داخلها... {وعيون *}... {آخذين... ما} أي كل شيء {آتاهم... ربهم} أي المحسن إليهم... بتمام علمه وشامل قدرته وهو لا يدع لهم لذة إلا أنحفهم بها فيقبلونها بغاية الرغبة لأنها في غاية النفاسة. ولما كان هذا أمراً عظيماً يذهب الوهم في سببه كل مذهب، علله بقوله مؤكداً لنسبة الكفار لهم إلى الإساءة: {إنهم كانوا} أي كوناً هو كالجبلة. ولما كان الإنســـان إما يكون مطيعاً في مجموع عمره أو في

بعضـــه. . . على الطاعة، وكانت الطاعة تجبُّ ما قبلها، وتكون ســـبباً في تبديل السيئات حسنات فضلاً منه سبحانه، فكان كل من القسمين مطيعاً في جميع زمانه، نزع الجارّ فقال: {قبل ذلك} أي في دار العمل، وقيل: أخذوا ما فرض عليهم بغاية القبول لأنهم كانوا قبل فرض الفرائض يعملون على المحبة وهو معنى {محســـنين *} أي في معاملة الخالق والخلائق، يعبدون الله كأنهم يرونه، ثم فســـر إحســـانهم معبراً عنه بما هو في غاية المبالغة بقوله: {كانوا} أي لما عندهم من الإجلال له والحب فيه بحيث كأنهم مطبوعون عليه، ولغاية التأكيد وقع الإســـناد إليهم مرتين {قليلاً من الليل} الذي هو وقت الراحات وقضـاء الشـهوات، وأكد المعنى بإثبات «ما» فقال: {ما يهجعون *} أي يفعلون الهجوع وهو النوم الخفيف القليل، فما ظنك بما فوقه لأن الجملة تثبت هجوعهم وهو النوم للراحة، وكســـر التعب وما ينفيه، وذكر الليل لتحقق المعنى فإن الهجوع النوم ليلاً، فالمعنى أنهم يحيون أكثر الليل وينامون أقله. ولما كان المحســـن لا يرى نفســـه إلا مقصـراً، قال دالاًّ على ذلك وعلى أن تهجدهم يتصل بآخر الليل مؤكداً بالإسناد مرتين أيضـاً: {وبالأسحار} قال ابن زيد: السحر: السدس الأخير من الليل {هم} أي دائماً بظواهرهم وبواطنهم {يســـتغفرون *} أي يعدون مع هذا الاجتهاد أنفســـهم مذنبين ويســـألون غفران ذنوبهم لوفور علمهم بالله وأنهم لا يقدرون على أن يقدروه حق قدره وإن اجتهدوا لقول سيد الخلق «لا أحصي ثناء عليك» وإبراز الضـــمير دال على أن غيرهم لو فعل هذا ليلة لأعجب بنفســـه ورأى أنه لا أحد أفضل منه، وعلى أن استغفارهم في الكثرة يقتضـي أنهم يكونون بحيث

يظن أنهم أحق بالتذلل من المصـرين على المعاصـي، فإن اسـتغفارهم ذلك على بصـيرة لأنهم نظروا ما له سـبحانه في الآفاق وفي أنفسـهم من الآيات والحكم البالغة التي لا تحصـى فعلموا أنه أهل لأن يطاع ويخشـى فاجتهدوا وتركوا الهجوع، وأجروا الدموع، ثم قابلوا ذلك بنعمه فإذا الأعمال في غاية التقصير فأقبلوا على الاستغفار عالمين بأنه لا يمكن أن يقدر حق قدره.

▲ تفسير الآيات رقم [19– 25]

{وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19)
وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20)
وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21)
وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22)
فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)
هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24)
إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25)}

ولما ذكر معاملتهم للخالق، أتبعه المعاملة للخلائق تكميلاً لحقيقة الإحسـان فقال: {وفي أموالهم} أي كل أصـنافها {حق} أي نصـيب ثابت. ولما كان السـياق هنا للإحسـان، فكان إحسـانهم لفرط محبتهم إلى عباد الله لا يوقفهم عن الواجب بخلاف ما في «سأل» من سياق المصلين مطلقاً ترك وصفه بالمعلومية فقال: {للسـائل} أي الذي ينبه على حاجته بسـؤال الناس وهو المتكفف {والمحروم *} وهو المتعفف الذي لا يجد ما يغنيه، ولا يسأل الناس ولا يفطن له ليتصـدق عليه، وهذه صـفة أهل الصـفة رضـي الله عنهم،

فالمحسنون يعرفون صاحب هذا الوصف لما لهم من نافذ البصيرة ولله بهم من العناية.
ولما دل إقسامه بالسماء وما قبلها من الذاريات على ما له في العلويات من الآيات إلى أن ختم بالأموال التي تنبتها الأرض، فكان التقدير : ففي السماوات آيات للمؤمنين دالات على عظمته واستحقاقه للعبادة بغاية الخضوع رغباً ورهباً، عطف عليه قوله: {وفي الأرض} مما فيه أيضاً من الاختلاف بالمعادن الكثيرة المتباينة مع اتحاد أصلها والنبات والحيوان والجماد والبر والبحر وغير ذلك من الأسرار الدالة على الفاعل المختار {آيات} أي دلالات عظيمات هي مع وضوحها بعد التأمل خفيات {للموقنين *} الذين صار الإيقان لهم غريزة ثابتة، فهم لذلك يتفطنون لرؤية ما فيها مع ما يلابسهم منها من الأسباب فيشغلهم ولا يرون أكثر أسباب ما فيها من الآيات فأداهم ذلك إلى الإيقان بما نبهت عليه الرسل مما تستقل به العقول من البعث وغيره، قال القشيري : من الآيات فيها أنها تحمل كل شيء، فكذلك العارف يحمل كل أحد ومن استثقل أحداً أو تبرم برؤيته أحداً فلغيبته عن الحقيقة ومطالعة الخلق بعين التفرقة. وأهل الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة، ومن الآيات فيها أنه يلقى عليها كل قذارة وقمامة فتنبت كل زهر ونور وكذلك العارف يتشرب ما يلقى من الجفاء ولا يترشح إلا بكل خلق عليّ وشيمة زكية.
ولما أشار إلى آيات الآفاق، أتبعها آيات الأنفس فقال: {وفي أنفسكم} أي من الآيات التي شاركتم بها الجماد، ثم فارقتموه بالنمو ثم بالحس ثم فارقتم

الحيوان الخسـيس بالعقل الموصـل إلى بدائع العلوم ودقائق الفهوم. ولما كانت أظهر الآيات، سبب عن التنبيه عليها الإنكار عليهم في ترك الاعتبار بها فقال: {أفلا تبصـرون *} أي بأبصـاركم وبصـائركم فتتأملوا ما في ذلك من الآيات وتتفكروا هل ترون أسـباب أكثرها، فإن كل هذه آيات دالة على قدرة الصانع على كل ما يريد واختياره، وأنه ما خلق هذا لخلق سدى، فلا بد أن يجمعهم إليه للعرض عليه، فالموقنون لا يزالون ينظرون في أمثال هذا بعيون باصـرة وأفهام نافذة، فكلما رأوا آية اعتبروا بها، فازدادوا إيماناً إلى إيمانهم، وإيقاناً مع إيقانهم، وأول نظرهم فما أودعوا من الآيات الحاجة، فمن تأملها علم أنه عبد، ومتى علم ذلك علم أن له رباً غير محتاج، ومن أبصر جميع الصـفات والأسـماء فنفذ فهمه في شـفاف الكائنات، فارتقى إلى أعلى الدرجات.

ولما بان بما قدمته في {المقسـمات أمراً} ما في جهة العلو من الأسـباب الموجبة للنعمة والعذاب، قال: {وفي السـماء} أي جهة العلو {رزقكم} بما يأتي من المطر والرياح والحر والبرد وغير ذلك مما رتبه سـبحانه لمنافع العباد {وما توعدون *} وجميع ما أتتكم به الرسل من الوعد والوعيد والصعقة والزلزال وغير ذلـك من الأهوال وموجبـات النكـال، وكـذا الرحمـة والخير والنعمة وكل ما يتعلق به الآمال، فكما أنكم تصـدقون بذلك وأنتم لا ترونه فكذلك صـدقوا بالجنة والنار وإن لم تروها، فإنه لا فرق بين ماء ينزله الله فيكون منه رياض وجنات وشـوك وأدواء ومرارات، وسـموم وعقارب وحيات، وخشاش وسباع وحشرات، وبين ماء يعيد به الأموات، ثم يحشرهم إلى جنان

ونيران، فكما أنه لا مرية في إظهار هذا الغيب فكذلك لا لبس في إظهار ذلك الغيب، ومن المعنى أيضاً أنك لا تشتغل برزق فإنه في السماء، ولا سبيل لك إلى العروج إليها، واشتغل بما كلفته من الخدمة لمن عنده الرزق ففي السماء الرزق وإليها يرفع العمل، فإن أردت أن ينزل إليك رزقك فأصعد إليها الصالح من عملك، ولهذا قالوا: الصلاة فرع باب الرزق {واصطبر عليها لا نسئلك رزقاً نحن نرزقك}.

ولما أقسم بما له من المقدورات لمن وقف مع المحسوسات المشهورات، فترقوا بذلك إلى أعلى الدرجات، وانكشف ما له من الكمال انكشافاً تاماً، وعلم أن في خزائنه سبحانه كل ما أخبرت عنه به الرسل من وعد ووعيد، سبب عنه قوله مقسماً بنفسه الأقدس لكن بصفة مألوفة فقال: {فورب} أي مبدع ومدبر {السماء والأرض} بما أودع فيهما مما علمتموه وما لم تعلموه {إنه} أي الذي توعدونه من الخير والشر والجنة والنار وتقدم الإقسام عليه أنه صادق {لحق} أي ثابت يطابقه الواقع فقد جمع الحق مع الصدق {مثل ما أنكم} أي وأنتم مساوون لبقية ما في الأرض من الجمادات وغيرها {تنطقون *} نطقاً مجدداً في كل وقت مستمراً، ليس هو بخيال ولا سحر، أي أن ذلك لحق مثل ما أن هذا حق، فالذي جعل لكم قوة النطق من بين ما في الأرض بأسباب لا ترونها وتحصونها، ومع ما عداكم من ذلك بأسباب مثل ذلك قادر على الإتيان بوعده من الرزق وغيره ما دمتم تحتاجون إلى ذلك بما جعل فيكم من الحياة التي يصح بها العلم الناشئ عنه النطق المحوج إلى الرزق من أي جهة أرادوا، وإن لم تروا أسبابه كما

أنه لو أراد لأنطق جميع من في السماوات والأرض من الجمادات بما يقيمه لها من الأسباب التي أقامها لكم وإن لم تروا ذلك.

ولما بين بما مضى من القسم وما أتبعه من أنه أودع في السماوات والأرض وما بينهما أسباباً صالحة للإتيان بما وعدناه من الخير، وما توعدنا به من الشر وإن كنا لم نرها وهو قادر مختار، فصار ذلك كالمشاهد، ولا وجه للتكذيب بوعد ولا وعيد، دل عليه وصوره بما شوهد من أحوال الأمم وبدأ- لأن السياق للمحسنين- برأس المحسنين من أهل هذه الأنباء الذي أخبرته الملائكة عليهم السلام بما سببه معه وإن كان على غير العادة. فتعجب زوجته من ذلك مع كونها أعلى نساء ذلك الزمان، وأتبع قصته قصة لوط ابن أخيه عليهما السلام لاتصال ما بين قصتيهما في الزمان، ولمناسبة عذابهم لما أقسم به في أول السورة، فإنه سبحانه أمر الذاريات فاقتلعتهم بقراهم وحملتها كما تحمل السحاب ثم كبتهم فرجمتهم، والأرض فخسفت بهم، والملائكة الموكلة بمثل ذلك، ففعلوا جميع ما أمروا به ورأوهم في قريتهم وقصدوهم بالمكر لأنهم خفي عليهم أمرهم، وأتوا الخليل عليه السلام وهو أعلى ذلك الزمان وهم في ذلك ولم يعلم أول الأمر بشيء من حالهم ولا ظنهم إلا آدميين، فقال مفخماً لأمر القصة بتخصيص الخطاب لأعلى الخلق وأنفذهم فهما إشارة إلى أنه لا يفهم هذا حق فهمه سواه على طريق الاستفهام على عادة العرب في الإعلام بالأمور الماضية وإن كان المخبر عالماً بأن المخاطب لا علم له بذلك لأن المقصود ليس إلا التنبيه على أن ذلك الأمر مما ينبغي الاهتمام به والبحث فيه ليعرف ما فيه، من الأمور

الجليلة؛ قال أبو حيان: تقرير لتجتمع نفس المخاطب كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدثه بعجيب فتقرره: هل سمعت ذلك أم لا؟ فكأنك تقتضي بأن يقول: لا، ويستطعمك الحديث- انتهى. {هل أتاك} يا أكمل الخلق {حديث ضيف} عبر عنهم بلفظ الواحد إشارة إلى اتحاد كلمتهم {إبراهيم *} وهو خليلنا، ودل على أنه لم يعرف شيئاً مما أتوا به دالاً على أنهم جمع {المكرمين *} أي الذين هم أهل الكرامة، وأكرمهم إبراهيم عليه السلام بقوله وفعله، ففي حديثه ذلك آية بينة على ما بين في هذه السورة من قدرة الله تعالى وصدق وعده ووعيده، مع ما فيه من التسلية لك ولمن تبعك، والبشارة بإكرام المصدق وإهانة المكذب، قال القشيري: وقيل: كان عددهم اثني عشر ملكاً، وقيل: جبريل عليه السلام، وكان معه تسعة، وقيل: كانوا ثلاثة: {إذ} أي حديثهم حين {دخلوا عليه} أي دخول استعلاء مخالف لدخول بقية الضيوف {فقالوا سلاماً} أي نحدث، ثم استأنف الأخبار عن جوابه بقوله: {قال} أي بلسانه: {سلام} أي ثابت دائم، فهو أحسن من تحيتهم.

ولما كان ما ذكر من دخولهم وسلامهم غير مستغرب عند المخاطبين بهذا، وكانت القصة قد ابتدئت بما دل على غرابة ما يقص منها، تشوف السامع إلى ما كان بعد هذا فأجيب بقوله: {قوم} أي ذوو قوة على ما يحاولونه ويقومون فيه {منكرون *} أي حالهم لإلباسه أهل لأن ينكره المنكر، وقدم هذا على موضعه الذي كان أليق به فيما يظهر بادي الرأي، وإيضاحاً لأن السياق لخفاء الأسباب على الآدمي وبعدها وإن كانت في غاية الظهور

والقرب ولو أنه غاية العلو فإن إنكاره لهم كان متأخراً عن إحضـــار الأكل لكونهم لم يأكلوا، وهذا القول كان في نفسه ولم يواجههم به.

▲ تفسير الآيات رقم [26- 37]

{فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26)
فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27)
فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28)
فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29)
قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30)
قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31)
قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32)
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33)
مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34)
فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35)
فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36)
وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37)}

ولما أشار إلى أنه حين إنكاره لهم لم يعرف من أي نوع هم ولا خصوص ما هم فيه، رتب على رده لسـلامهم أنه أسـرع غاية الإسـراع في إحضـار ما ينبغي للضيف على ظن أنهم آدميون فقال: {فراغ} أي ذهب في خفية وخفة ومواضع سترة عن أعينهم كما هو من آداب الضيافة خوفاً من أن يمنعوه أو

يكدر عليهم الانتظار: {إلى أهله} أي الذين عندهم بقرة {فجاء بعجل} أي فتى من أولاد البقر {سمين *} قد شواه وأنضجه {فقربه إليهم} ولما أخبر بما ينبغي الإخبار به من أمر الضـيافة إلا الأكل، كان من المعلوم أن التقدير: فكان كأنه قيل: فماذا قال لهم حين لم يأكلوا؟ قيل: {قال} أي متأدباً غاية التأدب ملوحاً بالإنكار: {ألا تأكلون *} أي منه.

ولما كان كأنه قيل: فلم يأكلوا، سبب عنه قوله: {فأوجس} أي أضمر إضمار الحال في جميع سـره {منهم خيفة} لأجل إنكاره عدم أكلهم فإنه لما رأى إعراضـهم عن الطعام ذهب وهمه في سـبب إتيانهم إليه كل مذهب {قالوا} مؤنسـين له: {لا تخف} وأعلموه بأنهم رسـل الله {وبشـروه بغلام} على شـيخوخته ويأس امرأته بالطعن في السـن بعد عقمها، وهو إسـحاق عليه السلام. ولما كان السياق لخفاء الأسباب كان في الذروة وصفه بقوله: {عليم *} أي مجبول جبلة مهيأة للعلم ولا يموت حتى يظهر علمه بالفعل في أوانه.

ولما كانا بعيدين عن قبول الولد، تسـبب عن ذلك قوله، دالاً على أن الولد إسـحاق مع الدلالة على أن خفاء الأسـباب لا يؤثر في وجود المسـببات: {فأقبلت} أي من سـماع هذا الكلام {امرأته} ولما كانت قد امتلأت عجباً، عبر بالظرف فقال: {في صرة} أي صيحة وكرب من الصرير قد أحاط بها، فذهب وهمها في ذلك كل مذهب {فصـكت} أي ضـربت بسـبب تعجبها بأطراف أناملها فعل المتعجب {وجهها} لتلاشـي أسـباب الولد في علمها بسبب العادة مع معرفتها بأن العبرة في الأسباب وإن كانت سليمة بالمسبب

لا بها، قال البغوي: وأصل الصك ضرب الشيء بالشيء العريض {وقالت} تريد أن تستبين الأمر هل الولد منها أم من غيرها : {عجوز} ومع العجز {عقيم *} فهي في حال شبابها لم تكن تقبل الحبل، قال القشيري رحمه الله تعالى: قيل: إنها كانت يومئذ ابنة ثمان وتسعين سنة.

ولما كان في هذا أشد تشوف إلى الجواب، استأنف تعالى الجواب بقوله: {قالوا كذلك} أي مثل ما قلناه من هذه البشرى العظيمة {قال ربك} أي المحسن إليك بتأهيلك لذلك على ما ذكرت من حالك وبتأهيلك من قبل الاتصال بخليله صلى الله عليه وسلم. ولما كان محط تعجبها أن ذلك كان بأيام شبابها أولى، عللوا إخبارهم تأكيداً له مؤكدين لأن قولها وفعلها فعل المنكر وإن كانت ما أرادت به إلا الاستثبات: {إنه هو} أي وحده {العليم} الذي يضع الأشياء في أحق مواضعها فرتب عظمة هذا المولود على كل من عقمك وعجزك؛ ثم عللوا ذلك بقولهم: {الحكيم *} أي المحيط العلم فهو كذلك لا يعجزه شيء لما تقدم من البرهان في سورة طه أن إحاطة العلم مستلزم شمول القدرة.

ولما كان الخليل عليه السلام أعلم أهل زمانه بالأمور الإلهية، علم أن اجتماع الملائكة على تلك الهيئة التي يراهم فيها ليس لهذه البشارة فقط، فلذلك استأنف تعالى الجواب لمن كان كأنه قال: ما كان من حاله وحالهم بعد هذا؟ بقوله: {قال} أي قال مسبباً عما رأى من حالهم: {فما خطبكم} أي خبركم العظيم {أيها المرسلون *} أي لأمر عظيم {قالوا} قاطعين بالتأكيد بأن مضمون خبرهم حتم لا بد منه، ولا مدخل للشفاعة فيه: {إنا أرسلنا} أي

بإرســـــال من تعلم {إلى قوم مجرمين *} أي هم في غاية القوة على ما يحاولونه وقد صرفوا ما أنعم الله به عليهم من القوة في قطع ما يحق وصله ووصــل ما يحق قطعه {لنرســل عليهم} أي من الســماء التي فيها ما وعد العباد به وتوعدوا {حجارة من طين *} أي مهيأ للاحتراق والإحراق {مسومة} أي معلمة بعلامة العذاب المخصــــوص. ولما كان قد رأوا اهتمامه بالعلم بخبرهم خشـية من أن يكونوا أرسـلوا لعذاب أحد يعز عليه أمره، أمنوا خوفه بوصف الإحسان فقالوا: {عند ربك} أي المحسن إليك بهذه البشارة وغيرها {للمسرفين *} أي المتجاوزين للحدود غير قانعين بما أبيح لهم.

ولما كان من المعلوم أن القوم يكونون تارة في مدر وتارة في شـــعر، وعلم من الآيات الســـالفة أن العذاب مختص بذوي الإســـراف، ســـبب عن ذلك مفصـــــلاً لخبرهم قوله تعالى معلماً أنهم في مدر: {فأخرجنا} بما لنا من العظمة بعد أن ذهبت رســـلنا إليهم ووقعت بينهم وبين لوط عليهم الســـلام محاولات معروفة لم تدع الحال هنا إلى ذكرها، والملائكة ســـبب عذابهم، وأهل القرية المحاولون في أمرهم لا يعرفون ذلك، وهذه العبارة إن كانت إخباراً لنا كانت خبراً عما وقع لنعتبر به، وإن كانت لإبراهيم عليه الســـلام كان معناها أن الحكم الأعظم وقع بإخراجهم بشـــارة له بنجاتهم {من كان فيها} أي قراها. ولما كان القلب عماد البدن الذي به صـــلاحه أو فســـاده، فكان عمله أفضل الأعمال أنه به يكون استسلام الأعضاء أو جماحها، بدأ به فقال: {من المؤمنين *} أي المصدقين بقلوبهم لأنا لا نسويهم بالمجرمين فخلصناهم من العذاب على قلتهم وضعفهم وقوة المخالفين وكثرتهم، وسبب

عن التعبس والستر والتعرض للظواهر والبواطن قوله: {فما وجدنا} أسند الأمر إليه تشريفاً لرسله إعلاماً بأن فعلهم فعله {فيها غير بيت} واحد وهو بيت لوط ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وقيل: كان عدة الناجين منهم ثلاثة عشر، ولما كان الإسلام قد تطلق على الظاهر فقط وإن كان المراد هنا الأخص أخره فقال: {من المسلمين *} أي العريقين في الإسلام الظاهر والباطن لله من غير اعتراض أصلاً وهم إبراهيم وآله عليهم السلام فإنهم أول من وجد منه الإسلام الأتم، وتسموا به كما مضى في البقرة وسموا به أتباعهم، فكان هذا البيت الواحد صادقاً عليه الإيمان الذي هو التصديق والإسلام الذي هو الانقياد، قال البغوي: وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً لأنه ما آمن مؤمن إلا وهو مسلم.

يعني لما بينها من التلازم وإن اختلف المفهومان، وقال الأصبهاني: وقيل: كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر.

ولما وكان إبقاء آثار المهلكين أدل على قدرة من أهلكهم قال: {وتركنا} أي بما لنا من العظمة {فيها} أي تلك القرى بما أوقعنا بها من العذاب الذي كان مبدؤه أنسب شيء بفعل الذاريات من السحاب فإنا قلعنا قراهم كلها وصعدت في الجو كالغمام إلى عنان السماء ولم يشعر أحد من أهلها بشيء من ذلك ثم قلبت وأتبعت الحجارة ثم خسف بها وغمرت بالماء الذي لا يشبه شيئاً من مياه الأرض كما أن خباثتهم لم تشبه خباثة أحد ممن تقدمهم من أهل الأرض {آية} أي علامة عظيمة على قدرتنا على ما نريد {للذين يخافون} كما تقدم آخر ق أنهم المقصودون في الحقيقة بالإنذار لأنهم المنتفعون به

دون من قســـا قلبه ولم يعتبر {العذاب الأليم *} أي أن يحل بهم كما حل بهذه القرى في الدنيا من رفع الملائكة لهم في الهواء الذاري إلى عنان الســماء وقلبهم وإتباعهم الحجارة المحرقة، وغمرهم بالماء المناســب لفعلهم بنتنه وعدم نفعه، وما ادخر لهم في الآخرة أعظم.

▲ تفسير الآيات رقم [38- 46]

{وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38)

فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39)

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40)

وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41)

مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42)

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43)

فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44)

فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45)

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (46)}

ولما قدم سبحانه أحق القصص الدالة على قسمه وما أقسم عليه بما فيها من خفاء الأسباب مع وجودها، ثم ما فيها من إنزال ما به الوعيد من السماء بالنار والماء الذي أشير إليه بالمقسمات، مع الفرقة بين المسلم والمجرم، أتبعها قصة من أيده بحاملات فيها مطر وبرد ونار مضطرمة، كما مضى بيانه في الأعراف، ثم بعد ذلك بريح فرقت البحر ونشــفت أرضــه ودخله فرعون والقبط، وهو واضح الأمر في أنه سبب لهلاكهم وهم لا يشعرون به،

فقال عاطفاً على المقدر في قصة إبراهيم عليه السلام أو الظاهر في {وفي الأرض} أو على «في» التي في قوله {وتركنا فيها آية للذين يخافون} وهذا أقرب من غيره وأولى: {وفي موسى} أي في قصته وأمره آية على ذلك عظيمة {إذ أرسلناه} بعظمتنا {إلى فرعون} الذي كان قد أساء إلى إبراهيم عليه السلام بعد عظيم إحسانهم إله وإلى جميع قومه بما أحس إليهم يوسف عليه السلام {بسلطان مبين *} أي معجزات ظاهرة في نفسه منادية من شدة ظهورها بأنها معجزة، فكان فيها دلالة واضحة على صدق وعيده ومع ذلك فلم ينفعهم علمها ولذلك سبب عنه وعقب به قوله: {فتولى} أي كلف نفسه الإعراض بعد ما دعاه علمها إلى الإقبال إليها، وأشار إلى توليه بقوله: {بركنه} أي بسب ما يركن إليه من القوة في نفسه وبأعوانه وجنوده أو بجميع جنوده- كناية عن المبالغة في الإعراض، {وقال} معلماً بعجزه عما أتاه به وهو لا يشعر: {ساحر} ثم ناقض كمناقضتكم فقال بجهله عما يلزم على قوله: {أو مجنون *} أي لاجترائه عليّ مع ما لي من عظيم الملك بمثل هذا الذي يدعو إليه ويتهدد عليه.

ولما وقعت التسلية بهذا للأولياء، قال تعالى محذراً للأعداء: {فأخذناه} أي أخذ غضب وقهر بعظمتنا بما استدرجناه به وأوهناه به من العذاب الذي منه سحاب حامل ماء وبرداً وناراً وصواعق {وجنوده} أي كلهم {فنبذناهم} أي طرحناهم طرح مستهين بهم مستخف لهم كما تطرح الحصيات {في اليم} أي البحر الذي هو أهل لأن يقصد بعد أن سلطنا الريح فغرقته لما ضربه موسى عليه السلام بعصاه ونشفت أرضه، فأيبست ما أبرزت فيه من الطرق

لنجاة أوليائنا وهلاك أعدائنا {وهو} أي والحال أن فرعون {مليم *} أي آتٍ بما هو بالغ في استحقاقه الملامة، ويجوز أن يكون حالاً من {أليم} بمعنى أنه فعل بهم فعل اللائم من ألامه- إذا بالغ في عذله، وصار ذا لائمة أي لهم، من ألام- لازماً، وأن يكون مخففاً من لأم المهموز فيكون المعنى: فهو مصلح أي فاعل فعل المصلحين في إنجاء الأولياء وإغراق الأعداء بالالتئام والانطباق عليهم، قال في القاموس: اللوم العدل، لام لوماً وألامه ولومه للمبالغة، وألام: أتى ما يلام عليه أو صار ذا لائمة، ولأمه بالهمز كمنعه، نسبه إلى اللوم، والسهم: أصلحه كألامه ولأمه فالتأم، ولا يضر يونس عليه السلام أن يعبر في حقه بنحو هذه العبارة، فإن أسباب اللوم تختلف كما أن أسباب المعاصي تختلف في قوله {وعصوا رسله} [هود: 59]

{وعصى آدم ربه} [طه: 121]

وبحسب ذلك يكون اختلاف نفس اللوام ونفس المعاصي.

ولما أتم قصة من جمع له السحاب والماء والنار والريح، أتبعها قصة من أتاهم بريح ذارية لم يوجد قط مثلها، وكان أصلها موجوداً بين ظهرانيهم وهم لا يشعرون، بل قاربت الوصول إليهم وهم يظنونها مما ينفعهم:

{وفي عاد} أي آية عظيمة {إذ} أي حين

{أرسلنا} بعظمتنا {عليهم} إرسال علو وأخذ {الريح} فأتتهم تحمل سحابة سوداء وهي تذرو الرمل وترمي بالحجارة على كيفية لا تطاق {العقيم *} أي التي لا ثمرة لها فلا تلقح شجراً ولا تنشئ سحاباً ولا تحمل مطراً ولا رحمة فيها ولا بركة فلذلك أهلكهم هلاك الاستئصال، ثم بين عقمها وإعقامها

بقوله: {ما تذر} أي تترك على حال ردية، وأعرق في النفي فقال: {من شـــــيء} ولما كان إهلاكها إنما هو بالفاعل المختار، نبه على ذلك بأداة الاستعلاء فقال: {أتت عليه} أي إتيان إرادة مرسلها، استعلاها على ظاهره وباطنه، وأما من أريدت رحمته كهود عليه السلام ومن معه رضي الله عنهم فكان لهم روحاً وراحة لا عليهم {إلا جعلته كالرميم *} أي الشـــيء البالي الذي ذهلته الأيام والليالي، فصـــيره البلى إلى حالة الرماد، وهو في كلامهم ما يبس من نبات الأرض ودثر- قاله ابن جريج، وخرج بالتعبير ب «تذر» هود عليه الســلام ومن معه من المؤمنين رضـــي الله عنهم أجمعين، فإنهم تركتهم على حالة حسنة لم يمسهم منها سوء كما أشير إلى مثل ذلك بأداة الاستعلاء.

ولما تم ما اقتضـاه سياق السورة من قصـة أهل الريح الذارية، أتبعها قصـة من أهلكوا بما يحمله الســحاب من الريح وما تحمله الريح من صـــوت الصيحة الراجفة الماحقة فقال: {وفي ثمود} أي قوم صـالح عليه السلام آية عظيمة كذلك {إذ} أي حين {قيل لهم} ممن لا يخلف المعياد: {تمتعوا} أي بلبن الناقة وغيره مما مكناكم فين من الزرع والنخيل والأبنية في الجبال والســهول وغير ذلك من جلائل الأمور الذي أمرناكم به ولا تطغوا {حتى حين *} أي وقت ضـربناه لآجالكم {فعتوا} أي أوقعوا بسـبب إحسـاننا إليهم العتو، وهو التكبر والإباء {عن أمر ربهم} أي مولاهم الذي أعظم إحســانه إليهم فعقروا الناقة وأرادوا قتل نبيه عليه السلام {فأخذتهم} بسبب عتوهم أخذ قهر وعذاب {الصاعقة} أي الصيحة العظيمة التي حملتها الريح، فأوصلتها

إلى مسـامعهم بغاية العظمة، ورجت ديارهم رجة أزالت أرواحهم بالصـعق، وقوله: {وهم ينظرون *} دال على أنها كانت في غمام، وكان فيها نار، ويجوز- مع كونه من النظر- أن يكون أيضـاً من الانتظار، فإنهم وعدوا نزول العذاب بعد ثلاثة أيام، وجعل لهم في كل يوم علامة وقعت بهم فتحققوا وقوعه اليوم الرابع {فما} أي فتسبب عن ذلك أنه ما {استطاعوا} أي تمكنوا، وأكد النفي فقال: {من قيام} أي بعد مجيئها بأن عاجلتهم بإهلاكها عن القيام.

ولما كان الإنسـان قد لا يتمكن من القيام لعارض في رجليه وينتصـف من عدوه بما يرتبه من عقله ويدبره برأيه قال: {وما كانوا} أي كوناً ما {منتصرين} أي لم يكن فيهم أهلية للانتصار بوجه، لا بأنفسهم ولا بناصر ينصرهم فيطاوعونه في النصرة لأن تهيؤهم لذل سقط بكل اعتبار.

ولما أتم قصة من أهلكوا بما من شأنه الإهلاك وهو الصاعقة، أتبعهم قصة من أهلكوا بما من شـأنه الإحياء، وهو الماء الذي جل ما يشـتمل عليه الحلامات التي أثارتها الذاريات، وقد كانوا موجودين في الأرض والسـماء- وأسبابه مهيأة- وهم لا يحسون بشيء من ذلك، وأما عبادنا المؤمنون فهيأنا لهم أسـباب النجاة من السـفينة وغيرها، وأعلمناهم بها، فكان كل ما أردنا وقاله عنا أولياؤنا فقال مغيراً للأسـلوب تنبياً على العظمة بنفسـه الإهلاك لكونه بما من شـأن الإحياء والإبقاء والتصـرف في الأسـباب: {وقوم} أي وأهلكنا قوم {نوح} على ما كان فيهم من الكثرة وقوة المحاولة والقيام بما يريدونه، ويجوز أن يكون معطوفاً على «فيها» أي وتركناهم آية، ويحسـن

هذا الإعراب أنهم هلكوا جميعاً وكانوا جميع أهل الأرض، وعم عذابهم جميع الأرض، كانوا لهم الآية، ويؤيد هذا الإعراب قراءة أي عمرو وحمزة والكسائي بالجر عطفاً على ضمير «فيها».

ولما كان إهلاكهم على عظمه وانتشاره في بعض الزمان، أدخل الجارّ فقال: {من قبل} أي قبل هذه الأمم كلها، ثم علل إهلاكهم بقوله: {إنهم كانوا} خلقاً وطبعاً، لا حيلة لغيرنا من أهل الأسباب في صلاحهم {قوماً} أي أقوياء {فاسقين *} أي عريقين في الخروج عن حظيرة الدين.

▲ تفسير الآيات رقم [47- 51]

{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47)
وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48)
وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49)
فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50)
وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51)}

ولما كان إهلاكهم بالماء الذي نزل من السماء، وطلع من الأرض بغير حساب، كان ربما ظن ظان أن كان الخلل كان فيهما، ثم أصلح بعد ذلك كما يقع لبعض من يصنع من الملوك صنعاً يبالغ في إتقانه فيختل، قال عاطفاً على ما نصب «يوم» مبيناً أن فعل ذلك ما كان بالاختيار، دالاً على وحدانيته لتمام القدرة الدالة على ما تقدم من أمر البعث: {والسماء بنيناها} بما لنا من العظمة {بأيد} أي بقوة وشدة عظيمة لا يقدر قدرها. ولما كانت

السماء أليق لعظمتها وطهارتها بصفات الإلهية، قال، وأكد لما يلزم إنكارهم البعث من الطعن في القدرة: {وإنا} على عظمتنا مع ذلك {لموسعون *} أي أغنياء وقادرون ذوو سعة لا تتناهى، أي قدرة، من الوسع وهو اللطافة، وكذلك أوسعنا مقدار جرمها وما فيها من الرزق عن أهلها فالأرض كلها على اتساعها كالنقطة في وسط دائرة السماء بما اقتضته صفة الإلهية التي لا يصح فيها الشركة أصلاً، ومطيقون لما لا يحصى من أمثال لك، ومما هو أعظم منه مما لا يتناهى، ومحيطون بكل شيء قدرة وعلماً، وجديرون وحقيقون بأن يكون ذكل من أوصافنا فنوصف به لما يشاهد لنا من القوة على كل ما نريد، فلسنا كمن يعرفون من الملوك لأنهم إذا فعلوا لا يقدرون على أعظم منه وإن قدروا كان ذلك منهم بكلفة ومشقة، وسترون في اليوم الآخر ما يتلاشى وما تريدون في جنبه، ومن اتساعنا جعلها بلا عمد مع ما هي عليه من العظمة إلى غير ذلك من الأمور الخارقة للعوائد : {والأرض فرشناها} كذلك بما لنا من العظمة، فصارت ممهدة جديرة بأن يستقر عليها الأشياء وهي آية على تمهيدنا لأرض الجنة وشقنا لأنهارها وغرسنا لأشجارها {فنعم} أي فتسبب عن ذلك أن يقال في وصفنا: نعم {الماهدون *} أي نحن لكمال قدرتنا، فما نزل من السماء شيء ولا نبع من الأرض شيء إلا بإرادتنا وتقديرنا واختيارنا من الأزل لأنا إذا صنعنا شيئاً علمنا ما يكون منه من حين إنشائه إلى حين إنباته، ولا يكون شيء منه إلا بتقديرنا، وذلك تذكير بالجنة والنار، فما فوقها من خير فهو آية على الجنة، وما فيها من جبال ووهاد وعر وخروبة فهو آية على النار.

ولما كان الأشـــياء المتضـــادة من الشـــيء الواحد أدل على القدرة من هذا الوجه، قال: {ومن كل شـيء} أي من الحيوان وغيره {خلقنا} بعظمتنا. ولما كان الفلاسفة يقولون: لا ينشأ عن الواحد إلا واحد، قال رداً عليهم: {زوجين} أي مثله شـيئين كل منهما يراوح الآخر من وجه وإن خالفه من آخر، ولا يتم نفع أحدهما إلا بآخر من الحيوان والنبات وغيرها ويدخل فيه الأضـــداد من الغنى والفقر، والحســـن والقبح، والحياة والموت، والضـــياء والظلام، والليل والنهار، والصـحة والسـقم، والبر والبحر، والسـهل والجبل، والشـمس والقمر، والحر والبرد، والســماوات والأرض، وأن الحر والبرد من نفس جهنم آية بينة عليها، وبناءهما على الاعتدال في بعض الأحوال آية على الجنة مذكرة بها مشوقة إليها.

ولما كان ذلك في غاية الدلالة على أن كلاًّ من الزوجين يحتاج إلى الآخر وأنه لا بد أن ينتهي الأمر إلى واحد لا مثل له وأنه لا يحتاج بعد ذلك التنبيه إلى تأمل كبير قال: {لعلكم تذكرون *} فأدغم تاء التفعل الدالة على العلاج والاجتهاد والعمل فصار: فتكونوا عند من ينظر ذلك حق النظر على الرجاء من أن يتذكروا قليلاً من التذكر فيهديكم إلى سواء السبيل.

ولما كان كل شـيء مما سواه لا بد له من ضد يضـاده أو قرين يسد مسده، وأما ســبحانه فلا مثل له لأنه لو كان له مثل لنازعه، فلم يقدر على كل ما يريد {لو كان فيهما آلهة إلا الله لفســدتا} [الأنبياء: 22] وثبت أنه أهلك القرون الأولى بمخالفة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فثبت أن وراء المكلفين عذاباً يحق لهم الفرار منه، وثبت أن كل شـيء غيره محتاج إلى زوجه يثبت

حاجة الكل إليه، وأنه لا كفاية عند شـــيء في كل ما يرام منه، وجب أن لا يفزع إلا إلى الواحد الغني فسـبب عن ذلك قوله: {ففروا} أي أقبلوا وألجؤوا. ولما درب عباده في هذه السـورة بصـفة الربوبية كثيراً، فتأهلوا إلى النفوذ في الغيب، وكانت العبادة لا تكون خالصـة إلا إن علقت بالذات لا لشـيء آخر، ذكر اسم الذات فقال: {إلى الله} أي إلى الذي لا مسمى له من مكافئ، وله الكمال كله، فهو في غاية العلو، فلا يقر ويســكن أحد إلى محتاج مثله فإن المحتاج لا غنى عنده، ولا يقر سبحانه.

إلا من تجرد عن حضيض عوائقه الجسمية إلى أوج صفاته الروحانية، وذلك من وعيده إلى وعده اللذين دل عليهما بالزوجين، فتنقل الســـياق بالتحذير والاســتعطاف والاســتدعاء، فهو من باب «لا ملجأ منك إلا إليك أعوذ بك منك» واستمر إلى آخر السورة في ذكره إشـارة إلى علي أمره، ثم علل بقوله مؤكداً لما لهم من الإنكار: {إني لكم منه} أي لا من غيره {نذير} أي من أن يفر أحد إلى غيره فإنه لا يحصل له قصده.

لما أقام الدليل العقلي الظاهر جداً بما يعلمه أحد في نفســه على ما قاله في هذا الكلام الوحيد قال: {مبين *} ففرار العامة من الجهل إلى العلم عقداً وسـعياً، ومن الكسـل إلى التشـمير حذراً وحزماً، ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاء، وفرار الخاصـة من الخير إلى الشـهود، ومن الرسـوم إلى الأصـول، ومن الحظوظ إلى التجريد، وفرار خاصـة الخاصـة مما دون الحق إلى الحق إشـهاداً في شـهود جلاله واسـتغراقاً في وحدانيته، قال القشـيري: ومن صـح

فراره إلى الله صـــــح فراره مع الله– انتهى . وهو بكمال المتابعة ليس غيره، ومن فهم منه اتحاداً بصفة أو ذات فقد ما حد طريق القوم فعليه لعنه الله.

▲ تفسير الآيات رقم [52– 55]

{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52)

أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (53)

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (54)

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)}

ولما ثبت أنه لا ملجأ إلا إلى الله الواحد المنزه عن الزوج، وذلك هو الله الذي له الكمال كله، وكان ربما وقع في وهم أن في الوجود من غير الزوجين المعروفين من نفزع إليه كما نفزع إلى وزير الملك وبوابه ونحو ذلك مما يوصل إليه، قال محذراً من سطواته: {ولا تجعلوا} أي بأهوائكم {مع الله} وكرر الاسم الأعظم ولم يضمر تعييناً للمراد لأنه لم يشاركه في التسمية به أحد وتنبيهاً على ما له من صـــفات الكمال وتعميماً لوجوه المقاصـــد لئلا يظن، وقيل «معه» إن المراد النهي عن الجعل من جهة الفرار لا من جهة غيرها {إلهاً}.

ولما كان المراد كمال البيان، منع مجاز التجريد منع تعنت من يطعن بتكثير الأسماء كما أشار إليه بقوله {قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن} الآية بقوله: {آخر} ثم علل النهي مع التأكيد لطعنهم في نذارته فقال: {إني لكم منه} أي لا من غيره فإن غيره لا يقدر على شـــيء {نذير} أي محذر من الهلاك

الأبدي بالعقوبة التي لا خلاص منها إن فعلتم ذلك {مبين *} أي لا أقول شيئاً من واضح النقل إلا ودليله ظاهر من صريح العقل. ولما ذكر قولهم المختلف الذي منه تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ونسبته إلى السحر والجنون وغير ذلك من الفنون، ومنه الإشراك مع اعترافهم بأنه لا خالق إلا الله ولا كاشف ضر غيره إلى غير ذلك من أنواع الاضطراب، وأخبر بهلاكتهم على ذلك وحذرهم منه ودل عليه إلى أن ختم بإنذار من اتخذ إلهاً غيره قال مسلياً: {كذلك} أي مثل قول قومك المختلف العظيم الشناعة، البعيد من الصواب، بما له من الاضطراب، وقع لمن قبلهم، ودل على هذا المقدر بقوله مستأنفاً: {ما أتى الذين} ولما كان الرسل إنما كان إرسالهم في بعض الأزمان الماضية ولم يستغرقوا جميعها بالفعل، أثبت الجارّ في قوله: {من قبلهم} وعمم النفي بقوله: {من رسول} أي من عند الله {إلا قالوا} ولو بعضهم برضا الباقين: {ساحر أو مجنون *} لأن الرسول يأتيهم بمخالفة مألوفاتهم التي قادتهم إليها أهواؤهم، والهوى هو الذي أوجب لهم هذا التناقض الظاهر سواء كانت «أو» للتفصيل بأن بعضهم قال واحداً وبعضهم قال آخر، أو كانت للشك لأن الساحر يكون لبيباً فطناً آتياً بما يعجز عنه كثير من الناس، والمجنون بالضد من ذلك، ثم عجب منهم بقوله: {أتواصوا به} أي أوصى بهذا بعض الأولين والآخرين بعضاً.

ولما ساق هذا في أسلوب الاستفهام إشارة إلى قول ينبغي السؤال عن سببه لما له من الخفاء، أجاب عنه بأنهم لم يتواصوا به لأن الأولين ما اجتمعوا مع الآخرين: {بل هم} اجتمعوا في وصف أداهم إلى ذلك.

وهو أنهم {قوم} أي ذوو شـــماخة وكبر {طاغون *} أي عالون في الكفر مسـرفون في الظلم والمعاصـي مجاوزون للمقدار، وأشـار بالضـمير إلى أن الطغيان أمر ذاتي لهم، فهو يمدح منه سبحانه بأنه هو الذي قهرهم بسوقهم إلى هلاكهم بقدرته التامة وعلمه الشامل.

ولما كان صلى الله عليه وسلم، يكاد يتلف نفسه الشريفة- بأبي هو وأمي- غماً عليهم وأسـفاً لتخلصـهم عن الإسـلام وخوفاً أن لا يكون وفى بما عليه من التنبيه والإعلام، سـبب تعالى عن حالهم قوله: {فتولَّ عنهم} أي كلف نفسك الإعراض عن الإبلاغ في إبلاغهم بالمجادلة والصدع بالتغليظ بعد ما تقدم منك من الإبلاغ {فما أنت} بسبب الإعراض بعد الإنذار {بملوم *} أي بمسـتحق الملامة بسـبب إعراض من أعرض منهم عنك، فإني إنما حكمت بذلك لأني إنما قسـمت الناس إلى مؤمن تنفعه الذكرى، وطاغ لا ينفعه شـيء، ولذلك قال: {وذكر} أي بالرفق واللين، ولما أصـروا على التكذيب والإعراض حتى أيس منهم، أكد ما سـببه عن التذكير بقوله: {فإن الذكرى} أي التذكر بالنذارة البليغة {تنفع المؤمنين *} أي الذين قدر الله أن يكونوا عريقين في وصـف الإيمان ولا بد من إكثار التذكير ليغلب ما عندهم من نوازع الحظوظ وصوارف الشهوات، مع ما هم مجبولون عليه من النسيان.

▲ تفسير الآيات رقم [56- 60]

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)

مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57)

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (59)
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60)}

ولما كان هذا ربما أوهم أن سـواهم غير مقدور عليهم، قال مؤكداً بالحصـر دالاً على أنه هو الذي قسـم الناس إلى طاغين ومؤمنين بالعطف على ما تقديره: فما حكم عليهم بذلك الضـلال والهدى غيري، وما أرسـلت الرسـل وأنزلت الكتب إلا لاستخلاص المؤمنين وإقامة الحجة على الضـالين: {وما خلقت الجن والإنس} الذين أكثرهم كافرون {إلا ليعبدون *} أي لينجروا تحت أقضيتي على وجه ينفعون به أنفسهم أو يضرونها لا لشيء يلحقني أنا منه شـيء من نفع أو ضـرر، فإني بنيتهم على العجز وأودعتهم نوازع الهوى، وركبت فيهم غرائز فهيأتهم لاتباع الهدى، فمن أطاع عقله كان عابداً لي فارّاً إليّ مع جريه تحت الإرادة، عبادة شرعية أمرية يستفيد بها الثواب، ومن أطاع الهوى كان عابداً لي مع مخالفته أمري عبادة إرادية قسرية يستحق بها العقاب، وكل تابع لهواه إذا حقق النظر علم أن الخير في غير ما هو مرتكبه، فما ألزمه ما هو فيه مع علمه بأن غيره خير منه إلا قهر إرادتي، فهذه عبادة لغوية، وذاك عبادة شـرعية، وقد مر في آخر هود ما ينفع هنا، وهذا كله معنى قول ابن عباس: إلا ليقروا لي بالعبادة طوعاً وكرهاً.

ولما حصـر سبحانه خلقهم في إرادة العبادة، صـرح بهذا المفهوم بقوله: {ما أريد منهم} أي في وقت من الأوقات، وعم في النفي بقوله: {من رزق} أي شـيء من الأشياء على وجه ينفعني من جلب أو دفع، لأني منزه عن لحاق نفع أو ضـر، كما يفعل غيري من الموالي بعبيدهم من الاسـتكثار بغلاتهم

والاســتعانة بقواتهم لأني الغني المطلق وكل شـــيء مفتقر إليّ {وما أريد} أصـــلاً {أن يطعمون *} أي أن يرزقوني رزقاً خاصـــاً هو الإطعام، وفيه تعريض بأصنامهم فإنهم كانوا يعملون معها ما ينفعها ويحضرون لها الأكل، فربما أكلتها الكلاب ثم بالت على الأصنام. ثم لا يصدهم ذلك، وهذه الآية دليل على أن الرزق أعم من الأكل، والتعبير بالإرادة دالّ على ما قلت إنه مقصـــود بالعبادة. وهو الجري تحت الإرادة، تارة بموافقة الشـــرع وتارة بمخالفته.

ولما كان الاهتمام بأمر الرزق- وقد ضمنه سبحانه- شاغلاً عن كثير من العبادة، وكان الإنسـان يظن أن الذي حصـل له ما حواه من الرزق سـعيه، قال حاصراً ذلك مؤكداً إزالة لتلك الظنون معللاً لافتاً الكلام إلى سياق الاسم الأعظم الذي لم يتسم به غيره، نصاً على المراد وبالغاً من الإرشاد أقصى المراد: {إن الله} أي المحيط بجميع صفات الكمال المنزه عن شوائب النقص {هو} أي لا غيره {الرزاق} أي على سبيل التكرار لكل حي وفي كل وقت. ثم وصـــفه بما يبين هوان ذلك فقال: {ذو القوة} أي التي لا تزول بوجه {المتين *} أي الشديد الدائم الشدة.

ولما أقسـم سـبحانه على الصـدق في وعيدهم، ودل على ذلك حتى بجميع قصد أحوالهم على إرادته. وختم بقوته التي لا حد لها، سبب عن ذلك إيقاعه بالمتوعدين، فقال مؤكداً لأجل إنكارهم: {فإن للذين ظلموا} أي الذين أوقعوا الأشـــياء في غير مواقعها. ولما كان القســـم على ما يوعدون بما يحمل المطر، عبر عن نصيبهم الذي قدره عليهم من ذلك بقوله: {ذنوباً} أي خطاً

من العذاب طويل الشـــر، كأنه من طوله صـــاحب ذنب وهو على ذنوبهم {مثل ذنوب أصــــحابهم} أي الذين تقدم ظلمهم بتكذيب الرســـل وهو في مشابهته له كالدلو الذي يساجل به دلو آخر، وذلك دليل واضح على أن ما يوعدون صـادق، وأن الدين واقع {فلا يستعجلون *} أي يطلبوا أن آتيهم به قبل أوانه اللاحق به، فإن ذلك لا يفعله إلا ناقص، وأنا متعال عن ذلك لا أخاف الفوت ولا يلحقني عجز ولا أوصــــف به، ولا بد أن أوقعه بهم في الوقت الذي قضيت به في الأزل، لأنه أحق الأوقات بعقابهم لتكامل ذنوبهم، وحينئذ تكون فيا له من تهديد ما أفظعه، ووعيد ما أعظمه وأوجعه، أمراً لا يدفعه دافع، ولا يمنع من وقوعه مانع، ولذلك ســبب عنه قوله: {فويل} أي شر حال وعذاب يوجب الندب والتفجع {للذين كفروا} أي ستروا ما ظهر من هذه الأدلة التي لا يسع عاقلاً إنكارها {من يومهم} إضافة إليهم لأنه خاص بهم دون المؤمنين {الذي يوعدون *} في الدنيا والآخرة، وقد انطبق آخرها على أولها بصدق الوعيد، وثبت بالدليل القطعي لك القسم الأكيد- والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

▲ سورة الطور

52 مكية

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي

▲ تفسير الآيات رقم [1– 10]

{وَالطُّورِ (1)
وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2)
فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3)
وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4)
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5)
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6)
إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7)
مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8)
يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (9)
وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (10)}

لما ختمت الذاريات بتحقيق الوعيد، افتتحت هذه بإثبات العذاب الذي هو روح الوعيد، فقال تعالى: {والطور *} وذلك أنهم لما كانوا يقولون عما أتاهم به الرسول صلى الله عليه وسلم: إنه سحر خيال لا حقيقة له، أقسم بالجبل–

الذي هو عندهم وعند غيرهم من ذوي العقول- أثبت الأرض وأشـــدها وأصـــلبها، وعبر عنه بالطور الذي هو مشـــترك بين مطلق الجبل وبين المضـاف إلى سينا الذي كان فيه نبوة موسـى عليه السـلام وإنزال كثير من كتابه وغير ذلك- آيات تعلمها بنو إسرائيل الذين يستنصحونهم ويسألونهم عن النبي صلى الله عليه وسلم ويرضون بقولهم فيه فمن آياته أنه كانت فيه الرحمة بمناجاة موســعليه الســلام وما كتب له فيه على ألواح الجوهر وما أنزل عليه من الناموس الذي جعله هدى ورحمة وموعظة وذكراً وتفصـــيلاً لكل شيء وكان فيه مع الرحمة العذاب بما أتاهم من الصاعقة التي أماتتهم ثم أحياهم الله وبما كانوا يشـــهدون من الســـحاب الذي تخلله فيكون كقتار الأتون، وفيه بروق كأعظم ما يشاهد من النار، وأبواق تزعق بصوت هائل، ولما شوهد من اندكاك لجبل عند التجلي وصـعق موسـى عليه السـلام إلى غير ذلك من الآيات التي تكشـف الظلمات، وأيضـاً فالطور كل جبل ينبت، وإنبات الجبل عجيب، فإن نباته لا يكون إلا بســبب، وســبب النبات الماء، والماء منبث في الأرض لتركبها عليه وهو مواز لما انكشـــف منه من ماء البحار، وكلما علت الأرض بعدت عن الماء، والجبال أبعدها منه، فســـبب إنباته خفي جداً لا يعلمه إلا الله ومن فهمه إياه.

ولما كانت الأرض لوح الســماء التي منها الوعيد، وكانت الجبال أشـــدها، فذكر أعظمها آية، وكان الكتاب لوح الكاتب، وكانت الكتب الإلهية أثبت الكتب، وكان طور سينا قد نزل كتاب إلهي قال: {وكتاب} وحقق أمره بقوله: {مسـطور *} أي متفق الكتابة بسـطور مصـفوفة من حروف مرتبة جامعة

لكلمات متفقة ككتاب موسى عليه السلام الذي أنزله عليه وكلمه بكثير منه في الطور وتنكيره للتعظيم لأنه إن كان المراد به الكتب الإلهية فهو أثبت الأشياء، وإن كان المراد صحيفة قريش فقد كانوا ظنوها أثبت العهود، وذكر أمتن ما يكتب فيه وأشده وأتقنه فقال: {في رق} أي في جلد مهيأ بالقشر للكتابة {منشور *} أي مهيأ للقراءة والاتعاظ بما فيه، ويمكن أن يكون أراد به جميع الكتب المنزلة عاماً بعد خاص، قال الرازي: قال الصادق: إن الله تجلى لعبده بكتابه كما تجلى بالطور لما كان محلاً للتجلي خلقاً، والكتاب لما كان محلاً للتجلي أمراً، أجراهما في قرن- انتهى. ويجوز أن يكون أراد به سبحانه صحيفة الظلم التي كتبوها بما تعاقدوا عليه من أنهم لا يعاشرون بني هاشم ولا يكلمونهم ولا يبايعونهم ولا يشاورونهم ولا يناكحونهم ولا يؤازرونهم ولا يعاملونهم حتى يسلموا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلقوها في جوف الكعبة فانحاز بنو هاشم إلى شعب أبي طالب خلف أبي قبيس وتبعهم بنو المطلب رهط إمامنا الشافعي رضي الله عنه، فتحيزوا معهم من بين بني عبد مناف، فكان ذلك سبب شرفهم على مدى الدهر، فأرسل الله على الصحيفة- بعد أن مضى على ذلك سنتان حين جهدهم العيش ومضّهم الزمان وزلزلتهم القوارع زلزالاً شديداً وهم ثابتون ليظهر الله بذلك شرف من شاء من عباده- الأرضة، فأبقت ما فيها من أسماء الله تعالى ومحت ما كان من ظلمهم وقطيعتهم، فكان ذلك سبباً لأن قام في نقضها معشر منهم، فنقضها الله بهم، وكانوا إذا ذاك كفرة كلهم ليظهر الله قدرته سبحانه على كل من النقض والإبرام بما شاء ومن شاء {والبيت

المعمور *} الذي هو قيام للناس كما كانت قبة الزمان قياماً لبني إسـرائيل، هذا إن كان تعالى أراد به الكعبة التي علقوا فيها الصـحيفة بعد أن كانوا لما عمروها اختلفوا فيمن يضـع الحجر الأسود في موضـعه، وزاد بهم الاختلاف حتى تهيؤوا للقتال وتحالفوا عليه، فكان منهم لعقة الدم، ومنهم المطيبون كما هو مشهور في السير، ثم وفقوا لأن رضوا أن يحكم بينهم أو داخل من باب عينوه، فكان أول داخل منه النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا بأجمعهم: هذا محمد هذا الأمين، رضـينا بحكمه، فحكم صـلى الله علي وسـلم بأن يوضـع الحجر الشـــريف في ثوب ويأخذ رئيس كل قبيلة بطرف من أطرافه ويرفعوه كلهم، فلما وازى موضعه أخذه هو صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة فوضعه في موضـعه، فكان الفخر له مضـاعفاً بحكمه وإصـلاحه بينهم، واختصـاصـه بوضعه وهو معمور بالزوار والخدمة وكثرة الحاشية.

ولما كان البيت لا بد في مسماه من السقف قال: {والسقف المرفوع *} يريد سـقف الكعبة إشـارة إلى أنه محكم البناء مغلق الباب متقن السـقف إتقاناً هو أعظم من إتقان سـقف قبة الزمان التي شـاهد فيها بنو إسـرائيل من العظمة الإلهية والجلال ما إن سـأـلتموهم عنه أخبروكم به، ومع ذلك سـلط على الصـحيفة- التي في جوفه، ولعلها كانت في سـقفه بحيث لا يصـل إليها أحد- ما أفسـدها تحقيقاً لثبوت ما أراد من أمره تحذيراً مما توعد به، ويمكن أن يراد به مع ذلك السـماء التي فيها ما توعدون، ومن المعلوم أن لكل ذي عقل أن أقل السـقوف لا يرتفع توعدون، ومن المعلوم أن لكل ذي عقل أن أقل السقوف لا يرتفع بغير عمد إلا بأسباب لا ترى، فكيف بالسماء التي لها

من السعة والعظمة والثخن وما فيها من الكواكب ما لها مما لا يسع العقول شرحه، وهم لا ينظرون أسبابه كما قال تعالى
{بغير عمد ترونها} [الرعد: 2] ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنه العرش وهو سقف الجنة.

ولما كان الماء أقوى من كل ما تقدم، ختم به فقال: {والبحر المسجور *} أي الذي فيه من الماء أكثر من ملئه وهو ساجره أي مانعه- كما يمنع الكلب بساجوره عن الانسباح، ولو أراد خلاه فاندفق فجرى فأهلك ما مر عليه من جبل وكتاب وبيت كما شوهد لما شجره سبحانه لبني إسرائيل فانفلق، ونشفت أرضه ثم لما أراد سببه أن فرعون فعذبهم به فأهلكهم حتى لم يبق منهم أحد.

ولما أقسم بما يدل على نبوة موسى عليه السلام وثلث بما أشار إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وثنى بما هو مشترك بينهما، وكان الأول مع ذلك دالاً على استقرار الأرض، والثالث على صلاحيتها للسكنى، والثاني على الحافظ في ذلك، وربع بما كمل المنافع، وحذر من السقوط كما خوف بالأول من الخسف، وخمس بما دل على ما أريد بالأول من الاستقرار لأنه لو كان ميل لانطلق البحر إلى جهته، أجاب القسم بقوله: {إن عذاب} ولما كان سبحانه عظيم الإكرام له صلى الله عليه وسلم، أضاف العذاب إلى صفة الإحسان والتربية الخاصة به، وأضاف الصفة إلى ضميره إيذاناً بأنه يريه في أمته ما يسره، وإن مماثلة «ذنوبهم كذنوب أصحابهم» الماضين إنما هي في مجرد الإذلال، لا في أنه يستأصلهم كما استأصل أولئك فقال:

{ربك} أي الذي تولى تربيتك أي عذاب أراده بكل من أراد به لا سـيما المعادي لأوليائه سـبحانه {لواقع *} أي ثابت نازل بمن أراد نزول ما هو ثقيل من مكان عال كما أنه لو أراد لقلب الأرض التي ثبتها وأوقع السـقف الذي رفع، وأطلق البحر الذي سـجر، كما علم من إطلاقه البحر فلقه على آل فرعون حتى أغرقهم به {ما له من دافع *} لأنه لا شـريك لموقعه لما دلت عليه هذه الأقسـام من كمال قدرته وجلال حكمته وضبط أعمال العباد للمجازاة سواء قلنا: إن الكتاب هو الذي يكتبه الحفظة أو الذي يضبط الدين، فلما أوقع الجزاء بهم في الصـحيفة، ونقض معاقدتهم، وفض جمعهم، أخرج معاشـرك من ذلك الضـيق فكذلك يؤيدك حتى توقع بهم وتنقض جمعهم وتكسر شوكتهم ونقتل سرواتهم ويظهر دينك على دينهم، ويصير من بقي منهم من حزبك وأنصار دينك، قال البغوي: قال جبير بن مطعم رضي الله عنه: قدمت المدينة لأكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر، فدفعت إليه وهو يصلي بأصحابه المغرب وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ {والطور} – إلى قوله– {إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع} فكأنما صدع قلبي حين سمعته، ولم أكن أسلمت يومئذ، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما توعد تعالى كفار قريش ومن كان على طريقتهم من سائر من كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم سيصيبهم ما أصـاب غيرهم من مكذبي الأمم، المنبه على ذكرهم في السـورة قبل، ثم أشـار سـبحانه إلى عظيم ما ينالهم من الخزي وأليم العذاب بقوله: {فويل

للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون} [الذاريات: 60] أقسم سبحانه على صحة ذلك ووقوعه- والعياذ به سبحانه من سخطه وأليم عذابه- فقال تعالى: {والطور}- إلى قوله- {إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع} ثم أومأ سبحانه إلى مستحقيه ومستوجبيه فقال {فويل يومئذ للمكذبين} ثم ذكر ما يعنفون به ويوبخون على ما سلف منهم من نسبته عليه الصلاة والسلام إلى السحر فقال تعالى {ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون} [سبأ: 42] {أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون} ثم أعقب بذكر حال المؤمنين المستجيبين، ثم ذكر إثر إعلامه بحال الفريقين- نعمته على نبيه عليه الصلاة والسلام وعصمته ووقايته مما يقول المفترون فقال تعالى {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون} ثم جرت الآي على توبيخهم في مقالتهم ووهن انتقالاتهم، فمرة يقولون: كاهن، ومرة يقولون: مجنون، ومرة يقولون: شاعر يترقب موته. فوبخهم على ذلك كله وبين كذبهم وأرغمهم وأسقط ما بأيديهم بقوله {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} وهذا هو المسقط لما تقولوه أولاً وآخراً، وهذا الذي لم يجدوا عنه جواباً، ورضوا بالسيف والجلاء، لم يتعرضوا لتعاطي معارضته، وهذا هو الوارد في قوله تعالى في صدر سورة البقرة {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله} [البقرة: 23] الآيات، فما نطقوا في جوابه ببنت شفة {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله} [الإسراء: 88] فتبارك من جعله آية باهرة وحجة قاهرة- انتهى.

ولما أثبت وقوع العذاب، تشـوفت نفس الموقن إلى وقته، قال مسـتأنفاً لبيان أنه واقع على تلك الصفة: {يوم تمور} أي تتحرك وتضطرب وتجيء وتذهب وتتكفأ تكفأ السفينة وتدور دوران الرحى، ويموج بعضـها في بعض، وتختلف أجزاؤها بعضــها في بعض، ولا تزول عن مكان؛ قال البغوي: والمور يجمع هذه المعاني فهو في اللغة الذهاب والمجيء والتردد والدوران والاضــطراب، قال الرازي: وقيل: تجيء وتذهب كالدخان ثم تضمحل. {السماء} التي هي سقف بيتكم الأرض {موراً *} أي اضطراباً شديداً {وتسير الجبال} أي تنتقل من أمكنتها انتقال السحاب، وحقق معناه بقوله: {سيراً} فتصـير هباء منثوراً وتكون الأرض قاعاً صفصفاً.

▲ تفسير الآيات رقم [11- 16]

{فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11)
الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12)
يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13)
هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14)
أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15)
اصْـلَوْهَا فَاصْـبِرُوا أَوْ لَا تَصْـبِرُوا سَـوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16)}

ولما حقق العذاب وبين يومه، بين أهله بقوله مسـبباً عن ذلك: {فويل} هي كلمة يقولونها لمن وقع في الهلاك، ومعناه حلول شر فاضـح يكون فيه ندبة

وتفجع {يومئذ} أي يوم إذ يكون ما تقدم ذكره {للمكذبين *} أي العريقين في التكذيب وهم من مات على نسبة الصادقين إلى الكذب.

ولما كان التكذيب قد يكون في محله، بين أن المراد تكذيب ما محله الصدق فقال: {الذين هم} أي من بين الناس بظواهرهم وبواطنهم {في خوض} أي أعمالهم وأقوالهم أعمال الخائض في ماء، فهو لا يدري أين يضـــع رجله. ولما كان ذلك قد يكون من دهشــة بهم أو غم، نفى ذلك بقوله: {يلعبون *} فاجتمع عليهم أمران موجبان للباطل: الخوض واللعب، فهم بحيث لا يكاد يقع لهم قول ولا فعل في موضـــعه، فلا يؤســـس على بيان أو حجة. ولما صور تكذيبهم بأشنع صورة، بين ويلهم ببيان ظرفه وما يفعل فيه فقال: {يوم يدّعون} أي يدفعون دفعاً عنيفاً بجفوة وغلظة من كل ما يقيمه الله لذلك، ذاهبين ومنتهين {إلى نار جهنم} وهي الطبقة التي تلقاهم بالعبوسة والكراهة والغليظ والزفير، وأكد المعنى وحققه بقوله: {دعاً *} قال البغوي: وذلك أن خزنه جهنم يعلون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون نواصـــيهم إلى أقدامهم فم يدفعون دفعاً على وجوههم وزجاً في أقفيتهم، مقولاً لهم تبكيتاً وتوبيخاً: {هذه النار} أي الجسم المحرق المفسد لما أتى عليه، الشـاغل عن اللعب {التي كنتم} بجبلاتكم الفاسدة. ولما كان تكذيبهم بها في أقصـى درجات التكذيب، وكان سـبباً لكل تكذيب، كان كأنه مقصـور عليه فقال مقدماً للظرف إشـارة إلى ذلك، {بها تكذبون *} أي في الدنيا على التجديد والاستمرار.

ولما كانوا يقولون عناداً: إن القرآن بما فيه من الوعيد سحر، سبب عن ذلك الوعيد قوله مبكتاً موبخاً متهكماً: {أفسحر هذا} أي الذي أنتم فيه من العذاب

مع هذا الإحراق الذي تصلون منه {أم أنتم} في منام ونحوه {لا تبصرون *} بالقلوب كما كنتم تقولون في الدنيا {قلوبنا في أكنة} [فصلت: 5] ولا بالأعين كما كنتم تقولون للمذرين {من بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون} [فصلت: 5] أي أنتم عمي عن المخبر عنه مع إحراقه لهم كما كنتم عمياً عن الخبر أي هل تستطيعون أن تقولوا إنكم لا تبصرون المخبر عنه كما كنتم تقولون في الخبر كذباً وفجوراً، ثم يقال لهم بعد هذا التبكيت الذي يقطع بأن جوابهم يكون بأن يقولوا: لا وعزة ربنا ما هو بسحر ولا خيال، بل هو حقيقة، ونحن في غاية الإبصار على سبيل الإخزاء، والامتهان والإذلال: {اصلوها} أي باشروا حرها وقاسوه وواصلوه كما كنتم تواصلون أذى عبادي بما يحرق قلوبهم {فاصبروا} أي فيتسبب عن تكذيبكم في الدنيا ومباشرتكم لها الآن أن يقال لكم: اصبروا على هذا الذي لا طاقة لكم به {أو لا تصبروا} فإنه لا محيص لكم عنها {سواء عليكم} أي الصبر والجزع.

ولما كان المعهود أن الصبر له مزية على الجزع، بين أن ذلك حيث لا تكون المصيبة إلا على وجه الجزاء الواجب وقوعه فقال معللاً: {إنما تجزون} أي يقع جزاؤكم الآن وفيما يأتي على الدوام {ما كنتم} أي دائماً بما هو لكم كالجبلة {تعملون *} مع الأولياء غير مبالين بهم، فكان هذا ثمرة فعلكم بهم.

▲ تفسير الآيات رقم [17- 21]

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17)
فَاكِهِينَ بِمَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18)
كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19)
مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20)
وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (21)}

ولما ذكر ما للمكذبين من العذاب المشـــــار إليه بكلمات القســـــم، أتبعه ما لأضـــــدادهم من الثواب المنبه عليه أيضـــــاً بتلك الكلمات ليتم الخبر ترغيباً وترهيباً، فقال جواباً لمن كأنه قال : فما لمن عاداهم فيك ؟ مؤكداً لما للكفار من التكذيب: {إن المتقين} أي الذين صـارت التقوى لهم صـفة راسـخة {في جنات} أي بساتين دائماً في الدنيا حكماً وفي الآخرة.

ولما كانت البسـاتين ربما يشـقى داخلها أو صـاحبها، نفى هذا بقوله: {ونعيم * } أي نعيم في العاجل، يعني بما هم فيه من الأنس، والآجل بالفعل، وزاد في تحقيق التنعم بقوله : {فاكهين } أي معجبين متلذذين {بما آتاهم ربهم } الذي تولى تربيتهم بعملهم بالطاعات إلى أن أوصلهم إلى ذهاب النعيم، فهو لأن عظمته من عظمته لا يبلغ كنه وصـــــفه . ولما كان المتنعم قد تكون نعمته بعد عذاب، فبين أنهم ليسوا كذلك فقال: {ووقاهم} أي قبل ذلك {ربهم} أي المتفضـــل بتربيتهم بكفهم عن المعاصـــي والقاذورات {عذاب الجحيم * } أي النار الشديدة التوقد.

ولما كان من باشـر النعمة وجانب النقمة في هناء عظيم، قال مترجماً لذلك على تقدير القول: {كلوا} أي أكلاً هنيئاً {واشربوا} شرباً {هنيئاً} أي لا نقص فيه، وهو صـفة في موضـع المصـدر أي هنأتم بمعنى أن كل ما تتناولونه مأمون العاقبة من التخمة والسقم ونحوها {بما كنتم} أي كوناً راسخاً {تعملون *} أي مجددين له على سبيل الاستمرار حتى كأنه طبع لكم.

ولما كان النعيم لا يتم إلا بأن يكون الإنسـان مخدوماً، نبه عليه بقوله: {متكئين} أي مسـتندين اسـتناد راحة، لأنهم يخدمون فلا حاجة لهم إلى الحركة {على سرر مصـفوفة} أي منصـوبة واحداً إلى جنب واحد، مسـتوية كأنها السـطور على أحسـن نظام وأبدعه، قال الأصـبهاني: والصـفة: مد الشـيء على الولاء. ولما كان السـرور لا يتم إلا بالتنعم بالنسـاء قال: {وزوجناهم} أي تزويجاً يليق بما لنا من العظمة.

ولما كانت تلك الدار غنية عن الأسباب، فكانوا غنيين عن العقد، قال مشيراً بالباء إلى صرف الفعل عن ظاهره فإنه إذا كان بمعنى النكاح تعدى بنفسه، وتضمين الفعل «قرناهم» أي جعلناهم أزواجاً مقرونين {بحور} أي نساء هن في شدة بياض العين وشدة سوادها واستدارة حدقتها ورقة جفونها في غاية لا توصف {عين *} أي واسعات الأعين في رونق وحسن.

ولما وصـف حال المتقين من أعداء المكذبين وبدأ بهم لشـرفهم، أتبعهم من هو أدنى منهم حالاً لتكون النعمة تامة فقال: {والذين آمنوا} يعني أقروا بالإيمان ولم يبدلوا ولا بالغوا في الأعمال الصـالحة. ولما كان من هؤلاء من لا يتبعه ذريته بسـبب إيمانه لأنه يرتد عنه، عطف على فعلهم تمييزاً لهم

واحترازاً عمن لم يثبت قوله: {واتّبعتهم} أي بما لنا من الفضل الناشئ عما لنا من العظمة {ذرياتهم} الصغار والكبار وإن كثروا، والقرار لأعينهم بالكبار بايمانهم والصغار بإيمانهم آبائهم {بإيمان} أي بسبب إيمان حاصل منهم، ولو كان في أدنى درجات الإيمان، ولكنهم ثبتوا عليه إلى أن ماتوا، وذلك هو شرط إتباعهم الذريات، ويجوز أن يراد وهو أقرب: بسبب إيمان الذرية حقيقة إن كانوا كباراً، وحكماً إن كانوا صغاراً، ثم أخبر عن الموصول بقوله: {ألحقنا بهم} أي فضلنا لأجل عمل آبائهم {ذرياتهم} وإن لم يكن للذرية أعمال، لأنه قيل في المعنى: «ولأجل عين ألف عين تكرم» ويلحق بالذرية من النسب الذرية بالسبب وهو المحبة، فإن كان معها آخذ لعلم أو عمل كانت أجدر، فتكون ذرية الإفادة كذرية الولادة، وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم

»المرء مع من أحب» في جواب من سأل عمن يحب القوم ولم يلحق بهم.

ولما كان ربما خيف أن ينقص الآباء بسبب إلحاق ذرياتهم بهم شيئاً من درجاتهم، قال: {وما ألتناهم} أي نقصنا الآباء وحبسنا عنهم {من عملهم} وأكد النفي بقوله: {من شيء} بسبب هذا الإلحاق وكان من فوق رتبتهم من الذين يؤمنون والمؤمنين والمتقين وغيرهم أولى منهم، وإنما فصلهم منهم لأن هؤلاء قد لا يوقنون قبل دخول الجنة العذاب، قال جامعاً للفريقين، أو يقال– ولعله أقرب– أنه لما ذكر اتباع الأدنى للأعلى في الخير فضلاً، أشفقت النفس من أن يكون إتباع في الشر فأجاب تعالى بأنه لا يفعل بقوله: {كل امرئ} أي من الذين آمنوا والمتقين وغيرهم {بما كسب} أي من ولد وغيره

{رهين *} أي مسابق ومخاطر ومطلوب وآخذ شيئاً بدل كسبه وموفي على قدر ما يستحقه ومحتبس به إن كان عاصياً، فمن كان صالحاً كان آخذاً بسبب صلاح ولده لأنه كسبه، ولا يؤخذ به ذلاً وهو حسن في نفسه لأجل الحكم بإيمانه سواء كان حقيقة أو حكماً وكل حسن مرتفع، فلذلك يلتحق بأبيه، وأما الإساءة فقاصرة على صاحبها يؤخذ بها ويرهن بذنبه ولا يؤخذ بذنب غيره، والحاصل أن المعالي التي هي كالحياة تفيض من صاحبها على غيره فتحييه، والمساوئ التي هي كالموت لا يتعدى صاحبها، قال الرازي في اللوامع: اعلم أن الذوات بقاؤها ودوامها ببقاء صورها، فحيث ما كانت الصورة المقومة لها أدوم كانت الذوات بها أقوم، وأن النفوس الإنسانية ذوات وصورها علومها وأخلاقها، فحيث ما كانت العلوم حق اليقين ثم عين اليقين، والأخلاق مقومة على نهج الشرع المبين، كانت النفوس دائمة بدوامها غير مستحيلة، إذ لا تتطرق الاستحالة إلى اليقين والعمل الحق، وغير كائنة ولا فاسدة إذ ليس عن اليقين ولا العلوم الحقيقية من عالم الكون والفساد، وإن لم تبلغ النفس إلى كمال اليقين فتعلقت بدليل صاحبه كما انخرطت في سلكها حتى يخرط الإنسان في سلك محبته، لو أحب أحدكم حجراً لحشر معه، فإن الدين هو الحب في الله والبغض في الله، ولهذا اكتفى الشرع من المكلفين بالإسلام وتسليم وتفويض وتحكيم دون الوقوف على المسائل العويصة بالبراهين الواضحة الصحيحة، وما لم يبلغ الولد حد التكليف واخترم ألحقوا بآبائهم وحكم عليهم بحكم عقائدهم وآرائهم حتى يكون حكم آبائهم جارياً عليهم وحكم القيامة نافذاً فيهم، وأما إذا كانت الصورة

القائمة بالذوات مســـــتحيلة بأن كانت جهلاً وباطلاً ينقص أوله آخره وآخره أوله، كانت ذات النفس لا تنعدم ولا تفنى بل تبقى على حال لا يموت فيها ولا يحي، فإنها لو فنيت لاستراحت ولو بقيت لاستطابت، فهي على استحالة بين الموت والحياة، وهذه الاستحالة لا تكون إلا في أجساد وأبدان {كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها} [النساء: 56] انتهى. وهو كما ترى في غاية النفاسة، ويؤيده «يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» ويجوز أن تكون الجملة تعليلاً لما قبلها من النفي، أي ما نقصناهم لأنه قد سبق في حكمنا بأن يكون «كل امرئ» قدرنا أن يرتهن بما قد ينقصه {بما كسب} أي لا يضر ما كسب ما كسبه غيره «رهين» أي معوق عن النعيم حتى يأتيه بما يطلق من العمل الصالح.

▲ تفسير الآيات رقم [22- 27]

{وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22)
يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23)
وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24)
وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (25)
قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26)
فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (27)}

ولما جمعهم في إلحاق الذرية بهم لأنهم من أعظم النعيم، وأمنهم مما قد يخشى من نقصهم بنقصه غيرهم، وعلل ذلك ليكون أرسخ في النفس، أتبعه بما يشاكله فقال: {وأمددناهم} أي آمنوا والمتقين ومن ألحق بهم من ذرياتهم

بما لنا من العظمة زيادة على ما تقدم {بفاكهة} . ولما كانت الفاكهة ظاهرة فيما يعرفونه في الدنيا وإن كان عيش الجنة بجميع الأشـياء تفكها ليس فيه شيء يقصد به حفظ البدن قال: {ولحم مما يشتهون *} ليس فيه شيء منه مما لا يعجبهم غاية الإعجاب.

ولما كان هذا النعيم العظيم المقيم يدعو إلى المعاشرة، بالقرينة العاطرة، بين أن ذلك حالهم اللازمة الظاهرة، من الخصـال اللائقة الطاهرة، فقال: {يتنازعون} أي يشربون متجاذبين مجاذبة الملاعبة لفرط المحبة والسرور وتحلية المصاحبة {فيها كأساً} أي خمراً من رقة حاشيتها تكاد أن لا ترى في كأسها. ولما كان في خمر الدنيا غوائل نفاها عنها فقال: {لا لغو} أي سقط مما يضر ولا ينفع {فيها} أي في تنازعها ولا بسببها لأنها لا تذهب بعقولهم ولا يتكلمون إلا بالحسن الجميل {ولا تأثيم *} أي ولا شيء فيها مما يلحق شرَّابها إثما ولا يسوغ نسبه.

ولما كانت المعاطاة لا يكمل بسطها ولا يعظم إلا بخدم وسقاة قال: {ويطوف عليهم} أي بالكؤوس وغيرها من أنواع التحف {غلمان} ولما كان أحب ما إلى الإنسان ما يختص به قال: {لهم} ولم يضفهم لئلا يظن أنهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا فيشـفق كل من خدم أحد في الدنيا بقول أو فعل أن يكون خادماً له في الجنة فيحزن بكونه لا يزال تابعاً، وأفاد التنكير أن كل من دخل الجنة وجد له خدماً لم يعرفهم قبل ذلك {كأنهم} في بياضهم وشدة صفائهم {لؤلؤ مكنون *} أي مصون في الصدف لم تغيره العوارض، هذا حال الخادم فما ظنك بالمخدوم.

ولما كان ألذ ما إلى الحبيب وأعظم ما يكون من أربه ذكر محبوبه والثناء عليه بما منّ به، قال تعالى شارحاً لذلك عاطفاً على ما تقديره: فأقبلوا على تعاطي ما ذكر من النعم: {وأقبل بعضهم} لما ازدهاهم من السرور، وراقهم من اللذة والحبور {على بعض يتساءلون *} أي يسأل بعضهم بعضاً عن السبب الموصل له إلى هذا النعيم الذي لا يقدر مخلوق على وصفه حق وصفه، ثم استأنف شرح ذلك بقوله: {قالوا} أي قال كل منهم مؤكداً استلذاذاً بما أداهم إلى ما هم فيه لأنه لا يكاد يصدق، مسندين النعمة بفعل الكون إلى الله الذي جبلهم جبلة خير، مسقطين الجار إشارة إلى دوام خوفهم، تنبيهاً على أن الخوف الحامل على الكف عن المعاصي يشترط فيه الدوام، بخلاف الرجاء الحامل على الطاعات، فإنه يكفي فيه ما تيسر كما تأتي الإشارة إليه بإثبات الجار: {إنا كنا قبل} أي في دار العمل {في أهلنا} على ما لهم من العدد والعدد والنعمة والسعة، ولنا بهم من جوالب اللذة والدواعي إلى اللعب {مشفقين *} أي عريقين في الخوف من الله لا يلهينا عنه شيء مع لزومنا لما نقدر عليه من طاعته لعلمنا بأنا لا نقدره لما له من العظمة والجلال والكبرياء والكمال حق قدره، وأنه لو واخذنا بأصغر ذنوبنا أهلكنا، قال الرازي: والإشفاق: دوام الحذر مقروناً بالترحم، وهو أن يشفق على النفس قبل أن تجمح إلى العناد، وله أقسام: إشفاق على العمل أن يصير إلى الضياع، وإشفاق على الخليقة لمعرفة مقاديرها، وإشفاق على الوقت أن يشوبه تفرق وعلى القلب أن يمازجه عارض وعلى النفس أن يداخلها- انتهى.

ولما حكى عنهم سبحانه أنهم أثبتوا لأنفسهم عملاً تدريباً لمن أريدت سعادته، فكان بحيث يظن أنهم رأوه هو الســـــبب لما وصـــــلوا إليه، قالوا نافين لهذا الظن، مبينين أن ما هم فيه إنما هو ابتداء تفضــــل من الله تعالى لأن إشــفاقهم منه ســبحانه لكيلا يعتمد الإنســـان على شـــيء من عمله فلا يزال معظماً لربه خائفاً منه: {فمنّ الله} الذي له جميع الكمال بسـبب إشـفاقنا منه {علينا} بما يناســـب كماله فأمّننا {ووقانا} أي وجنبنا بما ســترنا به {عذاب السموم *} أي الحر النافذ في المسام نفوذ السم.

▲ تفسير الآيات رقم [28- 34]

{إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28)
فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29)
أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30)
قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31)
أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32)
أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33)
فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34)}

ولما ذكروا إشـفاقهم، بينوه مؤكدين أيضـاً لمثل ذلك بقولهم: {إنا كنا} أي بما طبعنا عليه وهيئنا له . ولما كان الدعاء بمعنى فعل العبادة، وكانت تقع في بعض الزمان، أثبت الجار إشـــارة إلى ذلك مع إســـقاطه قبل هذا في الدعاء بالقوة إشـــارة إلى أن التحلي بالفضـــائل يرضـــى منه باليســـر، والتخلي عن الرذائل لا بد فيه من البراءة عن كل قليل وكثير فقيل : {من قبل} أي في

الدنيا {ندعوه} أي نسـألـه ونعبده بالفعل، وأما خوفنا بالقوة فقد كان في كل حركة وسكنة، ثم عللوا دعاءهم إياه مؤكدين لأن إنعامه عليهم مع تقصيرهم مما لا يكاد يفعله غيره، فهو مما يعجب منه غاية العجب فقالوا: {إنه هو} أي وحده {البر} الواسـع الجود الذي عطاؤه حكمة ومنعه رحمة، لأنه لا ينقصـه إعطاء ولا يزيده منع، فهو يبر عبده المؤمن بما يوافق نفسـه فربما بره بالنعمة وربما بره بالبؤس، فهو يختار لـه من الأحوال ما هو خير لـه ليوسـع له في العقبى، فعلى المؤمن أن لا يتهم ربه في شـيء من قضـائه {الرحيم *} المكرم لمن أراد من عباده بإقامته فيما يرضـاه من طاعته، ثم بإفضاله عليه وإن قصر في خدمته.

ولما كان هذا مع تشـويقه إلى الجنة والأعمال الموصـلـه إليها وعظاً يرقق القلوب ويجلي الكروب، سبب عنه قوله: {فذكر} أي جدد التذكير بمثل هذا لكل من يرجو خيره ودم على ذلك، وسماه تذكيراً لأنه مما يعلمه الإنسان إذا أمعن النظر من نفسـه أو من الآفاق، وعلل التذكير بقوله: {فما أنت} أي وأنت أشرف الناس عنصراً وأكملهم نفساً وأزكاهم خلائق هم بها معترفون لك قبل النبوة {بنعمت ربك} أي بسبب ما أنعم به عليك المحسن إليك من هذا الناموس الأعظم بعد تأهيلك له بما هيأك به من رجاحة العقل وعلو الهمة وكرم الفعال وجود الكف وطهارة الأخلاق وشرف النسب، وأكد النفي بقوله: {بكاهن} أي تقول كلاماً- مع كونه سـجعاً متكلفاً- أكثره فارغ وتحكم على المغيبات بما يقع خلاف بعضه. ولما كان للكاهن والمجنون اتصال بالجن، أتبع ذلك قوله: {ولا مجنون *} أي تقول كلاماً لا نظام له مع الإخبار

ببعض المغيبات، فلا يفترك قولهم هذا عن التذكير فإنه قول باطل لا تلحقك به معرة أصـلاً؛ وعما قليل يكون عيباً لهم لا يغسله عنهم إلا اتباعهم لك، فمن اتبعك منهم غسل عاره، ومن استمر على عناده استمر تبابه وخساره.

ولما كانت نسبته صلى الله عليه وسلم فيما أتاهم به من هذا القرآن الآمر بالحكمة إلى أنه أتى به عن الجن الذين طبعهم الفساد مما لا ينبغي أن يتخيله أحد فضلاً أن يقوله له صلى الله عليه وسلم، ولا يكاد يصدق أن أحداً يرميه به، فكان في طيه سؤال تقريع وتوبيخ، نبه على ذلك بالعطف على ما تقديره: أيقولون هذا القول البعيد من أقوال أهل العقول: {أم يقولون} ما هو أعجب في مجرد قوله فضلاً عن تكريره، فأم معادلة للاستفهام قبلها لا مقطوعة، وكذا جميع ما بعدها وهو معنى ما نقله البغوي عن الخليل أنه قال: ما في سورة الطور من ذكر «أم» كله استفهام وليس بعطف.

{شاعر} يقول كلاماً موزوناً بالقصد، يلزمه التكلف لذلك فيغلب إلزام الوزن قائله حتى يجعل اللفظ هو الأصل ويجعل المعنى تابعاً له، فيأتي كثير من كلامه ناقص المعاني هلهل النسج مغلوباً فيه على أمره معترفاً إذا وقف عليه بتقصيره متعذراً مما زانه بهزعم من أوزانه، وساق سبحانه هذا وكذا ما بعده من الأقسام على طريق الاستفهام مع أن نسبتها إليهم محققة، تنبيهاً على أن مثل هذا لا يقوله عاقل، وإن قاله أحد لم يكد الناقل عنه يصدق: {نتربص} أي ننتظر {به ريب المنون *} أي حوادث الدهر من الموت وغيره القاطعة، من المن وهو القطع.

ولما كان كأنه قيل لهم: إنهم ليقولون ذلك، قال معلماً جوابهم: {قل تربصوا} ولم يعرج على محاججتهم في قولهم هذا تنبيهاً على أنه من السقوط بمنزلة لا يحتاج معها إلى رد مجادلة، ثم سبب عن أمره لهم بالتربص قوله: {فإني معكم} وأكده تنبيهاً على أنه يرجو الفرح بمصيبتهم كما يرجون الفرح بمصيبته وإن كانت كثرتهم وقوتهم عندهم مانعة من مثل هذا التربص {من المتربصين *} أي العريقين في التربص وإن ظننتم خلاف ذلك، وأشار بالمعية إلى أنه مساو لهم في ذلك وإن ظنوا لكثرتهم وقوتهم ووحدته وضعفه أن الأمر خلاف ذلك، قال القشيري: جاء في التفسير أن جميعهم- أي الذي تربصوا به- ماتوا، قال: ولا ينبغي لأحد أن يؤمل نفاق سوقه بموت أحد لتنتهي النوبة إليه فقل من تكون هذه صفته إلا سبقته المنية، ولا يدرك ما تمناه من الأمنية.

ولما كان قولهم هذا مما لا يقال أصلاً وإن قيل على بعده كان قوله كأنه على جهة سبق اللسان أو نحو ذلك، نبه عليه بمعادلة ما تقديره: أقالوا ذلك ذهولاً: {أم تأمرهم} أي نزين لهم تزييناً يصير مآلهم إليه من الانبعاث كالأمر {أحلامهم} أي عقولهم التي يزعمون أنهم اختصوا بجودتها دون الناس بحيث إنه كان يقال فيهم: أولوا الأحلام والنهي {بهذا} أي وهم يعتقدون صحته وأنه العدل السواء لأنه متقيدون بالأحلام والنهي على ما فيه من الفساد بالتناقض بعد اختلال كل قول منه على حدته كما تقدم بيانه، وهو توبيخ عظيم بالإشارة إلى أنه ليست لهم عقول أصلاً لقولهم هذا، فإن الكاهن شرطه أن يكون في غاية المعرفة عندهم حتى أنهم يجعلونه حكماً وربما عبدوه،

والمجنون لا يصلح لصالحة لأنه لا يعقل، والشاعر بعيد الأمر بوزن الكلام وكثرته من سجع الكاهن وغيره وكلام المجنون: {أم هم} بظواهرهم وبواطنهم {قوم} أي ذوو قوة على ما يحاولونه فهم لذلك {طاغون} أي مجازون للحدود، وذلك عادة لهم بما أفهمه الوصف، فهم لذلك لا يبالون بالعناد الظاهر في مخالفته لما تأمر به الأحلام والنهى، ولا يقوله إلا الطغاة السفهاء مع ظهور الحق لهم، فهم يقولون الكلام المتناقض غير مبالين بأحد ولا مستحيين من أن ينسبوا إلى العدوان والمبالغة في العصيان، والآية من الاحتباك: ذكر الأحلام أولاً دليلاً على ضدها ثانياً، والطغيان ثانياً على ضده «العدل السواء» أولاً، وسره أن ما ذكر أشد تنفيراً من السوء وأعظم تقبيحاً له وتحذيراً منه {أم يقولون} ما هو أفحش عاراً من التناقض: {تقوله} أي تكلف قوله من عند نفسه كذباً وليس بشعر ولا كهانة ولا جنون، وهم على كثرتهم وإلمام بعضهم بالعلم وعرافة آخرين في الشعر والخطب والترسل والسجع يعجزونه عن مثله بل عن مثل شيء منه.

ولما كان الكلام حقيقة في النفس، وكانوا يعلمون بطلان جميع ما يقولونه من ذلك، كان التقدير: لم يقولوا شيئاً من ذلك حقيقة واعتقاداً {بل لا يؤمنون *} أي لا يقرون بالحق مع علمهم ببطلان قولهم وتناقضه عناداً منهم لا تكذيباً في الباطن.

ولما كان هذا القول أظهر بطلاناً من كل ما قالوه لأن تكذيبهم لهم على تقدير كذبه- على زعمهم- غير موقوف على شيء خارج عن القوة، طالبهم بالمعارضة لأنهم إذا عارضوه بمثله انفصل النزاع، ولذلك سبب عما مضى

قوله تكذيباً لهم في قولهم هذا الذي أظهروه بألسنتهم يوقفون به غيرهم عن الخير: {فليأتوا} أي على تقدير أرادوه {بحديث} أي كلام مفرق مجدد إتيانه مع الأوقات لا تكلفهم أن يأتوا به جملة {مثله} أي القرآن في البلاغة وصحة المعاني والإخبار بالمغيبات مما كان أو يكون على ما هي عليه والحكم.

ولما كان المقصود هنا مطلق التعجيز للمكذبين لا بقيد الاجتماع كما في سبحان لأن نزول هذه أوائل ما نزل، تحداهم بالإتيان بالمثل في التنجيم والتطبيق على الوقائع سوراً أو آيات أو دون ذلك، تحدث وتتجدد شيئاً في أثر شيء- بما أشار إليه التعبير بالحدوث، ولذلك أعراه عن تظاهرهم بالاجتماع ودعاء المستطاع، ولكونهم كاذبين في جزمهم بنسبته إلى التقول وغيره، أشار إلى ذلك بقوله مقرعاً لهم إلهاباً إلى الخوض في المعارضة: {إن كانوا} أي كوناً هم راسخون فيه {صادقين *} أي في أنه تقوله من عند نفسه شيئاً فشيئاً، كوناً هم عريقون فيه كما يزعمون سواء ادعوا أنه شاعر أو كاهن أو مجنون أو غير ذلك، لأن العادة تحيل أن يأتي واحد من قوم وهو مساوٍ لهم بما لا يقدرون كلهم على مثله، والعاقل لا يجزم بشيء إلا وهو عالم به، ويلزم من علمهم بذلك قدرتهم على مثل ما يأتي به، فإنه صلى الله عليه وسلم مثلهم في الفصاحة والبلد والنسب، وبعضهم يزيد عليه بالكتابة وقول الشعر ومخالطة العلماء، ومزاولة الخطب والرسائل وغير ذلك، فلا يقدر على ما يعجزون عنه إلا بتأييد إلهي، وهو المراد من تكذيبهم، وقد علم من هذا ومما تقدم من نحوه مفرقاً في السور التي فيها مثله أن المتحدى به في كل سورة غير المتحدى به في الأخرى- والله

الهادي، وهذه الأقســـام الماضـــية من تكذيبهم تتأتى أن تكون على تقدير الاعتقاد للإله على ما هو عليه من صـــفات الكمال فأتباعها قســـماً على تقدير التعطيل، وإذا لم يكن إله لم يكن رســـول فيأتي التكذيب، ثم أتبع ذلك قســـماً آخر هو على تقدير إثبات الإله لكن مع الضـــعف بالشـــركة، ولكون الشـــــركة تارة تكون من المتكلم وتارة من غيره، قدم منها ما للمتكلم على زعمه، وقدم تقدير شـــركته بالخلق ثم بضـــبط الخزائن ثم بالكتابة ثم بسـماع الأسرار ثم بضعف السعة بالرضا بالصنف الأردأ.

▲ تفسير الآيات رقم [35- 38]

{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35)
أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (36)
أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (37)
أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38)}

ولما مضـــت فضـــيحتهم بالتحدي، وكانت عندهم فضـــيحة التناقض دون فضـــيحة المعارضـــة، فكانوا يقدمونها عليها، فلم يحدث أحد منهم يوماً من الأيام بشـــيء مما يعارضـــه به علماً منهم بأنهم يصـيرون بذلك إلى خزي لا يمكن أن يغســـل عاره كما صـــار مســـيلمة، لأنهم كانوا أعقل العرب وكان التقدير كما هدى إليه السياق: فإنك مستوٍ معهم بالنسبة إلى إيجاد الله لكم، هو سبحانه خالقهم كما أنه خالقك، ولا خصوصية لك منه على زعمهم: أهو خالقهم كما هو خالقك فيلزمهم أن يأتوا بمثل ما تأتي به، وكان ذلك على تقدير إقرارهم بالله وادعائهم لكذبه صلى الله عليه وسلم، عادله سبحانه تبكيتاً

لهم وإظهاراً لفضائح هي أشنع مما فروا منه من المعارضة بقوله على تقدير أن يكونوا منكرين للإله أو مدعين لأن يكونوا آلهة : {أم خلقوا} أي وقع خلقهم على هذه الكيفية المتقنة {من غير شيء} فيكونوا مخالفين لصريح العقل إذ تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم كتعلقه بالمخلوق ليسلم لهم أنك تأتي بما لا يقدرون على معارضته لأنك أقوى منهم بكونك مستنداً إلى خالق وهم ليسوا مستندين إلى شيء أو ليكونوا لذلك أقوى منك وأعلى، فيكون لهم التكبر عليك {أم هم الخالقون *} أي الذين لهم هذا الوصف فيكونون قد خلقوا أنفسهم ليكونوا بذلك شركاء فيكون الخالق والمخلوق واحداً، وهو مثل القسم الذي قبله في عدم الاستناد إلى شيء أو يكون ثبوت هذا الوصف لهم موجباً لأن يكونوا على ثقة مما يقولون وللتكبر عليك، فإن ادعوا ذلك حكم أدنى الخلق بجنونهم؛ {أم خلقوا} أي على وجه الشركة {السماوات والأرض} فهم لذلك عالمون بما فيها على وجه الإحاطة واليقين حتى علموا أنك تقولته ليصير لهم رده والتهكم عليه.

ولما كان التقدير : لم يكن شيء من ذلك ليكون لهم شبهة في الكلام فيك، عطف عليه قوله : {بل لا يوقنون *} أي ليس لهم نوع يقين ليسكنوا إلى شيء واحد لكونه الحق أو ليعلموا أن هذه الملازم الفاضحة تلزمهم فيكفوا عن أمثالهم {أم عندهم} أي خاصة دون غيرهم {خزائن} ولما كان ذكر الرحمة لا يقتضيه مقصود السورة الذي هو العذاب، لم تذكر كما في ص وسبحان فقيل: {ربك} المحسن إليك بإرسالك بهذا الحديث فيعلموا أن هذا الذي أثبت به ليس من قوله لأنه لا تصرف له في الخزائن إلا بهم، فيصح

قولهم: إنك تقولته وحينئذ يلزمهم فضـــائح لا آخر لها، منها أن يأتوا بحديث مثله بل أحسن منه من تلك الخزائن {أم هم} لا غيرهم {المسيطرون *} أي الرقباء الحافظون والجبارون والمســلطون الرؤســـاء الحكماء الكتبة، ليكونوا ضــابطين للأشـياء كلها كما هو شــأن كتّاب الســر عند الملوك فيعلموا أنك تقولت هذا الذكر لأنهم لم يكتبوا به إليك {أم لهم ســلّم} يصـــعدون به إلى الســماء {يسـتمعون} أي يتعمدون السـمع لكل ما يكون فيها ومنها {فيه} أي في ذلك السلم وبسببه كما يكون بعض من يحضر مجالس الملوك في الدنيا ويعلم ما يقع فيها ليكونوا ضـــــابطين لما يأتي من الملك فيعلموا أن ما قالوه فيك حق ولما كان من يكون هكذا متمكناً من الإتيان منها بالعجائب، ســبب عنه قوله: {فليأت مســتمعهم} إن ادعوا ذلك {بســلطان مبين *} أي حجة قاهرة بينة في نفسها، موضحة لأنها من السماء على صحة ما يرمونك به.

▲ تفسير الآيات رقم [39– 43]

{أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43)}

ولما كان ما مضــى على تقدير وجود الإله مع الشـركة، وكان ادعاؤهم الولد عظيماً جداً لدلالته على حاجته وضـــعفه، وكان جعله بنات أعظم لأنه دال مع ضــعفه على سـفهه، دل على اسـتعظامه بالالتفات إلى خطابهم بعذابهم فقال: {أم له البنات} أي كما ادعيتم {ولكم} أي خاصــة {البنون *} لتكونوا أقوى منه فتكذبوا رسـوله محمداً صــلى الله عليه وسـلم وتردوا قوله من غير

حجة فتكونوا آمنين من عذاب يأتيكم منه لضعفه وقوتكم، وهذه الأقسام كلها على تقدير التكذيب، وهي هنا بذكر ما على تقدير التصديق، وإنما وقع الرد فيها لعارض عرض.

ولما كان المكذب بشيء قد يكون معترفاً بأنه من عند إله، وأن إلهه متصف بجميع صفات الكمال فلا شريك له، وإنما تكذيبه لقادح لا يقدر عليه، وكرب رمى بجميع أنكاده إليه، أعرض عنهم التفاتاً إلى الأسلوب الأول فقال مخاطباً له صلى الله عليه وسلم تنويهاً بذكره ورفعاً لعظيم قدره وتسلية لما يعلم من نفسه الشريفة البراءة منه: {أم تسألهم} أي أيها الطاهر الشيم البعيد عن مواضع التهم {أجراً} على إبلاغ ما أتيتهم به {فهم من مغرم} ولو قل، والمغرم: التزام ما لا يجب {مثقلون *} أي حمل عليهم حامل بذلك ثقلاً فهم لذلك يكذبون من كان سبباً في هذا الثقل بغير مستند ليستريحوا مما جره لهم من الثقل.

ولما كان من يدعي الانفراد بشيء يحسد من يدعي مشاركته فيه قال: {أم عندهم} أي خاصة بهم {الغيب} أي علمه {فهم يكتبون *} أي يجددون للناس كتابة جميع ما غابة عنهم مما ينفعهم ويضرهم حتى يحسدونك فيما شاركتهم به منه، فيردوه لذلك، وينسبوك إلى ما نسبوك إليه مما يعلم كل أحد ترافعك عنه وبعدك منه {أم يريدون} بهذا القول الذي يرمونك به {كيداً} أي مكراً أو ضرراً عظيماً يطفئون به نور الله بزعمهم مع علمهم بأنك صادق فيه، فهم بسبب إرادتهم ذلك هكذا كان الأصل، ولكنه قال تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف: {فالذين كفروا} أي ستروا الأجلة تارة عناداً وتارة

بالإعراض عن تأملها {هم} أي خاصة {المكيدون *} أي يختص وبال الكيد بلزومه لهم وقطعه لدابرهم لأن من كان الإله عليه كان خاسراً، وأقرب مآلهم من الكيد الظاهر في بدر عن انتهاء سـنين عدتها عدة ما هنا من «أم» وهي خمسة عشرة مرة لأن بدراً كانت في الثانية من الهجرة، وهي الخامسة عشـرة من النبوة، فقد سبب الله فيها من الأسـباب ما أوجب سـعيهم إلى هلاكهم بأمور خارقة للعادة، فلو كانت لهم بصـائر لكفتهم في الهداية، والرد عن الضلالة والغواية.

ولما كان التقدير : أكذلك الأمر عادله بقوله : {أم لهم إله} يمنعهم من التصديق بكتابنا، أو يستندون إليه للأمان من عذابنا {غير الله} الذي أحاط بجميع صـفـات الكمال، فلا يمكن بوجه من الوجوه ولا على تقدير من التقادير أن يكون معه إله، ولذلك وصل به قوله: {سبحان الله} أي الملك الأعظم الذي تعالى أن يداني جنابه شـائبة نقص {عما يشـركون} من الأصنام وغيرها، وأخر سبحانه هذا القسم وهو من الشركة لكن بالغير لأنه آت على تقدير التصديق للرسول صلى ولأنه دينهم الذي أوقفهم عن الهدى، فأوقعهم في الردى، ليحتم بنفسـه والتنزيه عن الإقسـام فيحصـل به غاية القصد والمرام.

والحاصـل أنه قسم به سـبحانه حالهم في ردهم القرآن إلى التكذيب وغيره، ولما كان التكذيب– وهو النسـبة إلى الكذب وهو عدم المطابقة للواقع– إما في الإرسال، وإما في المعاني، وما وقع به الإرسال إما لنقص في الرسول وإما النقص في المرسل، والذي في الرسول إما أن يكون لأمر خارج عنه أو

لأمر داخل فيه، ولما كان الخارج قد يكون معه نقص دخل بذاته، ولما كان ذلك قد يكون فيه ما يمدح به ولو من وجه، وهو الكهانة بدأ بها، وأتبعه الداخل لذلك بادئاً بما قد يمدح به وهو الشعر. ولما كان القول بجمع الكهانة والشعر والجنون في شخص واحد على غاية من ظهور التناقص لا يخفى، أتبعها الرمي بالتهكم على عقولهم. ولما كان الكذب في الرمي بالتقول قد يخفى، أتبعه دليله بالعجز عن المعارضــة. ولما قسـم ما رموا به الرسـول، أتبعهم ما ألزمهم به في المرســـل، ولما كان ذلك إما أن يكون بالتعطيل أو لا، وكان التعطيل أشد، بدأ به وهو الخلق من غير شيء، ولما كان النقص مع الإقرار بالوجود إما أن يكون بالشـركة أولاً، وكان بالشـركة إما أن يكون المكذب هو المشـارك أولاً، وكانت الشـركة المكذب أقعد في التكذيب بدأبها، ولما كانت شـركة المكذب إما أن تكون في الخلق أو لا، وكان الأول إما أن يكون بخلق النفس أو الغير، وكانت الشــركة بخلق النفس ألصـــق، بدأ بها قوله: {أم هم الخالقون} ولما كانت الشركة بغير الخلق إما أن يكون بضـبط الحواس أو لا، وكان الثاني إما أن يكون بضـــبط الكتاب فيها وإليه الإشـــارة بالمسيطر، أو بضبط ما يؤمر به فيها وإليه الإشارة بالسلم أو بسفه صاحب الخزائن لرضاه بالبنات، وكان كل قسم أشد مما بعده رتبه هكذا. ولما انتهى ما يرجع إلى التكذيب، أتبعه الرد لا للتكذيب بل لأمر آخر، ولما كان ذلك الأمر إما من الآتي أو من المأتي إليه أو من غيرهما، كان ما من الآتي ألصـق بدأ به وهو المغرم، ولما كان ما من المأتي إليه إما لحسـد أو غيره، وكان أمر الحسد أشد، بدأ به وهو المشـاركة في الأبناء بما يكون به الفخر

والرئاســـــة وهو علم الغيب- الناظر بوجه للكهانة المبدوء بها في قســـم التكذيب، وآخر ما من الغير وهو الشريك المانع لهم من القبول، وخلطه بهذا القسـم مع كونه قسـيماً لما فرض فيه المكذب مشـاركاً لخلوه عما قارن تلك الأقسام من التكذيب، هذا تمام القول في إبطال ما لزمهم فيما تقولوه في أمر القرآن، وقد تضمن ما ترى من تأصيله وتقسيمه وتفصيله من بيان مقدورات الله وعجائب مصـنوعاته ما ألزمهم حتماً التوحيد الملزم بتصـديق الرسـالة والإذعان للحق مع ما له من الإعجاز في ترتيبه ونظمه وتهذيبه وتســـهيله وتقريبه مجلوا أســـلوبه العظيم بألفاظ هي الدر النظيم، ومعان علت عن لاحق بغريزة أو تعليم، يكاد لها أثبت القلوب يهيم فيطير، وأبلغ البلغاء في افنان روحها يتدله ويحير، فكان ذلك كما قال جبير بن مطعم رضـــي الله عنه كما روى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه رضي الله عنهم أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قرأ في المغرب بالطور، وقال البخاري في التفسـير: فلما بلغ هذه الآية {أم خلقوا من غير شــيء أم هم الخالقون} {أم خلقوا الســـماوات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون} كاد قلبي يطير، وقال ابن ماجه: فلما سمعه يقرأ {أم من غير شــيء أم هم الخالقون}- إلى قوله- {فليأت مسـتمعهم بسـلطان مبين} كاد قلبي يطير.

وسبق في أول السورة ما ذكره البغوي من هذا الحديث.

▲ تفسير الآيات رقم [44- 49]

{وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (44)
فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45)
يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (46)
وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (47)
وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48)
وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (49)}

ولما كان التقدير تسكيناً لقلب من يريد إجابتهم إلى الآيات المقترحات طمعاً في إيمانهم: فلقد تلونا عليهم في هذه السورة وغيرها من الآيات، وخلونا من المعجزات البينات، وأتينا من تناقضهم في هذه التقسيمات، بما يهد الجبال الشامخات، وبينا من فضائحهم بحسن سوقها وحلاوة ذوقها، وصحة معانيها وإحكام مبانيها، ما يزلزل الراسيات، ويحل العزمات، ويفرج الأزمات، ويصد ذوي المروات عن أمثال هذه النقائص الفاضحات، لما لها من الأدلة الواضحات، ولكنهم لما ألزمناهم به من العكس لا يؤمنون، وكدناهم بما أعمينا من بصائرهم فهم لا يعلمون أنهم المكيدون، عطف عليه قوله: {وإن يروا} أي معاينة {كسفاً} قطعة، وقيل: قطعاً واحدتها كسفة مثل سدرة وسدر {من السماء} نهاراً جهاراً {ساقطاً يقولوا} لدداً وتجلداً في البغي إصراراً، وتعلقهم بما أمكنهم من الشبه تخييلاً على العقول وإيقافاً لذوي الآراء والفهوم دأب الأصيل في نصر الباطل ومكابرة الحق لما لهم من العراقة في عمى القلوب بما لنا من القدرة على صرفهم عن وجوه الأمر: هذا {سحاب} فإن

قيل لهم: هو مخالف للسحاب بصلابته، قالوا: {مركوم *} أي تراكم بعضه على بعض فتصلب، ولذلك سبب عن هذا الحال الدال على أنهم وصلوا في عمى البصائر إلى أنه لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون، قوله لنبيه صلى الله عليه وسلم ومن تبعه: {فذرهم} أي اتركهم على شر أحوالهم {حتى يلاقوا} سعياً بسوء أعمالهم {يومهم} كما أنه هو يسعى إليهم لاستحقاقهم لما فيه {الذي فيه} لا في غيره لأن ما حكمنا به لا يتقدم ولا يتأخر {يصعقون *} بالموت من شدة الأهوال وعظيم الزلزال كما صعق بنو إسرائيل في الطور، ولكنا لانقيمهم كما أقمنا أولئك إلا عند النفخ في الصور لنحشرهم إلى الحساب الذي يكذبون به، والظاهر أن هذا اليوم يوم بدر فإنهم كانوا قاطعين بالنصرة فيها فما أغنى أحد منهم عن أحد شيئاً كما قال أبو سفيان بن الحارث: ما هو إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا. {يوم لا يغني} أي بوجه من الوجوه {عنهم كيدهم} الذي يرمونه بهذه الأقوال المتناقضة {شيئاً} أي من الإغناء في دفع شيء يكرهونه من الموت ولا غيره كما يظنون أنه يغني عنهم في غير ذلك من أحوال هذه الدار بتثبيط الناس عن اتباع القرآن بما يصفونه به من البهتان {ولا هم ينصرون *} أي لا يتجدد لهم نصر من أحد ما في ساعة ما.

ولما أفهم هذا الكلام السابق أن التقدير: فإن لكل ظالم في ذلك اليوم عذاباً لا يحيط به الوصف، فإن الإصعاق من أشد ما يكون من العذاب، عطف عليه قوله مؤكداً لما لهم من الإنكار أي ينصر عليهم المؤمنون وهم من الكثرة والقوة بحيث لا مطمع فيهم لأحد لا سيما لمن هم مثل في الضعف

والقلة {وإن} وكان الأصل لهم، ولكنه أظهر تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال: {للذين ظلموا} أي أوقعوا الأشياء في غير مواقعها كما يقولونه في القرآن، ويفعلونه من العصيان ويعتقدون من الشرك والبهتان {عذاباً دون ذلك} أي غير عذاب ذلك اليوم الصعب المرير، أو أدنى رتبة منه، إن كان المراد بالعصق ما يكون بعد البعث فبعذاب البرزخ في القبور، وإن كان المراد به الموت فيما يلقونه في الدنيا من عذابي بواسطتكم مثل تحيزكم إلى الأنصار في دار الهجرة ومعدن النصرة وصيرورتكم في القوة بحيث تناصبونهم الحرب، وتعاطونهم الطعن والضرب، فتكونوا بعد أن كنتم طوع أيديهم قذى في أعينهم وشجاً في حلوقهم ودحضاً لأقدامهم ونقضاً لإبرامهم، ومثل القحط الذي حصل لهم والسرايا التي لقيتموها فيها مثل سرية حمزة أسد الله وأسد رسوله، وعبيدة بن الحارث وعبيد الله بن جحش التي كانت مقدمة لغزوة بدر.

ولما كان بعضهم يبصر هذا مثل عتبة بن ربيعة والوليد بن مغيرة والنضر بن الحارث ويقولون: والله ما هو شاعر ولا كاهن ولا ساحر ولا مجنون، وليكونن لقوله الذي يقول نبأ، قال: {ولكن أكثرهم} بسبب ما يرون من كثرتهم وحسن حالهم في الدنيا وقوتهم {لا يعلمون *} أي يتجدد لهم علم بتقويتكم عليهم لأنهم لا علم لهم أصلاً حتى يروا ذلك معاينة.

ولما كان العلم المحيط من الملك القاهر أعظم مسل للولي وأكبر مخيف للعدو، قال عاطفاً على {فذرهم} أو على ما تقديره: فكن أنت العلماء بذلك ليكون فيه لك أعظم تسلية: {واصبر} أي أوجد هذه الحقيقة لتصبر على ما

أنت فيه من أداء الرســـالة وما لها من الكلف من أذى الناس وغيره ولكونه في مقام الإعراض عن الكفار وكون إعراضه عنهم أصعب عليه من مقاساة إنذاره وإن نشأ عنها تكذيبهم واستهزاؤهم، اشتدت العناية هنا بالصبر فقدم، وأيضـــاً فإن الإعراض عنهم مقتض لعدهم فانين، وذلك هو مقام الجمع، والجمع لا يصلح إلا بالفرق، فلذلك قدم الأمر بالصبر، وذكر الحكم إشارة إلى أنه متمكن في مقام الفرق كما أنه عريق في مقام الجمع بخلاف المدثر، فإن سياقها للإنذار الناشـئ عنه غاية الأذى فاشتدت العناية هناك بتقديم ذكر الإله نظراً إلى الفناء عن الفانين وإن كان مباشـــراً لدعائهم، وعبر بما يذكر بحسن التربية زيادة في التعزية فاقتضى هذا السياق أن رغبه سبحانه بقوله: {لحكم ربك} أي المحســـن إليك فإنه هو المريد لذلك ولو لم يرده لم يكن شـيء منه، فهو إحسان منه إليك وتدريب لك وترقية في معارج الحكم، وســـبب عن ذلك قوله لما يغلب على الطبع البشـــري في بعض أوقات الامتحان من نوع نسيان: {فإنك بأعيننا} جمع لما اقتضته نون العظمة التي هذا ســياقها، وهي ظاهرة في الجمع وإشـــارة إلى أنه محفوف بالجنود الذين رؤيتهم من رؤيته ســـبحانه فهو مكلوء مرعى به وبجنوده وفاعل في حفظه فعل من له أعين محيطة بمحفظه من كل جهة من جهاته.

ولما كانت الطاعة أعظم ناصـر وأكبر معز، وكانت الصـلاة أعظمها قال: {وســبح} أي أوقع التنزيه عن شــائبة كل نقص بالقلب واللســان والأركان، متلبساً {بحمد ربك} أي المحسن إليك، فأثبت له كل كمال مع تنزيهه له عن كل نقص، فلا يكون في ملكه ما لا يريد ولا يريد إلا ما هو حكمة بالغة

{حين تقوم *} أي من الليل في جميع الأوقات التي هي مظنة القيام على الأمور الدنيوية والأشغال النفسانية، وهي أوقات النهار الذي هو للانتشار بصلاة الصبح والظهر والعصر، وتحتمل العبارة التسبيح عند كل قيام بكفارة المجلس وهو «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله أنت أستغفرك وأتوب إليك» فإنها تكفر ما كان في المجلس– كما رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح غريب والنسائي وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم {ومن الليل} الذي هو محل السكون والراحة {فسبحه} كذلك بالنية والقول كلما انتبهت وبالفعل بصلاة المغرب والعشاء وصلاة الليل، ولتعظيمه صرح بذلك وقدمه على الفعل، والضمير يعود على المضاف إليه، وأشار إلى التهجد بعد دخوله فيما قبله بقوله: {وإدبار النجوم *} أي وسبحه في وقت إدبارهم أي إذا أدبرت، وذلك من آخر الليل في نصفه الثاني: وكلما قارب الفجر كان أعلى وبالإجابة أولى، وإلى قرب الفجر تشير قراءة الفتح جمع دابر أي في أعقابها عند خفائها أو أفولها، وذلك بصلاة الفجر سنة وفرضاً أحق وأولى لأنه وقت إدبارها حقيقة، فصارت عبادة الصبح محثوثاً عليها مرتين تشريفاً لها وتعظيماً لقدرها فإن ذلك ينجي من العذاب الواقع، وينصر على العدو الدارع، من المجاهر المدافع، والمنافق المخادع، وقد رجع آخرها على أولها، ومقطعها على موصلها، بحلول العذاب على الظالم، وبعده عن الطائع السالم– والله الموفق.

▲ سورة النجم

53 مكية

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي

▲ تفسير الآيات رقم [1– 7]

{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1)
مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2)
وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3)
إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)
عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5)
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6)
وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7)}

ولما ختمت الطور بأمره صلى الله عليه وسلم بالتسبيح والتحميد، وكان أمره تكويناً لا تكليفاً، فكان فاعلاً لا محالة، وذاك بعد تقسيمهم القول في النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كاهن وساحر ومجنون، وكان لذلك تعلق بالشياطين، وكانت الشياطين مباينة للقرآن بختلها وبمنعها بالرجوم من

النجوم كما بين آخر الشـــعراء، افتتحت هذه بالحث على الاهتداء بهدية والاســتدلال بدله واتباع أثره، ولما كان من ذلك تسـبيحه بالحمد في إدبار النجوم أقســم أول هذه بالنجم على وجه أعم مما في آخر تلك فعبر بعبارة تفهم عروجه وصـعوده لأنه لا يغيب في في الأفق الغربي واحد من السـيارة إلا وطلع من الأفق الشــرقي في نظير له منها لما يكون عند ذلك من تلك العبارة العالية، والأذكار الزاكية، مع ما فيه من عجيب الصــنع الدال على وحدانية مبدعه من زينة السـماء التي فيها ما توعدون والحراسـة من المردة حفظاً لنجوم الكتاب والاهتداء به الدين والدنيا، وغير ذلك من الحكم التي يعرفها الحكماء، فقال تعالى: {والنجم} أي هذا الجنس من نجوم السماء أو القرآن لنزوله منجماً مفرقاً وهم يســمون التفريق تنجيماً- أو النبات، قال البغوي: ســمي النجم نجماً لطلوعه وكل طالع نجم. {إذا هوى} أي نزل للأفول أو لرجم الشـياطين عند الاسـتراق كما رواه عكرمة عن ابن عباس رضــي الله عنهما إن كان المراد السمائي، فكانت عنده العبادة والاسـتغفار والدعاء للملك الجبار بالأسحار، أو صعد فكان به اهتداء المصلي والقارئ والساري، فإنه يقال: هوى هوياً- بالفتح إذا سقط، وبالضم- إذا علا وصعد، أو نزل به الملك للإصــعاد وللإبعاد إن كان المراد القرآني لما يحصــل من البركات في الدين والدنيا والشرح للصدور، والاطلاع على عجائب المقدور، أو إذا سـقط منبسـطاً على الأرض أو ارتفع عنها إن كان المراد النبات، لما فيه من غريب الصــنعة وجليل التقدير الدال على عام القدرة وكمال العلم والتوحد بالملك والغنى المطلق.

ولما أقسم بهذا القسم الجليل، أجابه بقوله معبراً بالماضي نفياً لما كانوا رموه به وليسهل ما قبل النبوة فيكون ما بعدها بطريق الأولى: {ما ضل} أي عدل عن سواء المحجة الموصلة إلى غاية المقصود أي أنه ما عمل الضالين يوماً من الأيام فمتى تقول القرآن عنده ولا علم فيه عمل المجانين ولا غيرهم ما رموه به وأما {وجدك ضالاً} [الضحى: 7] فالمراد غير عالم، وعبر بالصحبة مع كونها أدل على القصد مرغبة لهم فيها ومقبلة بهم إليه ومقبحة عليهم اتهامه في إنذاره وهم يعرفون طيب أعرافه وطهارة شمائله وأخلاقه فقال: {صاحبكم} أي في إنذاره لكم في القيامة فلا وجه لكم في اتهامه.

ولما كان الهدى قد يصحبه ميل لا يقرب الموصول إلى القصد وإن حصل به نوع خلل في القرب أو نحوه فقد يكون القصد مع غير صالح قال: {وما غوى *} وما مال أدنى ميل ولا كان مقصوده مما يسوء فإنه محروس من أسبابه التي هي غواية الشياطين وغيرها، وقد دفع سبحانه عن نبينا صلى الله عليه وسلم، وأما بقية الأنبياء فدفعوا أنفسهم {ليس بي ضلالة} [الأعراف: 61] {ليس بي سفاهة} [الأعراف: 67]، ونحو ذلك- قاله القشيري.

ولما كان قد يكون مع الهدى مصادفة قال: {وما ينطق} أي يجاوز نطقه فمه في وقت من الأوقات لا في الحال ولا في الاستقبال، نطقاً ناشئاً {عن الهوى} أي من أمره كالكاهن الذين يغلب كذبهم صدقهم والشعراء وغيرهم، وما تقول هذا القرآن من عند نفسه. ولما أكد سبحانه في نفسه ذلك عند التأكيد تنزيهاً له عما نسب إليه، فكان ذلك مظنة السؤال عن أصل ما تقوله، أجاب بالحصر والآية أصرح وأدفع لإنكارهم البالغ فقال: {إن} أي ما

{هو } أي الذي يتكلم به من القرآن وبيانه، وكل أقواله وأفعاله وأحواله بيانه {إلا وحي} أي من الله تعالى، وأكده بقوله: {يوحى *} أي يجدد إليه إيحاؤه منا وقتاً بعد وقت، ويجوز أن يجتهد صـــلى الله عليه وســـلم، فإذا اســـتقر اجتهاده على شـــيء أوحي مع أن من يرد ما يجتهد فيه إلى ما أوحي إليه بريء من الهوي.

وقال أبو جعفر ابن الزبير في برهانه: لما قطع ســـبحانه تعليقهم بقوله: ساحر وشاعر ومجنون –إلى ما هو به مما علموا أنه لا يقوم على ساق، ولكن شـــأن المنقطع المبهوت أن يســـتريح إلى ما أمكنه وإن لم يغن عنه، أعقب الله سبحانه بقسمة على تنزيه نبيه وصفيه من خلقه عما تقوله وتوهمه الضعفاء فقال تعالى: {والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى} ثم أتبع سبحانه هذا القسم ببسط الحال في تقريبه عليه السلام وإدنائه وتلقيه لما يتلقاه من ربه وعظيم منزلته لديه، وفي إبداء ذلك يحركهم عزّ وجلّ ويذكرهم ويوبخهم على سوء نكاياتهم بلطف واستدعاء كريم منعم فقال تعالى: {أفرأيتم اللات والعزى} والتحمت الآي على هذه الأغراض إلى الإعلام بانفراده سبحانه بالإيجاد والقهر والإعزاز والانتقام، لا يشاركه في شـــيء من ذلك غيره فقال: {وأن إلى ربك المنتهى وأنه هو أضحك وأبكى}. ولما بين ذلك فقال: {فبأي آلاء ربك تتمارى} أي في أيّ نعمة تشكون أم بأي آية تكذبون؟ ثم قال: {هذا نذير من النذر الأولى} وإذا كان عليه الصلاة والسلام... فشأن مكذبيه شأن مكذبي غيره– انتهى.

ولما كان الوحي ظاهراً فيما بواسطة الملك، تشوف السامع إلى بيان ذلك فقال مبيناً له بأوصافه لأن ذلك أضخم في حقه وأعلى لمقداره: {علمه} أي صاحبكم الوحي الذي أتاكم به {شديد القوى *} أفلا تعجبون من هذه البحار الزاخرة التي فأقكم بها وهو أمي فإن معلمه بهذه الصفة التي هو بها بحيث ينفذ كل ما أمره الله به {ذو مرة} أي جزم في قوة وقدرة عظيمة على الذهاب فيما أمر به والطاقة لحمله في غير آية النشاط والحدة كأنه ذو مزاج غلبت عليه الحدة فهو صعب المراس ماض في مراوته على طريقة واحدة على غاية من الشدة لا توصف لا التفات له بوجه إلى غير ما أمر به، فهو على غاية الخلوص فهو مجتمع القوى مستحكم الشأن شديد الشكيمة، لا بيان في شيء بزواله ومن جملة ما أعطى من القوة والقدرة على التشكل، وإلى ذلك كله أشار بما سبب عن هذا من قوله: {فاستوى *} فاستقام واعتدل بغاية ما يكون من قوته على أكمل حالاته في الصورة التي فطر عليها {وهو} أي والحال أن جبرائيل عليه السلام، وجوزوا أن يكون الضمير المنفصل للنبي صلى الله عليه وسلم أي استوى جبرائيل عليهما السلام معه {بالأفق الأعلى *} أي الناحية التي هي النهاية في العلو والفضل من السماوات مناسبة لحالة هذا الاستواء، وذلك حين رآه النبي صلى الله عليه وسلم جالساً على كرسي بين السماء والأرض قد سد الأفق.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 10]

{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8)

فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9)

فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10)}

ولما كان الدنو من الحضـــــرة الإلهية- التي هي مهيئة لتلقي الوحي- من العلو والعظمة بحيث لا يوصــف، أشــار إلى ذلك بأداة التراخي فقال: {ثم} أي بعد ذلك الاســتواء العظيم {دنا} أي جبرائيل عليه الســلام من الجناب الأقدس دنو زيادة في كرامة لا دنو مسافة، وكل قرب يكون منه سبحانه فهو مع أنه منزه عن المسافة يكون على وجهين: قرب إلى كل موجود من نفسه، وقرب ولاية حتى يكون سمع الموجود وبصره بمعنى أنه لا يسمع ولا يبصر إلا ما يرضاه- أشار إليه ابن برجان، فأخذ الوحي الذي أذن له في أخذه في ذلك الوقت {فتدلّى} عقب ذلك من الله رســولاً إلى صــاحبكم أي أنزل إليه نزولاً هو فيه كالمتدلي إليه بحبل فوصـــل إليه ولم ينفصـــل عن محله من الأفق الأعلى لما له من القوة والاســتحكام، قال البيضــاوي: فإن التدلي هو استرتسال مع تعلق كتدلي الثمرة {فكان} في القرب من صاحبكم في رأي من يراه منكم {قاب} أي على مسـافة قدر {قوسـين} من قسـيكم، قال الرازي في اللوامع: أي بحيث الوتر في القوس مرتين، وعن ابن عباس رضـــي الله عنهما: القوس الذراع بلغة أزدشــنوءة، وقال ابن برجان: قاب القوســين: ما بين الســيين، وقيل: ما بين القبضــة والوتر {أو أدنى *} بمعنى أن الناظر منكم لو رآه لتردد وقال ذلك لشـدة ما يرى له من القرب منه صـلى الله عليه

وسلم، روى مسلم في الإيمان من صحيحه عن الشيباني قال: «سألت زر بن حبيش عن قوله تعالى {فكان قاب قوسين} فقال: أخبرني ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبرائيل عليه السلام له ستمائة جناح» {فأوحى} أي ألقى سراً من كلام الله بسبب هذا القرب، وعقبه بقوله: {إلى عبده} أي عبد الله، وإضماره من غير تقدم ذكره صريحاً لما هو معلوم مما تقدم في آخر الشورى أن كلام الله يكون وحياً بواسطة رسول يوحي بإذنه سبحانه، والمقام يناسب الإضمار لأن الكلام هو الوحي الخفي، وعبر بالبعد إشارة إلى أنه لم يكن أحد ليستحق هذا الأمر العظيم غيره لأنه لم يتعبد قط لأحد غير الله، وكل من عاداه حصل منهم تعبد لغيره في الجملة، فكان أحق الخلق بهذا الوصف مع أنه كان يتعبد لله في غار حراء وغيره، وهذه النزلة– والله أعلم– كانت على هذا التقدير في أول الوحي لما كان بحراء وفرق منه صلى الله عليه وسلم فرجع ترجف بوادره، وقال: زملوني زملوني. وأشار إلى عظمة ما أنزل بقوله: {ما أوحى *} أي إنه يجل عن الوصف فأجمل له ما فصل له بعد ذلك، هذا الذي ذكر من تفسير لضمائر مظاهر العبارة وإن كان الإضمار في جميع الأفعال لا يخلو عن التباس وإشكال، ويمكن لأجل احتمال الضمائر لما يناسبها من الظواهر أن يكون ضمير {دنا} وما بعده لله تعالى، وحينئذ يصير في {عبده} واضحاً كما تقدم في هذا الوجه جعله له سبحانه لأنه لا يجوز لغيره، روى البخاري في التوحيد في باب {وكلم الله موسى تكليماً} عن أنس رضي الله عنه في قصة الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة «أنه جاءه ثلاثة

نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم»: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم، وكانت تلك الليلة، فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبرئيل عليه السلام فشق جبرئيل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب فيه نور من ذهب محشواً إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولغاديده- يعني عروق حلقه، ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها فناداه أهل السماء: من هذا؟ فقال: جبرئيل، قالوا: ومن معك، قال: معي محمد، قالوا: وبعث إليه، قال: نعم، قالوا: فمرحباً به وأهلاً- ثم ذكر عروجه إلى السماوات السبع، وأنه لما وصل إلى السماء السابعة علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى منه فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إليه فيما يوحي الله إليه خمسين صلاة- فذكر مشورة موسى عليهما السلام في سؤال التخفيف حتى صارت خمساً كل واحدة بعشرة، ودنا الجبار رب العزة في هذا الوجه وهو رب العزة «وهو في غاية الحسن إذا جمعته مع ما يأتي في هذا الوجه المنقول عن جعفر الصادق رضي الله عنه فيكون المعنى أنه صلى الله عليه وسلم لما استوى بالأفق الأعلى فوصل إلى حد لا يمكن المخلوق الصعود عنه تنزل له الخالق سبحانه، ولذلك عبر عنه ب {ثم}

يعني أنه ســـبحانه تنزل له تنزلاً لا يمكن الاطلاع على كنه رتبته في العلو والعظمة، ثم نزل ثم تنزل.

ولما كانت العبارة ربما أوهمت شيأ لا يليق به نفاه صلى الله عليه وسلم بما في الرواية من تخصيص التعبير باسم الجبار فعلم أنه قربه تقريباً يليق به، وسمى ذلك دنواً فكان الدنو والتدلي تمثيلاً لما وصل منه سبحانه إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم بغاية السهولة واليسر واللطافة مع اتصاله بالحضرات القدسية، والتعبير بالتدلي لإفهام العلو مثل ما كني بالنزول كل ليلة إلى سماء الدنيا عن إجابة الدعاء بفتح أبواب السماء كما رويناه في جزء العيشي من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه تمثيلاً بما نعرفه من حال الملوك في أن أحدهم يكون نزوله عن سريره أدنى في إتيان خواصه إليه، وفتح بابه أدنى لمن يليهم، وكلما نزل درجة كان الإذن أعم إلى أن يصل إلى الإذن العام لجميع الناس، هذا علم المخاطبين بأن ذلك على سبيل التمثيل بمن يحتاج إلى هذه الدرجات، وأما من هو غني عن كل شيء فله سبحانه المثل الأعلى ولا يشبه شيئاً، ولا يشبهه شيء، وفي {قرآن الفجر} من سورة سبحان لهذا مزيد بيان، وقال القاضي عياض في الشفاء ما حاصله أن تلك الضمائر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: قال جعفر بن محمد- يعني الصادق بن الباقر : أدناه ربه حتى كان منه كقاب قوسين، وقال أيضاً : انقطعت الكيفية عن الدنو، ألا ترى كيف حجب جبريل عليه السلام عن دنوه ودنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه وزال عن قلبه الشك

والارتياب، وقال جعفر أيضـــاً : والدنو من الله تعالى لا حد له، ومن العباد بالحدود- انتهى.

وحينئذ يكون ضـمير «اسـتوى» له صـلى الله عليه وسـلم، ويكون المعنى: فتسبب عن تعليم جبريل له استواوه- أي اعتدال علمه- إلى غاية لم يصلها غيره من الخلق علماً وكسباً بالملك والملكوت والحال أنه بالأفق الأعلى ليلة الإسراء، وتدليه كناية عن وصوله بسبب عظيم حامل السبب للمتدلي، وعبر بـه وهو ظـاهر في النزول من علو مع عـدم الانفصـــــال منـه لئلا يوهم اختصــاص جهة العلو به سـبحانه دون بقية الجهات، ومنه «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ســاجد» وكذا قيل في الإشــارة ب «لا تفضــلوني على يونس بن متى» ومن المحاســن جداً أن تكون ألف {تدلى} المقلبة عن ياء في هذا الوجه بدلاً من لام فيكون من التدلل وهو الانبســاط وثوقاً بالمحبة، يقال: تدلل عليه، أي انبسط ووثق بمحبته فأفرط عليه، وانبساطه صلى الله عليه وسلم في تلك الحالة إفراط كثرة سؤاله، وشفاعته في أمته، وبذلك ظهر إلى عالم الشـهادة أنه أرحم الخلق كما كان معلوماً إلى عالم الغيب، فتسبب عنه زيادة تقريبه حتى كان قاب قوسـين أو أدنى، وإبراز هذا الكلام في هذه الضــمائر المتحملة لهذه الوجوه من غير ظاهر يعين المراد يناســب لتلك الحالة، فإنها كانت حالة غيب وخفاء وستر، وكان العلم فيها واسعاً، وسوق الضــمائر هكذا يكثر احتمال الكلام للوجوه، فيتســع العلم مع أنه ليس فيها وجه يؤدي إلى لبس في الدين ولا ركاكة في معنى ولا نظم ولا مجال للعلم- والله أعلم.

▲ تفسير الآيات رقم [11- 18]

{مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11)

أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12)

وَلَقَدْ رَآَهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13)

عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14)

عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15)

إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16)

مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17)

لَقَدْ رَأَى مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)}

ولما أثبت هذا الكلام ما أثبت من القرب من النبي صلى الله عليه وسلم ممن أوحى إليه على كلا التقديرين، قرره على وجه أفاد الرؤية فقال : {ما كذب الفؤاد} أي القلب الذي هو في غاية الذكاء والاتقاد {ما رأى} البصر أي حين رؤية البصر كان القلب، لا أنها رؤية بصر فقط تمكن فيها- للخلو- عن حضور القلب- النسبة إلى الغلط، وقال القشيري ما معناه: ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه بصره، بل رآه على الوصف الذي علمه قبل أن رآه فكان علمه حق اليقين، وفي صحيح مسلم «عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم» هل رأيت ربك؟ قال: نور إليّ أراه «، وفي صحيح مسلم أيضاً» عن مسروق أنه قال لعائشة رضي الله عنها لما أنكرت الرؤية: ألم يقل الله تعالى {ولقد رآه بالأفق المبين} و{لقد رآه نزلة أخرى} فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول

الله صــلى الله عليه وسـلم فقال: «إنما هو جبرئيل عليه السـلام، لم أره على صـورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السـماء سـاداً عظم خلقه ما بين السـماء والأرض» قال البغوي: وذهب جماعة إلى أنه رآه فقال بعضــهم: جعل بصــره في فؤاده، ثم روي من صــحيح مسـلم عن ابن عباس رضـي الله عنهما أنه قال: «رآه بفؤاده مرتين» وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس رضـي الله عنه، وقال ابن برجان ما معناه: إن النوم والصـــعق من آيات الله على لقاء الله وهي مقدمات لذلك، ولكل حقيقة حق يتقدمها كأشـراط السـاعة، والإسـراء وإن لم يكن موتاً ولا صـعقاً ولا نوماً على أظهر الوجوه فقد خرج عن مشـاهدات الدنيا إلى مشـاهدات الأفق الأعلى فلا تنكر الرؤية هنالك، فالإســـراء حالة غير حالة الدنيا، بل هي من أحوال الآخرة وعالم الغيب- والله الهادي.

ولما تقرر ذلك غاية التقرر، وكان موضــع الإنكار عليهم، قال مســبباً عن ذلك: {أفتمارونه} أي تستخرجون منه بجدالكم له فيما أخبركم به شكاً فيه ولا شــك فيه، وعبر بالمفاعلة في قراءة الجماعة عن حمزة والكســائي ويعقوب إشـارة إلى اجتهادهم في تشكيكه، من مري الشـيء: استخرجه، ومري الناقة: مسـح ضـرعها، فأمرى: در لبنها، والمرية بالكسـر والضـمر: الشـك والجدل {على ما يرى *} على صــفة مطابقة القلب والبصــر، وذلك مما لم تجر العادة بدخول الشك فيه ولا قبوله للجدال، وزاد الأمر وضوحاً بتصوير الحال الماضـية بالتعبير بالمضـارع إشـارة إلى أنه كما لم يهم لم يلبس الأمر عليه، بل كأنه الآن ينظر.

ولما كان الشـيء أقوى ما يكون إذا حسر البصـر، فإذا وافقه كون القلب في غاية الحضور كان أمكن، فإذا تكرر انقطعت الأطماع عن التعلق بالمجادلة منه، قال مؤكداً لأجل إنكارهم: {ولقد رآه} أي الله تعالى أو جبرئيل عليه السلام على صورته الحقيقية، روى مسلم في الإيمان عن عبد الله بن عباس رضـي الله عنهما قال {ما كذب الفؤاد ما رأى} {ولقد رآه نزلة أخرى}، قال: «رآه بفؤاده مرتين» وجعل ابن برجان الإسـراء مرتين: الأولى بالفؤاد مقدمة وهذه بالعين.

ولما كان ذلك لا يتأتي إلا بتنزل يقطع مسـافات البعد التي هي الحجب ليصير به بحيث يراه البشر، عبر بقوله: {نزلة} وانتصب على الظرفية لأن الفعلة بمعنى المرة {أخرى} أي ليكمل له الأمر مرة في عالم الكون والفساد وأخرى في المحل الأنزه الأعلى، وعين الوقت بتعين المكان فقال: {عند سـدرة المنتهى *} أي الشـجرة التي هي كالسـدر وينتهي إليها علم الخلائق وينتهي إليها ما يعرج من تحت وما ينزل من فوق، فيتلقى هنالك، وذلك- والله أعلم- ليلة الإسـراء في السـنة الثالثة عشـرة من النبوة قبل الهجرة بقليل بعد الترقي في معراج الكمالات من السـنين على عدد السـماوات وما بينهما من المسافات، فانتهى إلى منتهى يسمع فيه صريف الأقلام، وعظمها بقوله: {عندها} أي السدرة {جنة المأوى *} الذي لا مأوى في الحقيقة غيره لأنه لا يوازي في عظمه، وزاد في تعظيمها بقوله: {إذ يغشـى السدرة ما يغشـى *} أي يغطيها ويركبها وسـمره؟ من فراش الذهب والرفرف الأخضـر والملائكة والنبق وغير ذلك فإن الغشـو النبق {ما يغشـى} لا تحتملون وصـفه وهو

بحيث يكاد أن لا يحصى، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث: «وغشيها، ألا وإني لا أدري ما هي فليس أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها» أو كما قال صلى الله عليه وسلم، وأكد الرؤية وقررها مستأنفاً بقوله: {ما زاغ} أي ما مال أدنى ميل {البصر} أي الذي لا بصر لمخلوق أكمل منه، فما قصر عن النظر فيما أذن له فيه ولا زاد {وما طغى *} أي تجاوز الحد إلى ما لم يؤذن له فيه مع أن ذلك العالم غريب عن بني آدم، وفيه من العجائب ما يحير الناظر، بل كانت له العفة الصادقة المتوسطة بين الشره والزهادة على أتم قوانين العدل، فأثبت ما رآه على حقيقته، وكما قال السهروردي في أول الباب الثاني والثلاثين من عوارفه: وأخبر تعالى بحسن أدبه في الحضرة بهذه الآية، وهذه غامضة من غوامض الأدب، اختص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولما كانوا قد أنكروا الإسراء إنكاراً لم يقع لهم في غيره مثله، زاد في تأكيده على وجه يعم غيره فقال: {لقد رأى} أي أبصر بسبب ما أهلناه له من الرسالة إبصاراً سارياً إلى البواطن غير مقتصر على الظواهر {من آيات ربه} أي المحسن إليه بما لم يصل إليه أحد قبله ولا يصل إليه أحد بعده، ومن ادعى ذلك فهو كافر {الكبرى *} من ذلك ما رآه في السماوات من الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام إشارة بكل شيء إلى أمر دقيق جليل وحالة شريفة، وقال الإمام أبو القاسم السهيلي في الروض الأنف: والذي أقول في هذا أن مأخذ فهمه من علم التعبير، فإنه من علم النبوة، وأهل التعبير يقولون: من رأى نبياً بعينه في المنام فإن رؤياه تؤذن بما يشبه من

حال ذلك النبي في شـــده أو رخاء أو غير ذلك من الأمور التي أخبر بها عن الأنبياء في القرآن والحديث، وحديث الإســراء كان بمكة، ومكة حرم الله وأمنه، وقطانها جيران الله لأن فيها بيته، فأول ما رأى صـلى الله عليه وسلم من الأنبياء عليهم الصـلاة والسـلام آدم عليه الصـلاة والسـلام الذي كان في أمن الله وجواره، فأخرجه إبليس عدوه منها، وهذه القصـــة تشـــبهها الحالة الأولى من أحوال النبي صـلى الله عليه وسـلم حين أخرجه أعداؤه من حرم الله وجوار بيته، فكربه ذلك وغمه فأشـبهت قصـته في هذا قصـة آدم عليه الصـــلاة والســـلام مع أن آدم تعرض عليه أرواح ذريته البر والفاجر منهم، فكان في السماء الدنيا بحيث يرى الفريقين لأن أرواح أهل الشقاء لا تلج في السـماء ولا تفتح لهم أبوابها، كما قال الله تعالى، ثم رأى في الثانية عيســى ويحيى عليهما الصــلاة والســلام وهما الممتحنان باليهود، أما عيســى عليه الســـلام فكذبته اليهود وآذته وهموا بقتله فرفعه الله إليه، وأما يحيى عليه السلام فقتلوه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انتقاله إلى المدينة صار إلى حالة ثانية من الامتحان، وكانت محنته فيها باليهود آذوه وظاهروا عليه وهموا بإلقاء الصــخرة عليه لقتلوه فنجاه الله كما نجى عيســى عليه الســلام منهم، ثم سـموه في الشــاة ولم تزل تلك الأكلة تعاوده حتى قطعت أبهره كما قال عند الموت وهكذا فعلوا بابني الخالة يحيى وعيسى لأن أم يحيى أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران أمهما جنة، وأما لقاؤه ليوســـف عليه الســلام في الســماء الثالثة فإنه يؤذن بحالة ثالثة تشـبه حالة يوسـف عليه

السـلام، وذلك أن يوسـف ظفر بإخواته من بعد ما أخرجوه من بين ظهرانيهم فصفح عنهم وقال

{لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم} [يوسف: 92] الآية، وكذلك نبينا صلى الله عليه وسـلم أسـر يوم بدر جملة من أقاربه الذين أخرجوهم فيهم عمه العباس وابن عمه عقيل فمنهم من أطلق، ومنهم من قبل أفديته، ثم ظهر عليهم بعد ذلك عام الفتح فجمعهم فقال لهم:

»أقول ما قال أخي يوسـف : لا تثريب عليكم اليوم« ثم لقاؤه إدريس عليه السلام في السماء الرابعة وهو المكان الذي سماه الله مكاناً علياً وإدريس أول من آتاه الله الخط بالقلم، فكان ذلك مؤذناً بالحالة الرابعة وهو علو شـأنه عليه السـلام حتى أخاف الملوك وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته حتى قال أبو سفيان وهو عند ملك الروم حين جاء كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ورأى ما رأى من خوف هرقل: لقد أُمِرَ أمرُ ابن أبي كبشـة حتى أصـبح يخافه ملك بني الأصـفر، وكتب عنه بالقلم إلى جميع ملوك الأرض فمنهم من اتبعه على دينه كالنجاشي وملك بني عمان ومنهم من هادنه وأهدى إليه وأتحفه كهرقل والمقوقس، ومنهم من تعصـى عليه فأظهره الله عليه، فهذا مقام علي، وخط بالقلم كنحو ما أوتي إدريس عليه السلام، ولقاؤه في السماء الخامسـة لهارون عليه السـلام المحبب في قومه يؤذن بحب قريش وجميع العرب له بعد بعضهم فيه، ولقاؤه في السماء السادسة لموسى عليه السلام يؤذن بحالة تشبه حالة موسى عليه السـلام حين أمر بغزو الشـام، فظهر على الجبابرة الذين كانوا فيها، وأدخل بني إسرائيل البلد الذي خرجوا منه بعد

هلاك عدوهم، ولذلك غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك من أرض الشام وظهر على صاحب دومة حتى صالحه على الجزية بعد أن أتى به أسيراً، وافتتح مكة ودخل أصحابه البلد الذي خرجوا منه، ثم لقاؤه في السماء السابعة إبراهيم عليه السلام لحكمتين: إحداهما أنه رآه عند البيت المعمور مسنداً ظهره إليه، والبيت المعمور جبال مكة، وإليه تحج الملائكة كما أن إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى الكعبة وإذن في الناس بالحج إليها، والحكمة الثانية أن آخر أحوال النبي صلى الله عليه وسلم حجه إلى البيت الحرام، وحج معه في ذلك العام نحو من سبعين ألفاً من المسلمين، ورؤية إبراهيم عليه السلام عند أهل التأويل تؤذن بالحج لأنه الداعي إليه والرافع لقواعد الكعبة المحجوجة- انتهى. وهذا المقام هو الإسراء وما تفرع منه الموصل إلى أعلى ما يكون من تجريد التوحيد، فجعل سبحانه عنوانه المفروض فيه الحاجز بين الإسلام والشرك وهو الصلاة الجامعة لمعاني الدين الشاملة لجميع البركات بأن جعلت خمسين مستغرقة لجميع الفراغ ثم ردت إلى خمس دون القوى بكثير ثم رتب عليها جزاء الخمسين ورفع كل واحدة من صلاة الجماعة إلى سبع وعشرين صلاة وفضل صلاتي الطرفين: الصبح الثنائية والعصر الرباعية بشهادة فريقي الملائكة وكتابتهما في صحيفتي كل من الجمعين، فقال حمزة الكرماني في جوامع التفسير: فأسري به في شهر ربيع الأول قبل الهجرة من بيت أم هانئ رضي الله عنها، ثم ساق حديث الإسراء مساقاً عجيباً جداً طويلاً.

▲ تفسير الآيات رقم [19- 22]

{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19)

وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20)

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21)

تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (22)}

ولما أخبر سبحانه من استقامة طريق نبيه عليه الصلاة والسلام مما ثبتت رسالته بما أوحي إليه وما أراه من آياته التي ظهر بها استحقاقه سبحانه الإلهية متفرداً بها، سبب عنه الإنكار عليهم في عبادة معبوداتهم على وجه دال على أنها لا تصلح لصالحة فقال: {أفرأيتم} أي أخبروني بسبب ما تلوت عليكم من هذه الآيات الباهرات . هل رأيتم رؤية خبرة بالباطن والظاهر {اللاّت} وهو صنم ثقيف {والعزى} وهي شجرة لغطفان وهما أعظم أصنامهم فإنهم كانوا يحلفون بهما {ومناة} وهو صخرة لهذيل وخزاعة، ودل على أنها عندهم بعدهما في الربوبية بقوله مشيراً بالتعدد بالتعبير عنه بما عبر به إلى أن شيئاً منها لا يصلح لصالحة حتى ولا أن يذكر : {الثالثة الأخرى *} أي إنه ما كفاهم في خرق سياج منها العقل في مجرد تعديد الإله بجعله الاثنين حتى أضافوا ثالثاً أقروا بأنه متأخر الرتبة فكان الإله عندهم قد يكون سافلاً ويكون ملازماً للإنزال وللسفول بكونه أنثى، قال الرازي في اللوامع : وأنثوا أسماءها تشبيهاً لها بالملائكة على زعمهم بأنها بنات الله- انتهى، ولا شك عند من له أدنى معرفة بالفصاحة أن هذا الاستفهام الإنكاري والتعبير بما شأنهم بالولادة التي هي أحب الأشياء إلى الإنسان بل الحيوان لا يوافقه أن

يقال بعده ما يقتضـي مدحاً بوجه في الوجوه، فتبين بطلان ما نقل نقلاً واهياً من أنه قيل حين قرئت هذه السورة في هذا المحل: تلك الغرانيق العلا- إلى آخره لعلم كل عربي أن ذلك غاية في الهذيان في هذا السـياق، فلا وصـلة بهذا السياق المعجز بوجه.

ولما كان التقدير بما أفهمه السـياق، كيف ادعيتم أنها آلهة أهي كذلك مع أن عادتكم احتقار الإناث من أن تكون لكم أولاداً، فكيف رضـيتم أن تكون لكم آلهة، وتكونوا لها عباداً مع أنها لم تنزل لكم وحياً ولا أرسلت لكم رسولاً ولا فعلت مع أحد منكم شيئاً مما كرمنا به عبدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ولا أرتكم قط آية ولا هي متأهلة لشـيء من ذلك، بل لا تملك ضـراً ولا نفعاً وادعيتم أنها بناته واسـتوطنها جنيات هي بناته وادعيتم مع ادعاء مطلق الولدية لمن لا يلم به حاجة ولا شبه له أن له أردأ الصنفين، فكان ذلك نقصاً مضـموماً إلى نقص- وعلا سبحانه تعالى عن صحابة أو ولد، فاستحققتم بذلك الإنكار الشـديد، وعلم بهذا التقدير الذي هدى إليه السـياق بطلان حديث الغرانيق ولا سـيما مع تعقيبه بقوله: {ألكم} أي خاصـة {الذكر} أي النوع الأعلى {وله} أي وحده {الأنثى *} أي النوع الأسفل.

ولما كان الاسـتفهام إنكارياً رد الإنكار بقوله فذلكة لفعلهم: {تلك} أي هذه القسمة البعيدة عن الصواب {إذاً} أي إذ جعلتم البنات له والبنين لكم {قسمة ضـيزى *} أي جائرة ناقصـة ظالمة فيما يحسـن للحق للغاية عرجاء غير معتدلة حيث خصصتم به ما أوصلتكم الكراهة له إلى دفنه حياً، وقد علم أن الآية من الاحتباك: دل ذكر اسـمها في أسـلوب الإنكار على حذف إنكار

كونها آلهة وإنكار تخصيصة بالإناث على حذف ما يدل على أنهم جعلوها بناته.

▲ تفسير الآيات رقم [23- 28]

{إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (23) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (24)

فَلِلَّهِ الْآَخِرَةُ وَالْأُولَى (25)

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (26)

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (27)

وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (28)}

ولما أفهم هذا الإنكار بطلان قولهم هذا، حصر القول الحق فيها فقال مستأنفاً: {إن} أي ما {هي} أي هذه الأصنام {إلا أسماء} أي لا حقائق لها، فما ادعيتم لها من الإلهية ليس لها من ذلك إلا الأسماء، وأكد ذلك بقوله مبيناً: {سميتموها} أي ابتدعتم تسميتها أنتم، واجتث قولهم من أصله فقال: {أنتم وآباؤكم} أي لا غير بمجرد الهوى لم تروا منها آية ولا كلمتكم قط كلمة تعتدونها، وعلى تقدير أن تتكلم الشياطين على ألسنتها فأي طريقة قويمة شرعت لكم وأي كلام مليح أو بليغ وصل إليكم وأي آية كبرى أرتكموها- انتهى.

ولما علم بهذا أن الله تعالى لم يأمرهم بشـــيء من ذلك، صـــرح به نافياً أن يدل على ما وســموه به دليل فقال: {ما} ولما قدم في الأعراف ترك النافي للتدريج لما تقدم بما اقتضاه، نفى هنا الإفعال النافي لأصل الفعل سواء كان بالتدريج أو غيره لأن المفصل لباب القرآن فهو للمقاصد، وذلك كاف في ذم الهوى الذي هو مقصــود الســورة فقال: {أنزل الله} الذي له جميع صــفات الكمال {بها} أي بالاســتحقاق للأســماء ولا لما وســمتموها به من الإلهية، وأعرق في النفي بقوله: {من سلطان} أي حجة تصلح مسلطاً على ما يدعي فيها.

ولما كان هذا النفي المســتغرق موجباً للخصــم إيســاع الحيلة في ذكر دليل على أي وجه كان، وكان هؤلاء قد أبلســوا عند ســماع هذا الكلام ولم يجدوا ما يقولون ولا يجدوا، فكان من حقهم أن يرجعوا فلم يرجعوا، أعرض عنهم إيذاناً بشديد الغبن قائلاً: {إن} أي ما {يتبعون} أي في وقت من الأوقات في أمر هذه الأوثان بغاية جهدهم من أنها آلهة، وأنها تشــفع لهم أو تقربهم من الله {إلا الظن} أي غاية أمرهم لمن يحســـن الظن بهم، فالظن ترجيح أحد الجائزين على رغم الظان.

ولما كان الظن قد يكون موافقاً للحق مخالفاً للهوى قال: {وما تهوى الأنفس} أي تشتهي، وهي- لما لها من النقص- لا تشتهي أبداً إلا بما يهوي بها عن غاية أوجها إلى أسفل حضيضها، وأما المعالي وحسن العواقب فإنما تشوق إليها العقل، قال القشيري: فالظن الجميل بالله فليس من هذا الباب، والتباس عواقب الشــخص عليه ليس من هذه الجملة بســبيل، إنما الظن المعلول في

الله وصـــفاته وأحكامه. {ولقد} أي العجب أنهم يفعلون ذلك والحال أنه قد {جاءهم من ربهم} أي المحســن إليهم {الهدى *} أي الكامل في بابه إلى الدين الحق الناطق بالكتاب الناطق بالصواب على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم، والرأي يقتضي أن من رأى الهدى تبعه ولو أتاه به عدوه، فكيف إذا أتاه به من هو أفضل منه من عند من إحسانه لم ينقطع عنه قط.

ولما كان التقدير: أعليهم أن يتركوا أهويتهم ويهتدوا بهدى ربهم الذي لا ملك لهم معه {أم} لهم ما تمنوا– هكذا كان الأصل، ولكنه ذكر الأصل الموجب لاتباع الهوى فقال: {للإنسـان} أي الآنس بنفسـه المحسـن لكل ما يأتي وما يذر {ما تمنى *} أي من اتباع ما يشـــتهي من جاه ومال وطول عمر ورفاهية عيش ومن كفره وعناده، وقوله {لئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى} [فصلت: 50].

ولما كان الاستفهام إنكارياً، كان المعنى: ليس له ما تمنى، وكان ذلك دليلاً قطعياً على أنه مربوب مقهور ممن له الأمر كله، فسـبب عنه قوله: {فللّه} أي الملك الأعظم وحده. ولما كانت الأخرى دار اللذات وبلوغ جميع الأماني وحرمانها، وكانوا يدعون فيها على تقدير كونها جميع ما يتمنون من شـفاعة آلهتهم وإجابتها إلى إسـعادهم ونحو ذلك، قدم قوله: {الآخرة} فهو لا يعطي الأماني فيها إلا لمن تبع هداه وخالف هواه {والأولى *} فهو لا يعطي جميع الأماني فيها لأحد أصـلاً كما هو مشـاهد، فمن ترك هواه فيها نال أمانيه في الآخرة، فلهذا قدمها لا للفاصلة فإنه لو قيل «الأخرى» لصلحت للفاصلة.

ولما كان التقدير: فكم من شخص ترونه في الأرض مع أنه في غاية المكنة فيما يظهر لكم لا يصـــل إلى ربع ما يتمناه، عطف عليه قوله، مظهراً لضـــخامة ملكه وأنه لا يبالي بأحد، دالاً على الكثرة: {وكم من ملك} أي مقرب، ودل على زيادة قربه بشرف مسكنه فقال: {في السماوات} أي وهم في الكرامة والزلفى {لا تغني} أي لا تجزي وتسد وتكفي، ولما كان رد الجمع لحال اجتماعهم أدل على العظمة، عبر بما يحتمل ذلك فقال: {شـفاعتهم} أي عن أحد من الناس {شيئاً} فقصر الأمر ورده بحذافيره إليه بقوله: {إلا} ودل باثبات الجار على أنه مع ما يحده سبحانه لا مطلقاً فقال: {من بعد أن يأذن} أي يمكن ويريد {الله} أي الذي لا أمر لأحد أصـــلاً معه، وعبر بأن والفعل دلالة على أنه لا عموم بعد الإذن بجميع الأوقات، وإنما ذلك يجدد بعد تجدد الإذن على حينه وقبل الأمر الباب؟ لعموم العظمة بقوله: {لمن يشاء} أي بتجدد تعلق مشيئته به لأن يكون مشفوعاً أو شافعاً.

ولما كان الملك قد يأذن في الشفاعة وهو كاره، قال معلماً أنه ليس كأولئك: {ويرضى *} فحينئذ تغني شفاعتهم إذا كانوا من المأذون لهم- كل هذا قطعاً لأطماعهم وعن قولهم بمجرد الهوى أي آلهتهم تشـــفع لهم. ولما أخبر باتباعهم للهوى ونفى أن يكون لهم من ذلك ما يتمنونه دل على اتباعهم للهوى بقوله موضـع {أنهم}: {إن الذين} وأكد تنبيهاً على أنه قول بالغ في العجب الغاية فلا يكاد يصـــدق أن عاقلاً بالآخرة يقوله بما جرى لهم على قولهم ذلك وأمثاله بقوله: {لا يؤمنون} أي لا يصـــدقون ولا هم يقرون {بالآخرة} ولذلك أكد قوله: {ليسمون الملائكة} أي كل واحد وهم رسل الله

{تسـمية الأنثى} بأن قالوا: هي بنات الله، كما يقال في جنس الأنثى: بنات {وما} أي والحال أنهم ما {لهم به} أي بما ســـموهم به، وأعرق في النفي بقوله: {من علم} ولما نفى علمهم تشوف السامع إلى الحامل لهم على ذلك فقال: {إن} أي ما {يتبعون} أي بغاية ما يكون في ذلك وغيره {إلا الظن}.

ولما كانوا كالقاطعين بأن ذلك ينفعهم، أكد قوله: {وإن الظن} أي مطلقاً في هذا وغيره، ولذلك أظهر في موضـع الإضـمار {لا يغني} إغناءً مبتدئاً {من الحق} أي الأمر الثابت في نفس الأمر الذي هو حقيقة الشـيء وذاته بحيث يكون الظن بدله، والظن إنما يعبر به في العمليات لا العلميات ولا ســـيما الأصــولية {شــيئاً} من الإغناء عن أحد من الخلق فإنه لا يؤدي أبداً إلى الجزم بالعلم بالشيء على ما هو عليه في نفس الأمر فهو ممنوع في أصول الدين، فإن المقصــود بتحقق الأمر على ما هو عليه في الواقع، وأما الفروع فإن المكلف بـه فيهـا هو الظن لكن بشـــرطـه المـأذون فيـه، وهو رده إلى الأصـول المستنبط منها لعجز الإنسـان على القطع في جميع الفروع، تنبيهاً على عجزه وافتقاره إلى الله ليقبل عليه ويتبرأ من حوله وقوته ليكشـف لـه من الأحقاف.

▲ تفسير الآيات رقم [29– 32]

{فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29)

ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (30)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31)

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32)}

ولما كانوا بعد مجيء الهدى قد أصبروا على الهوى، وكانت هذه السورة في أوائل ما نزل، والمؤمنون قليل، سبب عن ذلك: {فأعرض عن من تولى *} أي كلف نفسه خلاف ما يدعو إليه العقل والفطرة من ولى {عن ذكرنا} أي ذكره إيانا، فأعرض عن الذكر الذي أنزلناه فلم ينله ولم يتدبر معانيه فلا يلتفت إلى شـــيء علمه فإنه مطموس على قلبه ولو كان ذهنه أرق من الشعر فإنه لا يؤول إلا إلى شر {ولا تذهب نفسك عليهم حسرات} [فاطر: 8] فإنه ما عليك إلا البلاغ.

ولما كان المعرض في وقت قد يقبل في آخر، دل على دوامه على وجه بليغ بقوله: {ولم يرد} أي في وقت من الأوقات {إلا الحياة الدنيا *} أي الحاضرة ليقصده بالمحسوسات كالبهائم في العمى عن دناءتها وحقارتها، ثم ترجم جملتي الإعراض والإرادة بقوله: {ذلك} أي الأمر المتناهي في الجهل

والقباحة {مبلغهم} أي نهاية بلوغهم وموضع بلوغهم والحاصل لهم، وتهكم بهم بقوله: {من العلم} أنه لا علم لهم لأن عيون بصائرهم عمي، ومرائبها كثيفة مظلمة لا تكشف عن نظر الآخرة التي هي أصل العلوم كلها، ثم علل هذه الجملة بقوله مؤكداً قطعاً لطمع من يظن أن وعظه وكلامه يرد أحداً من غيه وإن أبلغ في أمره ودعائه في سره وجهره، وإعلاماً بأن ذلك إنما هو من الله، فمن وعظ له سبحانه راجياً منه في إيمانه أوشك أن ينفع به كما فعل في وعظ مصعب بن عمير رضي الله عنه فصغى له أسيد بن حضير وسعد بن معاذ رضي الله عنهما في ساعة واحدة كما هو مشهور {إن ربك} أي المحسن إليك بالإرسال وغيره {هو} أي وحده {أعلم بمن ضل عن سبيله} ضلالاً مستمراً، فلا تعلق أملك بأن يصل علمه إلى ما وراء الدنيا، وعبر بالرب إشارة إلى أن ضلال هذا من الإحسان إليه صلى الله عليه وسلم لأنه لو دخل في دنيه لأفسد أكثر مما يصلح كما قال تعالى: {ولا أوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم} [التوبة: 47] وذلك لأنه جبل جبلة غير قابلة للخير {وهو} أي وحده {أعلم بما اهتدى *} أي ظاهراً وباطناً.

ولما كان هذا ربما أوهم أن من ضل على هذه الحالة ليس في قبضه، قال نافعاً لهذا الإبهام مبيناً أن له الأسماء الحسنى ومقتضياتها في العالم موضع «والحال أنه له» أو عطفاً على ما تقديره: فللّه من في السماوات ومن في الأرض: {ولله} أي الملك الأعظم وحده {ما في السماوات} من الذوات والمعاني فيشمل ذلك السماوات والأراضي، فإن كل سماء في التي تليها،

والأرض في السـماء {وما في الأرض} وكذلك الأراضــي والكل في العرش وهو ذو العرش العظيم.

ولما أمره صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم وسلاه وأعلمه أن الكل في ملكه، فلو شــاء لهداهم ورفع النزاع، ولكنه له في ذلك حكم تحار فيها الأفكار، علل الإعراض كما تقدم في الجاثية في قوله: {قل للذين آمنوا يغفروا} [الجاثية: 14] بقوله: {ليجزي} أي يعاقب هو سبحانه كافياً لك ما أهمك من ذلك، ويجوز أن يكون التقدير: وكما أنه سـبحانه مالك ذلك فهو ملكه ليحكم بجزاء كل على حسـب ما يسـتحق، فإن الحكم نتيجة الملك {الذين أساؤوا} بالضلال {بما عملوا} أي بسببه وبحسبه إما بواسطتك وبسـيوفك وسـيوف أتباعك إذا أذنت لكم في القتال، وإما بغير ذلك بالموت حتف الأنف بضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم، ثم بعذاب الآخرة على جميع ذنوبهم من غير أن يكون عجل لهم في الدنيا شـيء ينقص بسـببه عذاب الآخرة {ويجزي} أي يثبت ويكرم {الذين أحسنوا} أي على ثباتهم على الدين وصـبرهم عليه وعلى أذى أعدائهم {بالحسـنى *} أي الثبوت الذي هو في غاية الحسن ما بعدها غاية، فإن الحسنى تأنيث الأحسن.

ولما وعد الذين وقع منهم الإحسـان، وصـفهم فقال: {الذين يجتنبون} أي يكلفون أنفسهم ويجهدونها على أن يتركوا {كبائر الإثم} أي ما عظم الشارع إثمه بعد تحريمه بالوعيد والحد، وعطف على {كبائر الإثم} قوله: {والفواحش} والفاحشة من الكبائر ما يكرهه الطبع وينكره العقل ويستخسّه.

ولما أفهم هذا التقييد أن من خالط ما دون كان مغفوراً له، صـــرح به فقال: {إلا} أي لكن {اللمم} معفو، فمن خالطه لا يخرج عن عداد من أحسن، فهو اسـتثناء منقطع، ولعله وضـع فيه {إلا} موضـع {لكن} إشـارة إلى الصـغير يمكن أن يكون كبيراً باستهانته مثلاً كما قال تعالى {وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم} [النور: 15] واللمم هو صـغار الذنوب، والمراد هنا ما يحصـل منها في الأحيان كأنه وقع في صـــحابه فلتة بغير اختيار منه، لا ما يتخذ عادة أو يكثر حتى يصـير كالعادة، قال الرازي في اللوامع: وأصـله مقاربة الذنب ثم الامتناع منه قبل الفعل، قال ذو النون: ذكر الفاحشـة من العارف كفعلها من غيره– انتهى. يقال: وألم بالمكان– إذا قل لبثه فيه، وقال البغوي: قال السدي: قال أبو صـالح أنه سئل عن اللمم فقال: هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده، قال: فذكرت ذلك لابن عباس رضـــي الله عنهما فقال: لقد أعانك عليها ملك كريم، ثم قال البغوي: فأصـــل الملم والإلمام ما يعمله الإنسان الحين بعد الحين، ولا يكون له إعادة ولا إقامة عليه– انتهى– وعلى هذا يصح أن يكون الاستثناء متصلاً.

ولما كان الملوك لا يغفرون لمن تكررت ذنوبه إليهم وإن صـــغرت، فكان السـامع يسـتعظم أن يغفر ملك الملوك سـبحانه مثل هذا، علل ذلك بقوله: {إن ربك} أي المحسـن إليك بإرسـالك رحمة للعالمين والتخفيف عن أمتك {واسع المغفرة} فهو يغفر الصـغائر حقاً أوجبه على نفسه ويغفر الكبائر إن شـــاء بخلاف غيره من الملوك فإنه لو أراد ذلك ما أمكنه اتباعه، ولو جاهد

حتى تمكن من ذلك في وقت فسـدت مملكته فأدى ذلك إلى زوال الملك من يده أو اختلاله.

ولما وصف الذين أحسنوا فكان ربما وقع في وهم أنه لا يعلمهم سبحانه إلا بأفعالهم، وربما قطع من عمل بمضـمون الآية أنه ممن أحسـن، قال نافياً لذلك: {هو أعلم بكم} أي بذواتكم وأحوالكم منك بأنفسـكم {إذ} أي حين {أنشاكم} ابتداء {من الأرض} التي طبعها طبع الموت: البرد واليبس بإنشاء أبيكم آدم عليه السلام منها وتهيئتكم للتكوين بعد أن لم يكن فيكم تقوية قريبة ولا بعيدة أصلاً يميز الثواب الذي يصلح لتكونكم منه والذي لا يصلح {وإذ} أي حين {أنتم أجنة} أي مسـتورون. ولما كان البشـر قد يكون في بطن الأرض وإن كان الجنين معروفاً للطفل في البطن، حقق معناه بقوله: {في بطون أمهاتكم} بعد أن مزج بذلك التراب البارد اليابس الماء والهواء، فنشأت الحرارة والرطوبة، فكانت هذه الأربعة الأخلاط الزكية والدنية، ولكن لا علم لكم أصلاً، فهو يعلم إذ ذاك ما أنتم صائرون إليه من خير وشر وإن عملتم مدة من العمر بخلاف ذلك فإنه يعلم ما جبلكم عليه من ذلك وأنتم لا تعلمون إلا ما يكون في أنفسكم حال كونه أنكم لا تحيطون به إذ ذاك علماً.

ولما كان من عادة من سـلم من الذنوب أن يفتخر على من قارفها لما بني الإنسـان عليه من محبة الفخر لما جبل عليه من النقصـان، وكان حاله قد يتبدل فيسـبق عليه الكتاب فيشـقى، سـبب عن ذلك قوله: {فلا تزكوا} أي تمدحوا بالزكاة وهو البركة والطهارة عن الدناءة {أنفسكم} أي حقيقة بان يثني على نفسـه فإن تزكيته لنفسـه من علامات كونه محجوباً عن الله– قال

القشيري– أو مجازاً بأن يثني على غيره من إخوانه فإنه كثيراً ما يثني بشيء فيظهر خلافه، وربما حصــل له الأذى بســببه «وإن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع» الحديث، ولذلك علل بقوله: {هو أعلم} أي منكم ومن جميع الخلق {بمن اتقى} أي جاهد نفســه حتى حصــل فيه تقوى، فهو يوصــله فوق ما يؤمل من الثواب في الدارين، فكيف بمن صارت له التقوى وصفاً ثابتاً.

▲ تفسير الآيات رقم [33– 38]

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33)

وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (34)

أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (35)

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36)

وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37)

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38)}

ولما أمره ســبحانه بالإعراض عمن تولى عن التشــرف بذكر الملك الأعظم واللجاء إليه، ونهى عن التزكية للجهل بالعواقب، وكان قد ارتد ناس عن الإسلام، كان سبب ارتدادهم إخباره صلى الله عليه وسلم عن بعض ما رأى من الآيات الكبرى ليلة الإسراء، وكان لما نزلت عليه صلى الله عليه وسلم سجدة النجم وسجد فيها صلى الله عليه وسلم سجد معه– كما في البخاري– المســـلمون والمشـــركون والجن والإنس، ولم يكن في ظن أحد من الخلق انقلابهم على أدبارهم بعد حتى ولا في ظن المرتدين، ســبب عن ذلك قوله:

{أفرأيت} أي أخبروني {الذي تولّى *} أي عن ذكرنا بعد أن كان حريصاً عليه، يظن هو وأهله أنه عريق في أهله بإيمانه وأعماله في أيام إيمانه {وأعطى قليلاً وأكدى *} أي قطع ذلك العطاء على مكده وقلته وأبطله وأفسده فصار كالحافر الذي وصل في حفره إلى كدية، يقال لحافر البئر: أجبل- إذا وصل إلى جبل، وأكدى- إذا وصل إلى كدية أي صفاة عظيمة شديدة لا تعمل فيها المعاول، فصار لا يقدر معها على شيء من علمه، ولا يستطيع النفوذ فيها بشيء من حيله، وقد كان قبل ذلك لما صادف التراب الليل يظن أنه لا يمنعه مانع مما يريد، فهذا دليل خبري شهودي على أنه لا علم لأحد من الخلق بما حباه الله في نفسه فضلاً عن غيره، فلا ينبغي لأحد أن يزكي نفسه ولا غيره، قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة أسلم ثم ارتد لتعيير بعض المشركين له، وقوله له «ارجع وأنا أتحمل عنك العذاب» وهي تصلح لكل من ارتد ظاهراً أو نافق أو انهمك في المعاصي بعد إيمانه معرضاً عن الأعمال الصالحة.

ولما كان هذا- وقد وقع في خطر عظيم من إفساد العمل في الماضي وتركه في المستقبل فصار على خطأ عظيم في أحدهما- يتعلق بأصل الدين: الكفر والإيمان، وكان مثل هذا لا يفعله عاقل بنفسه إلا عن بصيرة، قال تعالى موبخاً له مقرعاً: {أعنده} أي خاصة {علم الغيب} أي كله بحيث لا يشاركه في مشارك يمكن أن يخفى عليه شيء منه {فهو} أي فيتسبب عن ذلك أنه {يرى *} أي الرؤية الكاملة فيعلم جميع ما ينفعه فيرتكبه وجميع

ما يضـــــره فيجتنبه ويعلم أن هذا القليل الذي أعطاه قد قبل وأمن به من العطب فاكتفى به.

ولما كان الغبي قد يظن أن عمل غيره ينفعه، عبر عنه جامعاً للوعظ والتهويل بقوله: {أم لم ينبأ} أي يخبر إخباراً عظيماً متتابعاً {بما في صحف موسى *} أي التوراة المنسوبة إليه بإنزالها عليه وكذا ما يتبعها من أسفار الأنبياء الذين جاؤوا بعده بتقريرها.

ولما قدم كتاب موســـى عليه الســـلام لكونه أعظم كتاب بعد القرآن مع أنه موجود بين الناس يمكن مراجعته، قال: {وإبراهيم} ومدحه بقوله دالاً بتشديد الفعل على غاية الوفاء: {الذي وفى} أي أتم ما أمر به وما امتحن به وما قلق شـــيئاً من قلق، وكان أول من هاجر قومه وصـــبر على حر ذبح الولد وكذا على حر النار ولم يستعن بمخلوق، وخص هذين النبيين لأن المدعين من بني إسرائيل اليهود والنصارى يدعون متابعة عيسى عليه السلام، ومن العرب يدعون متابعة إبراهيم عليه الســـلام، ومن عداهم لا متمســـك لهم ولا سلف في نبوة محققة ولا شريعة محفوظة، ثم فسر الذي في الصحف أو استأنف بقوله: {ألا تزر} أي تأثم وتحمل {وازرة} أي نفس بلغت مبلغاً تكون فيه حاملة {وزر أخرى *} أي حملها الثقيل من الإثم، يعني فمن يحمل عنه أثم أحد الشقين الذي لزمه فلا بد أن يكون آثماً وهما قبل التولي وما بعده.

▲ تفسير الآيات رقم [39– 48]

{وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39)
وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40)
ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41)
وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42)
وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43)
وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44)
وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45)
مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46)
وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (47)
وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48)}

ولما نفى أن يضـــره إثم غيره نفى أن ينفعه ســـعي غيره فقال : {وأن ليس للإنسان} كائناً من كان {إلا ما سعى *} فلا بد أن يعلم الحق في أي جهة فيســـعى، ودعاء المؤمنين للمؤمن ســـعيه بمواددته لهم ولو بموافقته لهم في الدين وكذا الحج عنه والصدقة ونحوهما، وأما الولد فواضح في ذلك، وأما ما كان لسبب العلم ونحوهما فكذلك، وتضحية للنبي صلى الله عليه وسلم في عزامته أصل كبير في ذلك، فإن من تبعه فقد وادده، وهذا أصل في التصدق عن الغير وإهداء ما له من الثواب في القراءة ونحوها.

ولما ثبت أنه ليس له ولا عليه إلا ما عمل، وكان في الدنيا قد يفعل الشـــيء من الخير والشـر ولا يراه من فعله لأجله ولا غيره نفى أن يكون الآخرة كذلك

بقوله: {وأن سعيه} أي من خير وشر {سوف} أي من غير شك بوعد لا خلف فيه وإن طال المدى.

ولما كان الاطلاع نفسه مرضياً أو مخزياً لا بالنسبة لأحد بعينه، بناه للمجهول بقوله: {يرى *} ولما كان المخوف منه المجازاة مطلقاً لا من مجاز معين قال: {ثم يجزاه} ولما كان في هذه الدار ربما وقعت المسامحة ببعض الأشياء والغفلة عن بعضها، قال: {الجزاء الأوفى *} أي الإتم الأكمل، إن كان خيراً فمع المضاعفة، وإن كان غيره فعلى السواء لمن أراد الله ذلك له ويعفو عن كثير، لكنه تذكرة له.

ولما كانت رؤية الأعمال لا تقطع برؤية المتوكلين بها من الملائكة أو غيرها ممن أقامه الله لذلك، وكان الرائي كلما كان أكثر كان الأمر أهول، وكان رؤية الملك الأعظم أخوف، قال عاطفاً على {لا تزر} مبيناً بحروف الغاية أن الرائين للأعمال كثير لكثرة جنوده سبحانه: {وأن إلى ربك} أي المحسن إليك لا غيره {المنتهى *} أي الانتهاء برجوع الخلائق حساً بالبعث ومعنى بالعمل والعلم، وإسناد الأمور وإرسال الآمال، ومكان رجوعهم وزمانه كما كان منه المبتدأ، أكد ذلك خلقاً لذلك كله وحساباً عليه، روى البغوي من طريق أبي جعفر الرازي عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قال «لا فكرة في الرب» قال: ومثل هذا ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنه لا يحيط به الفكرة» ورواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره»، هذا هو المراد

وهو واضـــح، فمن أول الآية باتحاد أو غير ذلك من الإلحاد فعليه لعنة الله وعلى الذاب عنه والساكت عنه.

ولما ذكر تعالى الأمور الاختيارية وقدمها لأنها محط للبلاء وســـلب علمها عن أصـحابها، وحذر من عاقبتها بإحاطته بكل شـيء، وكان معنى ذلك أنه القادر على غيره والعالم لا غيره، عطف عليه قوله ذاكراً للأمور الاضطرارية التي هي في غاية التنافي إكمالاً للدليل على أنه يعلم ما في النفوس دون أصـــحابها وغيرهم وأنه إليه المنتهى إعادة وإبداء، يوقف ما يشـــاء على ما يريد من الأســـباب التي تفعل بإذنه من الضـــحك أو البكاء وغيرهما من الأمور المنافية التي لولا الإلف لها لقضـى الإنسـان أن المتلبس بأحدهما لا يتلبس بضـده أصـلاً من غيرها {وأنه} ولما كانت التأثيرات الإدراكية تحال على أسـبابها، أكد الكلام فيها فقال: {هو} أي لا غيره {أضـحك وأبكى *} أي ولا يعلم أحد قبل وقت الضـحك أو البكاء أنه يضـحك أو يبكي ولا أنه يأتيه ما يعجبه أو يحزنه، ولو قيل له حالة الضـــحك أنه بعد ســـاعة يبكي لأنكر ذلك، وربما أدركه ما أبكاه وهو في الضحك وبالعكس.

ولما كانت الإماتة والإحياء أعظم تنافياً بما مضـــى، فكانت القدرة على إيجادها في الشـخص الواحد أعظم ما يكون، وكان ربما نسـب إلى من قتل داوى من مرض أو أطلق من وجب قتله، أكد فقال: {وأنه هو} أي لا غيره. ولما كان الإلباس في الموت أكبر، وكان الموت انســـب للبكاء، والإحياء أنسـب للضـحك، وكان طريق النشـر المشـوش أفصـح، قدمه فقال: {أمات

وأحيا *} وإن رأيتم أسباباً ظاهرية فإنه لا عبرة بها أصلاً في نفس الأمر بل هو الذي خلقها.

ولما كان ذكر الإحياء، وكان تصـــنيف الولد إلى نوعيه ظاهراً في اختصاصه، بل وهو في غاية التعذر على من سواه، أعراه عن مثل التأكيد في الذي قبله فقال: {وأنه خلق الزوجين} ثم فسرها بقوله: {الذكر والأنثى *} فإنه لو كان ذلك في غيره لمنع البنات لأنها مكروهة لكل أحد، ثم ذكر ما يظهر ولا بد أنه من صـنعه فتسـبب أن مادة الاثنين واحدة وهو الماء الذي هو أشـد الأشـياء امتزاجاً فقال: {من نطفة} وصـور كونها منها بقوله: {إذا تمنى *} أي تراق وتدفق بالفعل لا قبل ذلك ليمكن فيه طعن بأنه كان بدءاً أو غيره بل أنتم تعلمون أنه لا يخلق الولد إلا بعد الإمناء بالفعل، وخرج أصله ما يمكن خلقاً من خلق الله أن يعرف بمجرد رؤيته أهو صالح للأنثى فقط أو للذكر فقط أو لهما أو للأشكال بالخنوثة.

ولما سـاق هذه الأشـياء دليلاً على إحاطة علمه فلزمها أن دلت على تمام قدرته، وختمها بالنشــأة الأولى فلزم من ذلك الإقرار حتماً بأنه قادر على البعث، عبر بما يتقضي أنه لما تقدم به وعده على جميع ألسنة رسله صار واجباً عليه بمعنى أنه لا بد من كونه لأنه لا يبدل القول لديه، لا غير ذلك، فعبر بحرف الاسـتعلاء تأكيداً له رداً لإنكارهم إياه فقال: {وأن عليه} أي خاصاً به علماً وقدرة {النشأة} أي الحياة وهو ممدود لابن كثير وأبي عمرو ومقصور لغيرهما مصدر نشأ- إذا حنى وربى وسن {الأخرى *} أي التي ينشأ بها الخلق بعد أن يميتهم.

ولما كان الغنى والفقر من الأمور المتوسطة بين الاختيارية والاضطرارية له بكل الأمرين لسبب وكان مقسوماً بين الإناث والذكور بحكمة ربانية لا ينفع الذكر فيها قوته ولا يضـــر الأنثى ضـــعفها، وكان ذكر النشـــأة الآخرة كالمعترض إنما أوجب ذكر النشـــأة الأولى، تعقب ذكرهما به وكان ذكر الغنى مع أنه يدل على الفقر أليق بالامتنان، والنسبة إلى الرب، وكان الغنى الحقيقي إنما يكون في تلك الدار، أخر ذكره فقال : {وأنه} ولما كان ربما نسب إلى السعي وغيره، أكد بالفعل فقال: {هو} أي وحده من غير نظر إلى ســـعي ســـاع ولا غيره {أغنى} ولما كان الغنى في الحقيقة إنما هو غنى النفس، وهو رضاها بما قسم لها وسكونها وطمأنينتها، وإنما سمي ذو المال غنياً لأن المال بحيث تطمئن معه النفس، فمن كان راضياً بكل ما قسم الله به فهو غني، وهو في الجنانة مغني وإن كان في الدنيا {وأقنى *} أي أمكن من المال وأرضـــى بجميع الأحوال قال البغوي: أعطى أصـــول المال وما يدخر بعد الكفاية، قال: وقال الأخفش أقنى أفقر – انتهى. ونقل الأصـبهاني مثله عن أبي زيد، فتكون الهمزة للإزالة ويقال، أفناه بكذا أرضـــاه، وأقناه الصد: أمكنه منه.

▲ تفسير الآيات رقم [49– 52]

{وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (49)

وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (50)

وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51)

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52)}

ولما كانت الشعرى لأنها تقطع السماء عرضاً أدل النجوم بعد تمام القدرة على الفعل بالاختيار مع أنها مما دخل تحت ذلك الجنس المقسم به أول السورة، وهي لمرورها في سيرها عرضاً على جميع المنازل التي كانت العرب تستمطر بها وتتسب بالإتيان بالحد الموجب للغنى إليها كانت قد عبدها من دون الله أبو كبشة الخزاعي لكونها عنده أجل الكواكب، قال تعالى دالاً بالتأكيد على سفاهة من عبدها: {وأنه هو} أي لا غيره {رب الشعرى *} أي الكاملة في معناها وهي العبور، وأهل علم النجوم يقولون، إن الأحكام النجومية المنسوبة إليها أصح ما ينسب إلى العالم العلوي، وهي نجم يضيء خلف الجوزاء، ويسمى كلب الجبال، وسميت الجوزاء بالجبار تشبيهاً لها بملك على كرسيه وعلى رأسه تاج، وقال الرازي في اللوامع: هي أحد كوكبي ذراعي الأسد، وقال ابن القاص في كتاب دلائل القبلة: وترى عند صلاة الصبح نيرة زائداً نورها على نور سائر الكواكب حولها، وقد طمس الصبح نور سائر الكواكب، وأما الشعرى الأخرى فهي الغميصاء- بالغين المعجمة والصاد المهملة- فهي أقل نوراً منها، ولذلك سميت الغميصاء، وقال القزاز في جامعه: وقيل: بكت على أختها فغمصت عينها، أي غارت وذهبت.

ولما دل سبحانه على كمال علمه وشمول قدرته بأمور الخافقين: العلوي والسفلي، فكان ذلك داعياً إلى الإقبال على ما يرضيه، وناهياً عن الإلمام

بما يســـخطه، شـــرع في التهديد لمن وقف عن ذلك بما وقع في مصـــارع الأولين من عجائب قدرته فقال: {وأنه أهلك عاداً} ولم يأت بضمير الفصل لأنه لم يدع في أحد غيره إهلاكهم، وهول أمرهم بقوله: {الأولى *} أي القدماء في الزمان جداً دلالة على أنه المنصرف في جميع الأزمنة، وقدمهم لأن الشـــر أتاهم من حيث ظنوه خيراً وجزموا بأنه من الأنواء النافعة التي كانت عادتهم اســـتمطارها، وقيل: إن عاداً قبيلتان: والأولى قوم هود عليه السـلام والأخرى إرم ذات العماد- قاله جماعة منهم القشـيري، قال البغوي: وكان لهم عقب فكانوا عاداً الأخرى، وقال ابن جرير: وعاداً الأولى هم الذين عنى الله بقوله {ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم} [الفجر: 6- 7] وإنما قيل لهم عاداً الأولى لأن بني لقيم بن هزال هزيل بن عنبل بن عاد كانوا أيأم أرسل الله على هؤلاء عذابه سكاناً بمكة مع إخوانهم من العمالقة ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام فلم يصبهم من العذاب ما أصاب قومه وهم عاد الأخرى، ثم هلكوا بعد بغي بعضـنهم على بعض فتفانوا، وقال غير ابن جرير: إن إرم هم عاد الأخرى، وعطف عليهم قوله: {وثموداً} أي أهلكهم ثم ســـبب عن الإهلاك قوله: {فما أبقى *} أي من الفريقين أحداً، ومن قال: إن عاداً قبيلتان جعل عدم الإبقاء خاصـــاً بثمود، وقراءة عاصـــم وحمزة ويعقوب بمنع الصـرف نص في أنه قوم صـالح عليه السـلام، وقراءة الباقين بالصرف أنسب للإهلاك والإعدام.

ولما قدم من كان إهلاكهم بنفس الريح التي هي مبدأ الأمطار الآتية لهم في السـحاب، وأتبعهم من إهلاكهم بها بحملها للصيحة إرجافها بهم، أتبعهم من

كان إهلاكهم بالماء الذي هو غاية السـحاب فقال: {وقوم نوح} أي أهلكهم لأجل ظلمهم بالتكذيب، ولما كان إهلاكهم في بعض الزمان الماضـي قال: {من قبل} أي قبل الفريقين فصـار في الكلام تهويلان يهزان القلب ويفعلان في النفس وصـف هؤلاء بالقبيلتين وأولئك بالأولى، ولولا تقديمهم ما كان هذا، وعلل هلاكهم بما يؤذن أنه لا فرق عنده بين قوي وضـعيف وقليل وكثير مؤكداً لان ما اشتهر من طغيان عاد يوجب أنهم أطغى الناس: {إنهم كانوا} أي بما لهم من الأخلاق التي هي كالجبال التي لا انفكاك عنها {هم} أي خاصة {أظلم} من الطائفتين المذكورتين {وأطغى *} أي وأشد تجاوزاً في الظلم وعلواً وإسـرافاً في المعاصـي وتجبراً وعتواً لتمادي دعوة نوح عليه السلام ولأنهم أطول أعماراً وأشد أبداناً، وكانوا مع ذلك ملء الأرض، ويجوز أن يكون الضمير للفرق الثلاثة.

▲ تفسير الآيات رقم [53– 62]

{وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53)

فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (55)

هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (56)

أَزِفَتِ الْآَزِفَةُ (57)

لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58)

أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59)

وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60)

وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61)

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)}

ولما ذكر الهلاك بالريح العاصـــفة الناشـــئة عنها ثم بالماء الناشـــئ عن السـحاب الناشـئ عن الريح، ذكر الإهلاك بالريح والنار والماء إعلاماً بأنه الفاعل وحده بما أراد من العذاب من العناصــر التي ســبب الحياة مجتمعة ومنفردة، فقال مقدماً عن العامل إعلاماً بالتخصـــيص بما ذكر من العذاب إفادة بإنه تعالى قادر على كل شــيء فلم يعذب فرقة بما عذب به الأخرى: {والمؤتفكة} أي المدن المقلبة عن وجوهها إلى أقفائها بقدرة جعلتها من شـدتها وعظمتها كأنها انقلبت نفسـها من غير قالب وذلك أنه سـبحانه فتقها من الأرض ففتقها ثم دفعها في الهواء إلى عنان الســـماء ثم قلبها وأتبعها حجارة النار الكبريتية وغمرها بالماء الذي لا يشـــبهه شـــيء من مياه الدنيا، ولذلك قال: {أهوى *} أي رفع وحط وأنزل، فكان الإنزال إهواءً حقيقياً، والرفع مجازياً لأنه سببه وهي مدن قوم لوط عليه السلام، وأشار إلى الحجارة والماء بقوله مسـبباً عن الإهواء ومعقباً له: {فغشـاها} أي أتبعها ما غطاها فكان لها بمنزلة الغشـاء، وهولها بقوله: {ما غشــى *} أي أمراً عظيماً من الحجارة وغيرها لا يســع العقول وصــفه، وقد اشــتمل ما ذكره ســبحانه من الصـــحف على بيان ما ينفع من الأعمال وما يضــر وبيان التوحيد باحاطة الله ســبحانه بالنهايات التي لا نهاية بعدها علماً وقدرة لاختصــاصــه ببيان المصـــــنوعات وببيان البعث للتخويف بالآجل وإهلاك المرتدين للتخويف بالعاجل لمن كان قلبه جافياً عن النفوذ إلى الآجل.

ولما أهلك كل واحدة من هذه الفرقة فلم يبق من فجارها أحد، وأنجى من أطاعه منهم فلم يهلك منهم أحد، وكان إهلاكه لكل منها بشيء غير ما هلك به الفريق الآخر، فدل كل من ذلك على تمام علمه وكمال قدرته، وكان كمل ما تقدم في هذه السورة من النعم والنقم لكونه كان أتم أوجه الحكم نعمة على كل مؤمن لما فيها من الترغيب في ثوابه والترهيب من عقابه، خاطب سبحانه رأس المؤمنين لأن خطابه له أشد في تذكير غيره فقال مسبباً عما مضى: {فبأيّ آلاء ربك} أي عطية المحسن إليك التي هي وجه الإنعام والإكرام وهي إشارة المعرفة به سبحانه بمنزلة ظل الشخص من الشخص كما أنه لايتصور ظل إلا لشخص فكذلك فعل الفاعل ولا أثر للمؤثر {تتمارى *} أي تشك بإجالة الخواطر في فكرك في إرادة هداية قومك بحيث لا تريد أن أحداً منهم يهلك وقد حكم ربك بإهلاك كثير منهم لما اقتضته حكمته، وكان بعض خطرك في تلك الإجالة يشكك بعضاً، ولما تم الكلام على هذا المنهاج البديع والنمط الرفيع في حسان البيان للمواعظ والشرع والقصص القديمة والإنذار العظيم التام على وجه معجز من وجوه شتى، أنتج قوله مرغباً مرهباً خاتماً السورة بما بدأ هنا به من ذكره صلى الله عليه وسلم: {هذا} النبي صلى الله عليه وسلم {نذير} أي محذر بليغ التحذير، ولما كانت الرسل الماضون عليهم الصلاة والسلام قد تقررت رسالتهم في النفوس وسكنت إليها القلوب، بحيث أنه لا يسع إنكارها، فكان قد أخبر عن إنكار من كذبهم لأجل تكذيبهم، وإنجائهم وإنجاء من صدقهم لأجل نصرتهم، وكان لا فرق بينه صلى الله عليه وسلم وبينهم في ذلك إلا أن الرحمة به

أبلغ وأغلب، مرعباً في اتباعه مرهباً من نزاعه، قال: {من النذر الأولى *} يجب له ما وجب لهم وأنتم كالمنذرين الأولين، فاحذروا ما حل بالمكذبين منهم وارجوا ما كان للمصدقين.

ولما كان كل آت قريباً، وكانت الساعة- وهي ما أنذر به من القيامة ومما دونها- لا بد من إتيانها لما وقع من الوعد الصادق به المتحف بالدلائل التي لا تقبل شكاً بوجه من الوجوه، فكان باعتبار ذلك لا شيء أقرب منها، قال دالاً على ذلك بصيغة الماضي الذي قد تحقق وقوعه وباشتقاق الواقع الفاعل مما منه الفعل: {أزفت الآزفة *} أي دنت الساعة الدانية في نفسها التي وصفت لكم بالفعل بالقرب غير مرة لأنها محط الحكمة وإظهار العظمة، وما خلق الخلق إلا لأجلها، المشتملة على الضيق وسوء العيش من القيامة، وكل ما وعدتموه في الدنيا مما يكون به ظهور هذا الدين وقمع المفسدين. ولما ضاق الخناق من ذكرها على هذا الوجه، تشوف السامع إلى دفعها، فاستأنف قوله: {ليس لها} واستدرك بقوله: {من دون الله} أي من أدنى رتبة من رتبة الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً {كاشفة *} أي كاشف يوجدها ويقيمها ويجلي علمها، أو يدفع كربها وهمها وإن بالغ في الكشف وبذلك الجهد فيه، فالهاء للمبالغة، ويجوز أن تكون مصدراً كالجاثية والكاذبة والباقية فيكون الهاء للتأنيث.

ولما أفهم هذا أن الله يكشفها أي يكشف كربها ممن يريد من عباده ويثقله على من يشاء، ويكشف علمها بإقامتها، ولا حيلة لغيره في شيء من ذلك بوجه، سبب عنه وعما تقدمه من الإنذار قوله منكراً موبخاً، {أفمن هذا

الحديث} أي القول العظيم الذي يأتيكم على سبيل التجدد بحسب الوقائع والحاجات {تعجبون *} إنكاراً وهو في غاية ما يكون من ترقيق القلوب.

ولما كان المعجب قد يمسك نفسه عن الضحك، بين أنهم ليسوا كذلك فقال: {وتضحكون} أي استهزاء تجددون ذلك في كل وقت مبتدأ ضحككم منه وهو بعيد من ذلك، ولما كان إنما يورث الحزن بكونه نزل بالحزن قال: {ولا تبكون *} أي كما هو حق من يسمعه.

ولما كان البكاء قد يكون على التقصير في العمل، بين أن الأمر أخطر من ذلك فقال: {وأنتم} أي والحال أنكم في حال بكائكم {سامدون *} أي دائبون في العمل جاهدون في العمل، فإن الأمر جد، فالدأب في العمل والجد فيه حينئذ علة للبكاء، فكأنه قيل: ولا تدأبون في العمل فتبكون، وإنما قلت ذلك لأن «سمد» معناه دأب في العمل ورفع رأسه تكبراً وعلاً، وسمد الإبل: جد في السير، وسار سيراً شديداً، واسمادّ: ورم، وسمد: قام متحيراً وحزن وسر وغفل ولهاً وقام وحصل ونام واهتم وتكبر وتحير وبطر وأشر، وسمد الأرض: سهلها، وأيضاً جعل فيها السماد، أي السرقين، والشعر: استأصله، وهو لك سمداً أي سرمداً، والسميد: الحواري، ذكر ذلك مبسوطاً القزاز في جامعه وصاحب القاموس.

فالمادة كما ترى تدور على انتشارها على الدأب في العمل فتارة بذكر مبدئه الباعث عليه، وتارة الناشئ عنه، وتارة ما بينهما، وهو الجد في العمل، فينطلق الاسم على كل من ذلك تارة حقيقة ومرة بمجاز الأول، وأخرى بمجاز الكون، فالقصد باعث، وكذا الاهتمام والقيام ورفع الرأس ناشئان

عنهما، وذلك أوله، والسدم بمعنى احرص والهم واللهج بالشيء، والسديم: الضباب الرقيق، هو مبدأ الكشف، والمسدم: البعير المهمل وما دبر ظهره، كأنه من الإزالة، وركية سدم: متدفقة- للمعالجة في فتحها، ولأن تدفقها دأب في العمل، وكذا سدم الباب أي ردمه، والدسم: الودك، لأنه منشط على العمل ومنشأ منه، والوضر والدنس، ودسم المطر الأرض: بلها قليلاً، لأنه مبدأ الكثير، والقارورة: سدها، والباب: أغلقه، لأنه يعالج في فتحه، والدسمة: غبرة إلى السواد- كأنه مبدأ السواد والدسيم لما لم يكن أبواه من نوع واحد- كأنه مبدأ لكل نوع منهما ولأنه يلزم الخلط في العادة العلاج، ومنه الدسمة للرديء من الرجال- كأنه لم يكمل فيه النوع، ولأن نقص الشيء عن عادته يلزمه العلاج والفعل بالاختيار، والديسم: الرفيق بالعمل المشفق، وأنا على دسم من الأمر أي طرف منه، والمسد- محركة: المحور من الحديد، لأنه آلة الفتل، وحبل من الليف أو ليف المقل لأنه محل الدأب، والمساد: نحى السمن، ودمسه: دفنه، يصلح أن يكون مبدأ ومقصداً، ومنه دمس بينهم: أصلح لأنه دفن أحقادهم وعالج في ذلك، والدمس: إخفاء الشيء والظلام، لأنه منشئ التعب، ودمس الموضع: درس- للتعب في معرفته، ودمس الإهاب: غطاه فيمشط شعره، والدمس: الشخص، وبالتحريك: ما غطى، والدودمس بالضم: حية مجر نفشة الغلاصيم تنفخ فتحرق ما أصابت بنفخها، ومن آثاره الناشئة عن الورم، وكذ القيام متحيراً والغفلة والسرور والحزن واللهو والنوم والكبر والتبختر والعلو والعتا، والسميد أي الحواري، والسمد بمعنى السرمد: والسمد: الهم مع ندم أو الغيظ مع حزن، والديماس:

الكن، وما بين ذلك سمد الأرض والشعر والسير الشديد والجد فيه، وهو نفس الدأب، وكذا السديم للكثير الذكر، وماء مسدم وعاشق مسدم: شديد العشق، والدسيم: ظلمة السواد، والدسيم، الكثير الذكر، ودسم البعير: طلاه بالحناء- والمسد: إداب السير- وبالتحريك: المضفور المحكم الفتل، ورجل ممسود: مجدول الخلق- شبه به- وهي بها، ودمس بينهم: أصلح، وهو من الدفن أيضاً لأنه دفن أحقادهم فنبين أن جعل السمود في الآية بمعنى الدأب في العمل هو الأولى، وأن كون الجملة حالاً من جعلها معطوفة على {تضحكون}- انتهى والله أعلم.

ولما حث على السمود، فسره مسبباً عن الاستفهام ومدخوله قوله: {فاسجدوا} أي اخضعوا خضوعاً كثيراً بالسجود الذي في الصلاة {لله} أي الملك الأعظم {واعبدوا *} أي بكل أنواع العبادة فإنه {ما ضل صاحبكم} عن الأمر بذلك {وما غوى} قال الرازي في اللوامع: قال الإمام محمد بن علي الترمذي: تعبدنا ربنا مخلصين أن نكون له كالعبيد وأن يكون لعبيده كما هو لهم- انتهى، ولو كان السمود بمعنى اللهو كان الأنسب تقديمه على {تبكون}- والله أعلم، وقد ظهر أن آخرها نتيجة أولها، ومفصلها ثمرة موصلها- والله الهادي.

سورة القمر ▲

54 مكية

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي

▲ تفسير الآية رقم [1]

{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1)}

لما ختمت النجم بالتهديد باقتراب القيامة التي ينكرونها بعد أن فتحها بالأقسام البلس (؟) في النجم الذي هو أعم من القمر وغيره بتسييره طلوعاً وأفولاً وصعوداً وهبوطاً، افتتح هذه بذلك مع الدلالة عليه عقلاً وسمعاً في التأثير في أعظم آيات الله وغير ذلك ليقطع العباد عن الفساد، ويستعدوا لها قبل مجيئها أحسن استعداد، فقال دالا على عظيم اقتداره عليها بتأنيث فعلها: {اقتربت الساعة} اشتدت قرباً الساعة: اللحظة التي لا ساعة في الحقيقة غيرها التي تقوم فيها القيامة لأنه قل ما بقي بيننا وبينها بالنسبة إلى ما مضى من زمن آدم عليه السلام لبعث خاتم الأنبياء الذي لم يبق بعد أمته أمة تنتظر، فيكون في الزمان مهلة لذلك.

ولما كان الإخبار باقترابها يحتاج عند المعاند إلى آية دالة عليه، وكانت الآيات السماوية أعظم، فالتأثير فيها أدل على تمام الاقتدار، وكان القمر

أدل على الأنواء التي بها منافع الخلق في معاشـــــهم، وكانت العرب أعرف الناس بها، دلهم على التأثير فيه على اقترابها مع الإرهاب من شدائد العذاب بإعدام الأسـباب فقال: {وانشـق} بغاية السـرعة والسـهولة {القمر *} آية للرسول المنذر لكم بها، فكان انشقاقه- مع الدلالة على ذلك بإعجاز القرآن وغيره- دالاً على كونها وقربها أيضـــاً بالتأثير العظيم الخارق لعادة ما قبله من التأثير في أحد النيرين اللذين هما أعظم الأسباب المقامة للمعايش الدال على القدرة على التأثير في الآخرة الدال ذلك على القدرة على تمام التصرف فيهما من جمعهما وخسفهما واعتدامهما ولسببهما (؟) الذي هو من أسباب خراب الأرض، يقول الإنسـان عنده: أين المفر؟ المؤذن بطيّ العالم المعلم بأن له رباً فاعلاً بالاختيار مدبراً بالحكم الدال على بعث عباده ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، فيثيب من تابع رسـله ويعاقب من خالفهم، وانشـقاق القمر على حقيقته في زمان النبي صـلى الله عليه وسـلم أمر شـهير جداً، وإجماع أهل التفسير عليه كما قاله القشيري،

وقال: رواه ابن مسعود رضي الله عنده ولا مخالف له فيه- انتهى.

وذلك أن قريشاً سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية «فأراهم انشاق القمر بحيث طلعت فرقة عن يمين حراء وأخرى عن يساره»- رواه الشيخان عن ابن مســعود وأنس رضـــي الله عنهما، ومعلوم أن الأمة تلقت كتابيهما بالقبول فهو يكاد يلحق بالمتواتر وقد أيده القرآن فلم يبق فيه شك،

قال القشـيري: وروى أيضـاً ابن عمر وحذيفة وابن عباس وجبير بن مطعم رضي الله عنهم، وقال أبو حيان: سبب نزولها أن مشركي العرب من قريش

قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، ووعدوه بالإيمان إن فعل ذلك، وكانت ليلة البدر فسأل ربه فانشق– انتهى، ومن قال: المراد به «سينشق» يحتاج في صرف الماضي عن حقيقته إلى المستقبل إلى صارف وأنى له ذلك ولا سيما وقد تأيدت الحقيقة بالنسبة الصحيحة الشهيرة.

وقال الإمام أبو جعفر ابن الزبير: لما أعلمهم سبحانه بأن إليه المنتهى، وأن عليه النشأة الأخرى، وإذا ذاك يقع جزاء كل نفس بما أسلفت، أعلمهم سبحانه بقرب ذلك وحسابه ليزدجر من وفقه للازدجار فقال تعالى: {اقتربت الساعة وانشق القمر}

ثم إن سورة ص تضمنت من عناد المشركين وسوء حالهم وتوبيخهم في عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع ما يكاد يوجد في غيرها مما تقدمها، وبعد التنبيه في السورة قبلها والتحريك بآيات لا يتوقف عنها إلا من أضله الله وخذله، وأثبتت السورة بعد على تمهيد ما تضمنته سورة ص فلم يخل سورة منها من توبيخهم وتقريعهم لقوله في الزمر

{والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} [الزمر: 3]

وقوله: {لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء} [الزمر: 4]

وقوله: {قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه} [الزمر: 14]

وقوله مثلاً لحالهم: {ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون} [الزمر: 29] الآية إلى ما بعد من التقريع والتوبيخ،

وقوله في سورة غافر: {ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد} [غافر: 4]

وقوله: {ذلكم بأنه إذ دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله} [غافر: 12]

وقوله: {أفلم يسيروا في الأرض} [غافر: 21- 82] الآية،

وقوله: {إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه} [غافر: 56]

وقوله: {ألم تر إلى الذين يجادلون في أيات الله أنى يصرفون} [غافر: 69] {الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون} [غافر: 70] إلى قوله: {فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون} [غافر: 77]

وقوله: {أو لم يسيروا في الأرض} [غافر: 82] إلى ما تخلل هذه الآيات،

وقوله في فصلت {فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا في أكنة} [فصلت: 5]

{وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه} [فصلت: 26]

{إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا} [فصلت: 40- 44] إلى قوله: {أولئك ينادون من مكان بعيد} [فصلت: 40- 44]

وقوله: {سـنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسـهم} [فصـلت: 53] إلى آخر السورة،

وقوله في الشـورى: {والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل} [الشورى: 6]

{كبر على المشـــركين ما تدعوهم إليه والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم} [الشورى: 13] الآية

{أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله} [الشورى: 21] الآية

{فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ} [الشورى: 48]

وقوله في الزخرف: {أفنضرب عنكم الذكر صفحاً} [الزخرف: 5] الآية،

{وجعلوا له من عباده جزءاً} [الزخرف: 15] إلى ما تردد في هذه السورة مما قرعوا به أشـــد التقريع، وتكرر في آيات كثيرة فتأملها مثل قوله تعالى في الدخان {بل هم في شك يلعبون} [الدخان: 9] إلى قوله: {يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون} [الدخان: 16]

وقوله: {إن يوم الفصـل ميقاتهم أجمعين} [الدخان: 40] إلى قوله هذا {ما كنتم به تمترون} [الدخان: 50]

وقوله في الأعراف: {فبأيّ حديث بعده يؤمنون} [الأعراف: 185] إلى قوله: {والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم} [الجاثية: 11]

وقوله: {أفرءيت من اتخذ إلهه هواه} [الجاثية: 23] إلى آخر السورة،

وقوله في الأحقاف: {والذين كفروا عما أنذروا معرضـون} [الأحقاف: 3] ومعظم هذه الآية لم يخرج عن هذا إلى ختامها، وكذلك ســـورة القتال (اي

سورة محمد صلي الله عليه وسلم) ولم يتضمن إلا الأمر بقتلهم وأسرهم وتعجيل حربهم {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب} [محمد: 4]
وأما سورة الفتح فما تضمنته من البشارة والفتح أشد على الكفار من كل ما قرعوا به، ولم تخرج عن الغرض المتقدم، وكذا سورة الحجرات لتضمنها من الأمر بتقدير النبي صلى الله عليه وسلم وإجلاله ما يقر عين المؤمن ويقتل العدو الحاسد وما فيها أيضاً من إتلاف أمر المؤمنين وجمع كلمتهم وتآخيهم، وموقع هذا لا يخفى على أحد، وأما سورة الذاريات والطور والنجم فما تضمنته مما ذكرناه قبل أوضح شيء، وبذلك افتتحت كل سورة منها فتأمل مطالعها ففي ذلك كفاية في الغرض- والله تعالى هو أعمل بالصواب، فلما انتهى ما قصد من تقريع مكذبي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغت الآي في هذه السورة من ذلك أقصى غاية، وتمحض باطلهم وانقطع دابرهم، ولم يحيروا جواباً فيما عرض عليهم سبحانه في سورة القمر من أحوال الأمم مع أنبيائهم، وكان القصد من ذلك- والله أعلم- مجرد التعريف بأنهم ذكروا فكذبوا فأخذوا ليتبين لهؤلاء أن لا فرق بينهم وبين غيرهم وأن لا يغرهم عظيم حلمه سبحانه عنهم، فهذه السورة إعذار عند تبكيتهم وانقطاع حجتهم بما تقدم وبعد أن انتهى الأمر في وعظهم وتنبيههم بكل آية إلى غاية يعجز عنها البشر، ولهذا افتتح سبحانه هذه السورة بقوله تعالى: {ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر } وختمها سبحانه بقوله: {أكفاركم خير من أولائكم أم لكم براءة في الزبر } وهذا يبين ما قدمنا، وكان قد قيل لهم : أي فرق بينكم وبين من تقدم حتى ترتكبوا مرتكبهم وتظنوا أنكم

ستفوزون بعظيم جزائكم، فذكر سبحانه لهم قصة كل أمة وهلاكها عند تكذيبها بأعظم إيجاز وأجزل إيراد وأفخم عبارة وألطف إشارة،

فبدأ بقصة قوم نوح بقوله: {كذبت قوم نوح} إلى قوله: {ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابي ونذر}

ثم استمر في ذكر الأمم مع أنبيائهم حسبنا ذكروا في السورة الوارد فيها إخبارهم من ذكر أمة بعد أمة إلا أن الواقع هنا من قصصهم أوقع في الزجر وأبلغ في الوعظ وأعرق في الإفصاح بسوء منقلبهم وعاقبة تكذيبهم، ثم ختمت كل قصة بقوله: {فكيف كان عذابي ونذر} وتخلل هذه القصص بقوله تعالى: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} وهي إشارة إلى ارتفاع عذر من تعلق باستصعاب الأمور على زواجره وتنبيهاته ومواعظه ويدعي بعد ذلك واستعلاقه فقيل له إنه ميسر قريب المرام، وهذا فيما يحصل عند التنبيه والتذكير لما عنده بكون الاستجابة بإذن الله تعالى ووراء ذلك من المشكل والمتشابه ما لا يتوقف عليه ما ذكره وحسب عموم المؤمنين الإيمان بجميعه والعمل بمحكمه، ثم يفتح الله تعالى فهم ذلك على من شرفه به وأعلى درجته، فيتبين بحسب ما يشرح الله تعالى صدره {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات} ومن تيسر المقصود المتقدم تكرار قصص الأنبياء مع أممهم في عدة سور أيّ حفظ مها اطلع على ما هو كاف في الاعتبار بهم، ثم إذا ضم بعضه إلى بعض اجتمع منه ما لم يكن ليحصل من بعض تلك السورة، فسبحان من جعله حجة باهرة وبرهاناً على صدق الآتي به محمد صلى الله عليه وسلم، وصراطاً مستقيماً ونوراً مبيناً، ولما

ذكر سـبحانه عواقب الأمم في تكذيبهم قال لمشـركي العرب: {أكفاركم خير من أولائكم} ومن هذا النمط قول شعيب عليه السلام:
{ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صـــالح وما قوم لوط منكم ببعيد} [هود: 89] ثم قال تعالى: {أم يقولون نحن جميع منتصـــر ســـيهزم الجمع ويولون الدبر} إي إنكم تعلقتم بتألفكم وجماعتكم فسأفرق ذلك بهزيمتكم يوم بدر بقتل صناديدكم فما حجتكم بعد هذا، إنما مساق القصـص في هذه السـورة واعتماد التعريف بحال من ذكر في أن كذبوا وعاندوا، فأعقب تكذيبهم أخذهم وهلاكهم، ثم تعقب هذا كله بصـرف الكلام في مشـركي العرب في قوله: {أكفاركم خير من أولائكم} وليس شـيء من السـور المذكورة فيها قصـص على هذا الاسـتيفاء كالأعراف وهود، وبظاهرهما ليس في شـيء من ذلك تعقيب بذكر مشـركي العرب على الصـــفة الواردة هنا، فأنبأ ذلك بكمال المقصـــود من الوعظ والتحريك بذكره وانقضــــاء هذا الغرض، وذلك أنهم ذكروا أولاً بعرض أحوال الأمم والتعريف بما آل إليه أمرهم، وكان ذلك في صـــورة عرض من يريد تأديب طائفة من إليه نظرهم قبل أن يظهر منهم تمرد وعناد، فهو يســـتلطف في دعائهم ولا يكلمهم تكليم الواجد عليهم، بل يفهم الإشـفاق والاسـتعطاف وإرادة الخير بهم ثم يذكرهم بذلك ويكرره عليهم المرة بعد المرة وإن تخلل ذلك ما يبين منهم فظاعة التهديد وشـدة الوعيد، فلا يصـحبه تعيين المخاطب وصـرف الكلام بالكلية إليه، بل يكون ذلك على طريق التعريض والتوبيخ، ثم لو كان لا يحتقر بما قبله وما بعده من التلطف حتى إذا تكررت الموعظة فلم تقبل،

فهنا محل الغضب وشدة الوعيد، وعلى هذا وردت السور المذكور فيها حال الأمم كسورة الأعراف وهود والمؤمنين والظلة والصافات، وما من سورة منها إلا والتي بعدها أشد في التعريف وأمل في الزجر بعد التعريف، فتأمل تعقيب القصص في سورة الأعراف بقوله تعالى:

{وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون} [الأعراف: 174]

وقوله بعد موعظة بالغة بذكر من حرمه بعد إشـــــرافه عل الفوز وهو الذي أخلد إلى الأرض واتبع هواه فقال بعد ذلك {فاقصـــــص القصـــــص لعلهم يتفكرون} [الأعراف: 176]

وتذكيره إياه لمحنة الغفلة إلى ما ختمت به الســــورة وذلك غير خاف في التلطف بالموعظة

وقال تعالى بعد قصص سورة هود: {وكذلك أخذ ربك} [هود: 102] الآية، وقال تعالى: {فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء} [هود: 109]- إلى قوله- {وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص} [هود: 109]

وتكررت الآية إلى آخر الســــورة يجاري ما ذكر ولم تبق هذه وآي الأعراف في تلطف الاستدعاء،

وقال تعالى في قصص آخر سورة المؤمنين: {فذرهم في غمرتهم حتى حين} [المؤمنون: 54]- إلى قوله- {لا يشعرون} [المؤمنون: 56]

ثم قال: {ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون} [المؤمنون: 64] استمرت الآي على شدة الوعيد

يتلو بعضـــها بعضـــاً إلى قوله: {أفحســـبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون} [المؤمنون: 115]

وقوله تعالى بعد: {إنه لا يفلح الكافرون} [المؤمنون: 17] ولم يبين هذه الآي، وبين الواقعة عقب قصص سورة هود، وقال في آخر قصص الظلمة: {وإنه لتنزيل رب العالمين} [الشعراء: 192] إلى قوله خاتمة السورة: {وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون} [الشـعراء: 227] فوبخهم وعنفهم ونزه نبيه صـلى الله عليه وسـلم عن توهمهم وعظيم إفكهم وافترائهم، وكل هذا تعنيف وإن لم يتقدم له مثله في السـورة المذكورة، ثم هو صـريح في مشـركي العرب معين لهم في غير تلويح ولا تعريض، ثم إنه وقع عقب كل قصـــة في هذه السـورة قوله تعالى: {إن في ذلك} وفيه تهديد ووعيد، وقال تعالى في آخر والصـافات: {فاسـتفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شـاهدون ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون} [الصـافات: 149]

وهذا أعظم التوبيخ وأشد التقريع،

ثم نزه نبيه سـبحانه عن بهتان مقالهم وسـوء ارتكابهم وقبح فعالهم، بقوله: {سـبحان ربك رب العزة عما يصـفون} [الصـافات: 180] فلما أخذوا بكل مأخذ فما أغنى ذلك عنهم قال تعالى في سـورة القمر: {ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر} {حكمة بالغة فما تغني النذر}،

ثم قال تعالى لنبيه صـلى الله عليه وسـلم: {فتول عنهم} ولم يقع أمره صـلى الله عليه وسـلم بتركهم والإعراض عنهم والتولي إلى بعد حصـول القصـص

في الســـورة المذكورة وأخذهم بكل طريق، وأول أمره بذلك صـــلـى الله عليه وسلم في سورة (الم) السجدة {فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون} (32،30) ثم في سـورة والذريات {فتول عنهم فما أنت بملوم} بأشـد وعيد وأعظم تهديد بعقب كل قصة بقوله: {ولقد تركناها آية فهل من مذكر} وقوله: {فكيف كان عذابي ونذر} ثم صـــرف إليهم بما تقدم قوله: {أكفاركم خير من أولائكم أم لكم براءة في الزبر} فبلغ ذلك أعظم مبلغ في البيان وإعذار،

ثم قال تعالى: {وكل شيء فعلوه في الزبر} ففرق سبحانه بسابق حكمته فيهم {إنا كل شيء خلقناه بقدر} وانقضى ذكر القصص فلم يتعرض لها مستوفاة على المساق فيما بعد إلى آخر الكتاب- فسبحان من رحم به عباده المتقين وجعله آية وأي آية باهرة إلى يوم الدين، وقطع عناد الجاحدين وغائلة المعتدين وجعله بياناً كافياً ونوراً هادياً وواعظاً شـــافياً- جعلنا الله ســـبحانه وتعالى ممن اهتدى واعتلق بســـببه إنه أهل الاســـتجابة والعفو والمغفرة- انتهى.

▲ تفسير الآيات رقم [2- 7]

{وَإِنْ يَرَوْا آَيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2)

وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3)

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4)

حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5)

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (6)

خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7)}

ولما كان التقدير: فأعرض الكفار عن آية انشقاقه وقالوا: سحر، مع علمهم بأنه دال قطعاً على صدق من انشق لتصديقه، عطف عليه الإعلام بحالهم في المســـتقبل فطماً لمن يطلبه من المؤمنين إجابة مقترحة من مقترحاتهم رجاء إيمانهم فقال: {وإن يروا} أي فيما يأتي {آية} أي أية آية كانت {يعرضوا} أي عن الانتفاع بها كما أن أعرضوا عن هذه لما رأوها،

وقال بعضهم: سحر،

وقال بعضهم: أمهلوا حتى يجيء السفار،

فإن قالوا: إنهم رأوا كما رأيتم فليســت بســحر، فإن محمداً لا يســتطيع أن يسحر أهل الأرض كلهم، فجاء السفار وشهدوا برؤيته منشقاً، ومع ذلك فلم يؤمنوا {ويقولوا} أي على سبيل التجديد منهم والاستمرار: هذا {سحر} أي هذا الذي يأتينا به هذا الرجل من وادي الخيال الذي لا حقيقة له وهو {مستمر *} أي لأنه فارق السحر بأنه لا ينكشف في الحال لأنه محكم ثابت دائم بشـــموله وإحاطته بجميع الأنواع، ولذلك يتأثر عنه غاية الخوارق المتباينة الأنواع الكثيرة.

ولما فطم عن التشــوف إلى إجابتهم في المقترحات على ما قدرته، تســبب منهم عن الانشــقاق بقوله: {وكذبوا} أي بكون الانشــقاق دالاً على صــدق الرســول صــلى الله عليه وســلم وجزموا بالتكذيب عناداً أو خبثاً منهم. ولما كان التكذيب في نفســـه قد يكون حقاً، قال مبيناً أنه باطل، فبين عن حالهم بقوله: {واتبعوا} أي بمعالجة فطرهم الأولى المســـتقيمة في دعائها إلى التصـــديق {أهواءهم} أي حتى نابذوا ما دلتهم عليه بعد الفطرة الأولى

عقولهم، قال القشيري: إذا حصل اتباع الهوى فمن شؤمه يحصل التكذيب، لأن الله سبحانه وتعالى يلبس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر الرشد، واتباع الرضى مقرون بالتصديق لأن الله تعالى ببركات الاتباع للحق يفتح عين البصيرة فيأتي بالتصديق– والله الهادي. ولما كان ذلك مفظعاً لقلوب المحقين، سلاهم بالوصول إلى محط تظهر فيه الحقائق وتضمحل فيه الشقاشق، فقال عاطفاً على ما تقديره: فسيستقر أمر كل من أمر المحق والمبطل في قراره، ويطلع على دقائقه وأسراره: {وكل أمر} من أموركم وغيرها {مستقر *} أي ثابت وموجود، انتهاؤه إلى غاية تظهر فيها حقيقته من غير حيلة تصاحبه إلى رد ذلك القرار ولا خفاء على أحد، فلا بد أن ينتهي الحق من كل شيء من الآجال والهدايات والضلالات والسعادات والشقاوات وغيرها إلى نهايته فيثبت ثبوتاً لا زوال له، وينتهي الباطل مما دعاه الخلق فيه إلى غايته فيتلاشى تلاشياً لا ثبات له بوجه من الوجوه، فإذا استقرت الأمور ظهر ما لهم عليه وعلموا الخاسر من الفائز، وفي مثل هذا قال ابن عمرو التيمي أخو القعقاع في وقعة السي (؟) من بلاد العراق:

والموت خيلنا لما التقينا *** بقارن والأمور لها انتهاء

وقرأ أبو جعفر بالجر صفة لأمر، فيكون معطوفاً على الساعة أي واقترب كل أمر مستقر أي ثابت وهو الحق أي اقترب الظهور وثباته، وذلك لا يكون إلا وقد كان خفاء الباطل وفواته. ولما حذر وبشر قال معلماً أنه محيط العلم بأمرهم من قبل الإجابه إلى شق القمر وأنه ما شقه لطمع في إيمانهم بلا للأعلام بخذلانهم مؤكداً لمن يتعلق رجاؤه بأن تواتر الآيات ربما

أوجب لهم التصديق المتضمن لأن ما جاءهم ليس فيه كفاية: {ولقد جاءهم} من قبيل الانشقاق {من الأنباء} أي الأمور العظيمة المرئية، المسموعة التي تســتحق لعظمتها أن يخبر بها إخباراً عظيماً ســيما ما جاء في القرآن من تفصيل أصول الدين وفروعه وأخبار الأولين والآخرين والأولى والأخرى {ما فيه} خاصة {مزدجر *} أي موضع للزجر من شأنه أن يكون لهم به انزجار عظيم عما فيه من الباطل، ولكن لم يزدجر منهم إلا من أراد الله، قال القشيري: لأن الله أسبل على أبصارهم سجوف الجهل فعموا عن مواضع الرشد.

ولما كان ما فيه ذلك قد لا يكون محكماً، بينه بقوله: {حكمة} عظيمة {بالغة} أي لها معظم البلوغ إلى منتهى غايات الحكمة لصــحتها وطهارتها ووضـــوحها، ففيها مع الزجر ترجية ومواعظ وأحكام ودقائق تجل عن الوصف. ولما تسبب عنها انزجارهم، سبب عن ذلك قوله: {فما} نفياً صريحاً أو باســتفهام إنكاري موبخ {تغن النذر *} الإنذارات والمنذرون والأمور المنذر بها- إنما المعني بذلك هو الله تعالى، فما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن، ولعل الإشارة بإسقاط يا «تغني» بإجماع المصاحف من غير موجب في اللفظ إلى أنه كما سقطت غاية أحرف الكلمة سقطت نمرة الإنذار وهو القبول.

ولما كان صلى الله عليه وسلم التعلق بطلب نجاتهم، فهو لذلك ربما اشتهى إجابتهم إلى مقترحاتهم، سبب عن ذلك قوله: {فتول عنهم} أي كلف نفسك الإعراض عن ذلك فما عليك إلا البلاغ، وأما الهداية فإلى الله وحده. ولما

بين اقتراب الساعة بالإجابة إلى بعض مقترحاتهم القائمة مقامها كلها بدلالته على القدرة عليها، وأتبع ذلك الفطم عن طلب الإجابة إلى شـــيء فيها لأنها لا تغني شيئاً، تطلعت النفوس الكاملة إلى وصف الساعة فأجاب عن ذلك على سبيل الاستئناف بذكر ظرفها وذكر... ما يقع فيه من الأهوال، فقال معلقاً بما تقديره: الســـاعة كائنة على وجه الاقتراب الشـــديد: {يوم يدع} ويجوز- والله أعلم- أن يكون الناصـــب له {تول} لأنهم لما أعرضــوا حين دعاهم كان جزاءهم أن يعرض عنهم يوم حاجتهم إليه لأن الجزاء من جنس العمل، فكأنه قيل بعد أن عد القيامة أمراً محققاً لا يأتي النزاع فيه: تول عنهم في ذلك اليوم العبوس الذي أنت فيه الشافع المقبول.

.. واتركهم لأهواله ودواهيه، فقد بان الخاســـر فتوليهم إنما يضـــرهم، لأن توليهم عنك لا يضرك شيئاً أصلاً، وتوليك عنهم يضرهم ضرراً ما بعدهم ضرر- والله أعلم، وحذف واو «يدعو» للرسم بإجماع المصاحف من غير موجب لأن المقام لبيان اقترابها، فكأنه إشارة إلى كونها بأدنى دعاء، وأيضاً ففي حذفه تشبيه للخبر بالأمر إشارة إلى أن هذا الدعاء لا بد على أن يكون على أعظم وجه وأتقنه وأهوله وأمكنه كما يكون كل مأمور من الأمر المطاع، والوقف على هذا وأمثاله بغير واو لجميع القراء موافقة للرســـم لأن القاعدة أن ما كان فيها رواية أتبعت وإن خالفت الرسم أو الأصل، وما لم يرد فيه عن أحد منهم رواية اتبع فيه الرســـم وإن خولف الأصـــل، لأن التخفيف معهود في كلام العرب كالوال والمتعال من أسمائه الحسنى، لكن قال علامة القراءات شمس الدين الجزري في كتابه المسمى بالنشر في هذه

الأحرف الأربعة: هذا و{يدع الإنسان} في سبحان و{يمح الله الباطل} في شورى و{سندع الزبانية} في العلق: نص الحافظ أبو عمرو الداني عن يعقوب على الوقف عليها بالواو على الأصل، ثم قال: قلت: وهو من انفراده، وقد قرأت به من طريقه {الداع} أي النفخ في الصور {إلى شيء نكر *} عظيم الوصف في النكارة بما تكرهه النفوس فتوجل منه القلوب لأنه لا شيء منه إلا وهو خارج عما تقدمه من العادة.

ولما بين دعاءه بما هال أمره، بين حال المدعوين زيادة في الهول فقال: {خشعاً أبصارهم} أي ينظرون نظرة الخاضع الذليل السافل المنزلة المستوحش الذي هو بشر حال، ونسب الخشوع إلى الأبصار لأن العز والذل يتبين من النظر فإن الذل أن يرمي به صاحبه إلى الأرض مثلاً مع هيئة يعرف منها ذلك كما قال تعالى: {خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي} وإفراده في قراءة أبي عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي على أن الخشوع بلغ في النهاية من الشدة ونسبته إلى كل بصر على حد سواء، وجمع على لغة «أكلوني البراغيث» تفي قراءة الباقين بضم الخاء وتشديد الشين مفتوحة أو مستنداً المدعوين، والإبصار يدل بعض الإشارة إلى أن كل ذلك موزع على الأبصار.

ولما بين من حالهم هكذا ما يدل على نكارة ذلك اليوم، بين كيفية خروجهم بياناً لما يلزم من تصوره زيادة الذعر فقال: {يخرجون} أي على سبيل التجدد الأشرف فالأشرف {من الأجداث} أي القبور المهيأة لسماع النفخ في الصور {كأنهم} في كثرتهم وتراكم بعضهم على بعض من كبيرهم وصغيرهم

وضعيفهم وقويهم {جراد منتشر *} أي منبث متفرق حيران مطاوع لمن نشره بعدما كان فيه من سكون مختلط بعضه ببعض، لا جهة له في الحقيقة يقصدها لو خلى ونفسه.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 12]

{مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8)
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9)
فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10)
فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11)
وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12)}

ولما كان الانتشار قد يكون وجه المهل والوقار، قال مبيناً أن الأمر على خلاف ذلك زيادة في هول ذلك اليوم وتقريراً لما تقدم من وصفه: {مهطعين إلى الداع} أي مسرعين خائفين مقبلين بأبصارهم عليه لا يقلعون عنه، مادين أعناقهم نحوه مصوبي رؤوسهم لا يلتفتون إلى سواه كما يفعل من ينظر في ذلك وخضوع وصمت واستكانة. ولما بين حال الكل حصر حال المبطلين فقال: {يقول} أي على سبيل التكرار: {الكافرين} أي الذين كانوا في الدنيا عريقين في ستر الأدلة وإظهار الأباطيل المضلة: {هذا} أي الوقت الذي نحن فيه بما نرى من الأهوال {يوم عسر *} أي في غاية العسر الصعوبة والشدة، وذلك بحسب حالهم فيه.

ولما تقدم أمره سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم بالتولي عنهم تهديداً لهم، وصرح بما أراد من أمر الساعة لما دعا إلى ذلك من تقدم ذكرها، ولأنها أشد

هول يهددون به، وبياناً أن الخلق ما خلق إلا لأجلها لأنها محط الحكمة، وختم بعســـرها على الكافرين، تمم ذلك التهديد بعذاب الدنيا ردعاً لأهل الغلظة الموكلين بالمحسـوسـات، فذكر عسـر يوم كان على الكافرين فيها، فقال مهدداً لقريش بجعل القصـة مثلاً لهم في إهلاكهم وفي أمر السـاعة من حيث إنه كما أهلك أهل الأرض في آن واحد بما أرسـله من الماء فهو قادر على أن يهلكهم في آن واحد بالصيحة، وكما صرف هذا التصريف الذي ما سـمع بمثله في الإهلاك فهو قادر على أن يصـرفه في الإحياء عند البعث على وجه ما عهد مثله تنبت فيه الأجسـاد وتحيا فيه العباد، جواباً لمن كأنه قال: هذا ما يوعدونـه بعد الموت، فهل لهم عذاب قبلـه دال على كمال القدرة: {كذبت} أو أوقعت التكذيب العظيم الذي عموا به جميع الرســالات وجميع الرسل، وأنث فعلهم تحقيراً لهم وتهويناً لأمرهم في جنب قدرته.

ولما كان ما كان من تصـميمهم عليه وعزمهم على عدم الانفكاك عنه لكونه جبلة مســتغرقاً لجميع ما بعدهم من الزمان، وكانوا قد ســنوا ســنة التكذيب فكان عليهم مع وزرهم وزر من أتى بعدهم، وكان ما قبلهم من الزمان يسـيراً في جنب ما بعده عدماً، فلذلك ذكر الظرف من غير حرف جر لأنه مع أنه الحق أعظم في التســلية فقال: {قبلهم} أي في جميع ما ســلف من الزمان ومضـى بعضـه بالفعل وبعضـه بالقوة لقوة العزم: {قوم نوح} مع ما كان بهم من القوة ولهم من الانتشار في جميع الأقطار.

ولما ذكر تكذيبهم إشـارة إلى أنه جبلة لهم جحدوا بها النبوة رأسـاً فلاحظ لهم في التصــديق للحق فلا يفترق حالهم بالنســبة إلى أحد من الناس كان من

كان، فلذلك سـبب عن هذا المطلق قوله: {فكذبوا عبدنا} أي على ما له من العظمة نسـبة إلينا لكونه لم يتعبد لغيرنا قط مع تشـريفنا إياه بالرسـالة، فكان تكذيبهم فراً مما دخل في تكذيبهم المطلق الشـامل لكل ما يمكن تكذيبه وهو ميد (؟) {وقالوا} مع التكذيب أيضـاً زيادة على تغطية ما ظهر منه من الهداية: {مجنون} أي فهذا الذي يظهر له من الخوارق من أمر الجن.

ولما كان إعلاء الصـوت على النبي كائناً من كان عظيم القباحة جداً زائد الفظاظة فكيف إذا كان مرسـلاً فكيف إذا كان من أولي العزم فكيف إذا كان على سـبيل الإنكار عليه، فكيف إذا كان على صـورة ما يفعل ممن لا خطر له بوجه، قال بانياً للمجهول إشارة إلى تبشيعه من غير نظر إلى قائل وإيذاناً بأن ذلك لم يكن من أكابرهم فقط بل من كبيرهم وصـغيرهم: {وازدجر *} أي أعملوا أنفسـهم في انتهاره وتوعده وتهديده وانتشـر ذلك في جميعهم بغاية ما يكون من الغلظة كفاله عن الرسـالة ومنعاً له عنها، والمعنى أنهم قالوا: إنه استظهر عليهم بالجنون.

ولما طال ذلك منهم ومضـت عليه أجيالهم جيلاً بعد جيل حتى مضـى له من إنذارهم أكثر مما مضـى من الزمان لأمة هذا النبي الحاتم إلى يومنا هذا، وأخبره الله أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن معه، تسـبب عن ذلك الدعاء بالراحة منهم، فلذلك قال صـارفاً وجه الخطاب إلى صـفة الإحسـان والربوبية والامتنان إيذاناً بأنه أجاب دعاءه ولبى نداءه: {فدعا ربه} أي الذي رباه بالإحسان إليه برسالته معلماً له لما أيس من أجابتهم: {أني مغلوب} أي من قومي كلهم بالقوة والمنعة لا بالحجة، وأكده لأنه من يأبى عن الملك

الأعظم يكون مظنة النصـرة، وإبلاغاً في الشـكاية إظهاراً لذل العبودية، لأن الله سبحانه عالم بسر العبد وجهره، فما شرع الدعاء في أصله إلا لإظهار التذلل، وكذا الإبلاغ فيه {فانتصـر *} أي أوقع نصـري عليهم أنت وحدك على أبلغ وجه.

ولما استجاب له سبحانه، سبب عن دعائه قوله، عائداً إلى مظهر العظمة إعلاماً بمزيد الغضـب الموجب دائماً للاستيعاب بالغضـب: {ففتحنا} أي تسـبب عن دعائه أنا فتحنا فتحاً يليق بعظمتنا {أبواب السـماء} كلها في جميع الأقطار، وعبر بجمع القلة عن الكثرة لأن عادة العرب أن تستعيره لها وهو أرشـق وأشـهر من بيبان، وسـياق العظمة يأبى كونه لغيرها. ولما كان المراد تهويل أمر الماء بذكر حاله التي كان عليها حتى كأن المحدث بذلك شاهده جعلت كأنه آية فتحت بها السماء فقال: {بماء منهمر *} أي منصب بأبلغ ما يكون من السيلان والصب عظماً وكثرة، ولذلك لم يقل: بمطر، لأنه خارج عن تلك العادة، واستمر ذلك أربعين يوماً {وفجرنا} أي صدعنا بما لنا من العظمة وشققنا وبعثنا وأرسلنا {الأرض عيوناً} أي جميع عيون الأرض، ولكنه عدل عنه للتهويل بالإبهام ثم البيان، وإفادة لأن وجه الأرض صـار كله عيوناً.

ولما كان الماء اسـم جنس يقع على الأنواع المختلفة كما يقع على النوع الواحد، وكان قد ذكر ماء السـماء والأرض، سـبب عن ذلك قوله: {فالتقى الماء} أي المعهود وهو ماء السماء وماء الأرض بسبب فعلنا هذا، وزاد في تعظيمه بأداة الاستعلاء فقال: {على أمر} ولما تقررت هذه العظمة لهذه

الواقعة، فكان ربما ظن أنه صـــار جزافاً، وزاد على الحد المأمور به، أشـــار إلى أنه بالنسبة إلى عظمته في غاية الحقارة فقال: {قد قدر *} أي مع كونه مقدوراً عليه في كل وقت بغاية السهولة قد وقع تقديره في الأزل، فلم يستطع أن يزيد على ذلك قطرة فما فوقها ولا أن يهلك غير من أمرنـاه بـإهلاكـه، وأشار بالتخفيف إلى غاية السهولة في ذلك سبحانه.

▲ تفسير الآيات رقم [13- 18]

{وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13)
تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14)
وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آَيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15)
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (16)
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآَنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17)
كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18)}

ولما ذكر ما علم منه بقرينة ما ذكر من خرقه للعادة، وأن إجابته لدعوته عليه الصـلاة والسـلام، ذكر تمام الانتصـار بنجاته فقال: {وحملناه} أي بما لنا من العظمة على متن ذلك الماء بعد أن صـار جميع وجه الأرض مجرى واحداً، وحذف الموصـــــوف تهويلاً بالحث على تعرفة بتأمل الكلام فقال: {على ذات} أي سفينة ذات {ألواح} أي أخشاب نجرت حتى صارت عريضة {ودسـر *} جمع دسـار وهو ما يشـد به السـفينة وتوصـل بها ألواحها ويلج بعضـها ببعض بمسـمار من حديد أو خشـب أو من خيوط الليف على وجه الضـخـامة والقوة الدفع والمتانة، ولعله عبر عن السـفينة بما شـرحها تنبيهاً

على قدرته على ما يريد من فتق الرتق ورتق الفتق بحيث يصـــير ذلك المصـــنوع، فكان إلى ما هيأه ليراد منه وإن كان ذلك المراد عظيماً وذلك المصنوع.

ولما كان ذلك خارقاً للعادة فكان يمكن أن يكون في الســفينة خارق آخر بإســكانها على ظهر الماء من غير حركة، بين أن الأمر ليس كذلك فقال مظهراً خارقاً آخر في جريها: {تجري} أي السفينة {بأعيننا} أي محفوظة أن تدخل بحر الظلمات، أو يأتي عليها غير ذلك من الآفات، بحفظنا على ما لنا من العظمة حفظ من ينظر الشيء كثرة ولا يغيب عنه أصلاً، وجوزوا أن يكون جمع تكســير لعين الماء، ثم علل ذلك بقوله: {جزاء} أي لعبدنا نوح عليه الســلام، ولكنه عبر هنا بما يفهم العلة ليحذر الســامع وقوع مثل ذلك العذاب له إن وقع منه مثل فعل قومه فقال: {لمن} وعبر عن طول زمان كفرهم بقوله: {كان كفر *} أي وقع الكفر به وهو أجل النعم، فقال على أهل ذلك الزمان وذلك جزاء من كفر النعم، ويجوز أن يكون المراد به قومه بين أنه وقع الكفر منهم وقوعاً كأنهم مجبولون عليه حتى كأنه وقع عليهم لتوافق قراءة مجاهد بالبناء. للفاعل.

ولما تم الخبر عن نجاته بحمله فيها، نبه عن آثارها بقوله: {ولقد تركناها} أي هذه الفعلة العظيمة من جري الســفينة على هذا الوجه وإبقاء نوعها دالة على ما لنا من العظمة، وقيل: تلك السفينة بعينها بقيت على الجودي حتى أدرك بقايا ما هذه الأمة {آية} أي علامة عظيمة على ما لنا من العلم

المحيط والقدرة التامة {فهل من مدكر *} أي مجتهد في التذكير بسبب هذا الأمر لما يحق على الخلق من شكر الخالق بما هدت إليه رسله كما قالوه.

ولما قدم تعالى قوله: {فما تغن النذر} وأتبعه ذكر إهلاكه المكذبين، وكان ما ذكره من شأنهم أمرهم في الجلالة والعظمة بحيث يحق للسامع أن يسأل عنه ويتعرف أحواله ليهتدي بها على ذلك بقوله مسبباً عن التذكير باستفهام الإنكار والتوبيخ: {فكيف كان} أي وجد وتحقق {عذابي} أي لمن كذب وكفر وكذب رسلي {ونذر *} أي الإنذارات الصادرة عني والمنذرون المبلغون عني فإنه أنجى نوحاً عليه السلام ومن آمن معه من أولاده وغيرهم ومتعهم بعد إهلاك عدوهم وجعل الناس الآن كلهم من نسله، قال القشيري: في هذا قوة لرجاء أهل الدين إذا لقوا في دين الله محنة فجحد غيرهم ما آتاه الله أن يهلك الله عن قريب عدوهم ويمكنهم من ديارهم وبلادهم ويورثهم ما كان إليهم، وكذلك سنة الله في جميع أهل الضلال- انتهى.

وكان المعنى في تكرير ذلك عليهم بعد التذكير بما أتيناهم به من قصص هذه الأمم ميسراً لفهم صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم كيف كان أخذي لهم وعاقبة تخويفي إياهم لعلهم يتعظون فينفعهم إنذار المنذرين.

ولما كان هذا التفصيل مما أنزل أول القرآن تيسيراً على الأمة، نبه على ذلك بقوله: {ولقد يسرنا} أي على ما لنا من العظمة {القرآن} أي على ما له من الجمع والفرق والعظمة المناسبة لكونه صفة لنا {للذكر} أي الاتعاظ والتذكر والتدبر والفهم والحفظ والتشريف لمن يراعيه، قال ابن برجان: أنزلناه باللسان العربي وأنزلناه للأفهام تنزيلاً وخاطبناهم بعوائدهم وأعلمنا من قبل أعمالهم

وأقبسناهم المعرفة واليقين من قبل ذواتهم وضربنا لهم الأمثال وأطلنا لهم في هذه الأعمال ليتذكروا الميثاق المأخوذ عليهم، وقال القشـيري: يسـر قراءته على ألسنة قوم، وعلمه على قلوب قوم، وفهمه على قلوب قوم، وحفظه على قلوب قوم، وكلهم أهل القرآن وكلهم أهل الله وخاصـته- انتهى. والآية ناظرة بالعطف والمعنى إلى {ولقد جاءهم من الأنباء} الآيتين، فالمعنى أنا ولو شـئنا بما لنا من العظمة لجئناهم بعبارات لا يشـمون رائحتها، وبلاغات لا يهتدون إلى وجه معناها أصـــلاً لكننا لم نفعل ذلك بل خاطبناهم بأبلغ من بلاغتهم مع تيسير فهم ما خاطبناهم به فكان في ذلك إعجازان: أحدهما أنه فوق بلاغتهم، والثاني أنه مع علوه يشـترك في أصـل فهمه الذكي والغبي. ولما كان هذا القرآن العظيم الجامع ترجمة لأفعاله سـبحانه في هذا الوجود الشاهد والغائب الذي أخبرنا عنه وشرحنا لما أنزل علينا من أسمائه الحسنى وصـــفاته العليا التي تعرف لنا بها، وكان سـبحانه قد جعل خلق الآدمي جامعاً، فما من شـيء من أفعاله إلا وفي نفسـه منه أثر ظاهر ناظر للتفكر في القرآن والتعرف للأسـرار منه بالتذكير الذي يكون... لما كان الإنسـان يعرفه ثم نسـيه حتى صـار لا يسـتقل باسـتحضـاره فإذا ذكر به ذكره، فقال منبهاً على عظيم فعل العلم والقرآن الذي هو طريقه بالتكرار والتعبير بما هو من الذكر على أنه المحفوظ للإنسـان بما هيأ له من تيسـير أمره {فهل من مدكر *} قال البخاري في آخر صـحيحه: قال مطر الوراق: هل من طالب علم فيعان عليه، وقد تكررت هذه الموعظة في هذه السـورة أربع مرات، وذكرت الجملة الأخيرة منها منفكة عن تيسـير القرآن مرتين : مرة في أول

القصــص وهي قصـــة نوح عليه الســلام، ومرة كما يأتي في آخرها، وذلك عقب قصــة فرعون وهو قوله: {فكيف كان عذابي ونذر} مثل ذلك، وكررت {فبأي ألاء ربكما تكذبان} في الرحمن إحدى وثلاثين مرة، فنظرت في ســر ذلك فظهر لي– والله الهادي– أن الذي تقدم في ســورة المفصـــل على هذه السورة أربع سور هذه السورة خاتمتها فأشير إلى التذكر بكل سورة منها حثاً على تدبرها بآية ختمت كلماتها بكلمة عادت حروفها في الســـور الخمس وأدغم حرف منها في آخر بعد قلب كل منهما، فكانت هذه الكلمة التي مدلولها الذكر مشـــيرة إلى الحواس الخمس الظاهرة التي هي مبادئ العلم، وكان ما في أول هذه المواعظ وآخرها لخلوه عن ذكر القرآن موازياً للحرفين اللذين طرفهما للوهن بالتعبير والقلب لكن كان الحرفان بالإدغام كحرف واحد، كانت الجملتان الموازيتان لهما كآية واحدة من تلك الأربع، وكان هذا الأول والآخر مشاراً به إلى هذه السورة التي جمعت التذكير بالسورة الأربع، وأعريت عن ذكر تيسـير القرآن لافتتاح السـور السـور بمحو وما يقرب من المحو وهو آية الليل والتيسير فيها والساعة التي هي أغيب الغيب، وكل من فيها ســوى الله محو لســلب الأمر كله عنهم وخصـــت بها الأولى والآخرة لجامع بينهما من غرق العصــا في الماء ونجاة المطيعين بعضــهم بالسـفينة وبعضهم بنفس البحر الذي هو مسرح السفن، وكانت الموعظة المذكور فيها القرآن في ختام قصــة نوح عليه الســلام مع عمومها لجميع القرآن إشـارة إلى خصــوص التذكير بســورة ق لما بينهما من جامع الإحاطة بإحاطة جبل ق بالأرض كلها وطوفان قوم نوح عليه الســـلام بعموم جميع الأرض والتي في

سورة عاد إشارة إلى سورة الذاريات لأن كلاهم كان بالريح، والتي في قصة ثمود إشـــارة إلى التذكير بالطور بجامع ما بينهما من الرج والرجف والذل والصـــعق، أما في قصـــة ثمود فظاهر، وأما في الطور فلما كان من دكه وصعق بني إسرائيل فيه، وقد ذكر الصعق في آخر الطور، وما في قصة لوط إشـــارة إلى النجم لأن مدائنهم ارتفعت إلى عنان الســـماء ثم أهويت وأتبعت الحجارة، فلما كان الأمر هكذا، وكانت النعم محيطة بالإنســـان من جهاته الست، فضربت الحواس الخمس في الجهات الست، فكانت ثلاثين، كأنه قيل: هل مذكر بهذا القرآن، ولا سيما ما تقدم على هذه السورة منه في المفصل ما لله عليه من النعم في نفسه وفي الآفاق المشار إلى القسم الأول منها بمذكر وإلى الثاني بتكرير ذكر الآلاء فكل آية تكرير انتهى إلى العدد المخصـوص وإلى المجموع بالمجموع ليعلم أن نعم الله محيطة به على وجه لا يقدر على صـــنعه إلا الله الذي له الإحاطة بجميع صـــفات الكمال التي أعظمها- من حيث كونه أساساً يبنى عليه- الوحدانية المنزهة عن الشركة فيخشى من معصيته أن يسلبه نعمه أو واحدة منها فلا يجد من يقوم بها ولا بشيء منها غيره أو يعذبه بشيء مثل عذاب هذه الأمم أو بغير ذلك مما له من إحاطة القدرة والعلم فلا يجد من يرد عنه شيئاً منه سبحانه، وأما الواحد الزائد فهو إشـــارة إلى أن المدار في ذلك الإدراك هو العقل والحواس كما أن المقصـود بذلك كله واحد وهو الله تعالى، وكل هذه الأشياء أسباب لمعرفته وأيضاً فالواحد إشارة إلى أن زيادة الآلاء من فضل الله تعالى لا تنقطع كما أن الواحد الذي هو أصـــل العدد لا يزال، فكلما أغنت زيادتها ابتدأ دور ثم

ابتدأ دور آخر دائماً أبداً، وللتكرير نكتة أخرى بديعة جداً، وهي تأكيد التقرير دلالة على اشتداد الغضب المقتضي لأنهى العقوبة كما أن من اشتد غضبه من إنكار شـــخص لشـــيء من قتله إذا بينه غاية البيان بأمور متنوعة وهو يتمرد ويلد غاية اللدد يأخذه فيجمع له جمعاً لا يقدر على العدول عن الحق بحضرتهم.

وهو يذعن وهو في قبضته فيذكر تلك المعاني بين ذلك الجمع، فيصير كلما ذكر له نوعاً منها بحضرتهم، قال له: هل ظهر لك هذا؟ فيقول ذاك المنكر: نعم ظهر لي، فلا يريد ذلك إلا غضـباً لما تقدم له من عظيم غضـبه ولدده فيذكر له معنى آخر ثم يقول: هل ظهر لك هذا؟ فيقول: نعم والله لا يعرج على اعترافه ذلك ويذكر له نوعاً آخر، ويقول مثل ذلك يريد الزيادة في تبكيته وتخجيله، وهكذا إلى أن يشتفي- كل ذلك للتنبيه على لدده وكفاية كل نوع منها لما أريد منه من البيان، وقال في الكشـاف: فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين أدكاراً واتعاظاً وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً إذا ســمعوا الحث عليه والبعث على ذلك كله وأن يقرع لهم العصـــى مرات ويقعقع لهم الســن تارات، لئلا يغلبهم الســهود ويســتولي عليهم حكم الغفلة، وهكذا حكم التكريرات لتكون العبر حاضــرة للقلوب مصــورة للأذهان مذكورة غير منســية في أوان- انتهى، ولمثل ما مضـــى أو قريب منه كرر التهويل بالعذاب ست مرات: أربع منها {فكيف كان عذابي ونذر} واثنان منها {فذوقوا عذابي ونذر} فهما بمنزلة واحدة من الأربع ليرجع الســت إلى الخمس الدال عليها {مدكر} إشارة إلى أن الحواس الخمس كما ضربت في الجهات الست

لأجل النعم التي هي جلب المصـالح ضـربت فيها للتذكير بدفع النقم الذي هو درأ المفاسد والتحذير منها، ومن فوائد تكرر الست الراجعة إلى الخمس مرتين : مرة لجلب النعم وأخرى لدفع النقم أن الحواس مكررة ظاهراً وباطناً، فمن ذل لسانه بالقرآن ظاهراً صحت حواسه الظاهرة ونورت له الباطنة، ومن أبى عذب بسبب الباطنة فتفسد الظاهرة، واختير للموعظتين عدد الست مع إرادة جماعة إلى خمسة لأن الست عدد تام وذلك لأن عدد كسورها إذا جمعت سادتها ولم تزد عنها ولم تنقص وهي النصف والثلث والسدس، وهذا العدد مساو لدعائم الإسلام الخمس وحظيرته الجهاد التي هي عماد تقوى المتقين أهل مقعد الصدق الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إلى نبيهم صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله المشار به إلى الصيام

{كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم} [البقرة: 183] والحج {وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً} [البقرة: 125] والجهاد {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة} [البقرة: 214] إلى قوله: {كتب عليكم القتال وهو كره لكم} [البقرة: 216] وذلك إشارة إلى أن هذا الدين تام لا زيادة فيه ولا نقص لأن النبي الذي أرسل ختام الأنبياء، وتمام الرسل الأصفياء. ولما كان قوم عاد قد تكبروا بشدتهم وقوتهم، وكانت حال قريش قريبة من ذلك لقولهم إنهم أمنع العرب وأقواهم وأجمعهم للكمالات وأعلاهم، كرر ذلك في قصتهم مرتين زيادة في تذكير قريش وتحذيرهم ولا سيما وقد كان بدء عذابهم من بلدهم مكة المشرفة كما هو مشروح في قصتهم، وكرر الأمر بالذوق في قصة لوط

عليه السلام لأنهم عذبوا بما يردع من كان له قلب بالطمس، فلما لم ينفعهم ذلك أتاهم أكبر منه فكانوا كأمس الدابر، فلكل مرة من العذاب من الأمر بالذوق، وخصوا بالأمر بالذوق لما في فاحشتهم الخبيثة ما يستلذونه، وقد عم عذاب هذه الأمم جميع الجهات بما لقوم نوح ولوط عليهما السلام من جهة الغرق بالماء الماطر وحجارة السجيل ومن البحث من الماء النابع والخسف، وما في عموم عذابهم من استغراق بقية الجهات– والله الهادي.

ولما انقضت قصة نوح عليه السلام على هذا الهول العظيم، كان ذلك موجباً للسامع أن يظن أنه لا يقصر أحد بعدهم وإن لم يرسل برسول فكيف إذا أرسل، فتشوف إلى علم ما كان بعده هل كان كما ظن أم رجع الناس إلى طباعهم؟ وكانت قصة عاد أعظم قصة جرت بعد قوم نوح عليه السلام فيما يعرفه العرب فيصلح أن يكون واعظاً لهم، وكان عذابهم بالريح التي أهلكتهم ونسفت جبالهم التي كانت في محالهم من الرمال المتراكمة، فنقلها إلى أمكنة أخرى أقرب دليل إلى أنه تعالى يسير الجبال يوم الدين، هذا إلى ما في صفها الخارج عن العوائد من تصوير النفخ في الصور تارة للقيامة وتارة للأحياء، فأجيب بقوله: {كذبت عاد} أي أوقعت التكذيب العام المطلق الذي أوجب تكذيبهم برسولي هود عليه السلام في دعوته لهم إليّ وإنذاره لهم عذابي.

ولما كان عادة الملوك أو بعضهم أنه إذا أهلك قوماً كثيرين من جنده نجا ناس مثلهم بمثل ذنوبهم أن يرفع بهم، ويستألفهم لئلا يهلك جنده، فيختل ملكه، عقب الإخبار بتكذيبهم الإعلام بتعديهم لأنه لا يبالي بشيء لأن كل

شـــيء في قبضـــته، ولما كان تكذيبهم إلا بإرادته كا أن عذابه بمشـيئته، قال مسـبباً عن ذلك: {فكيف} أي فعلى الأحوال لأجل تكذيبهم {كان عذابي لهم ونذر *} أي وإنذاري إياهم بلســـان رســـولي، وكرر في آخر قصـــتهم هذا الاستخبار، فكان في قصتهم مرتين كما تقدم من سره- والله أعلم.

▲ تفسير الآيات رقم [19- 26]

{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19)
تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20)
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21)
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22)
كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23)
فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24)
أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25)
سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26)}

ولما ذكر تكذيبهم وأعقبه تعذيبهم، علم الســامع أنه شـديد العظمة فاسـتمطر أن يعرفه فاســـتأنف قوله، مؤكداً تنبيهاً على أن قريشـــاً أفعالهم في التكذيب كأفعالهم كأنهم يكذبون بعذابهم: {إنا أرســـلنا} بعظمتنا، وعبر بحرف الاســتعلاء إعلاماً بالنقمة فقال: {عليهم ريحاً} ولما كانت الريح ربما كانت عياناً، وصفها بما دل على حالها فقال: {صرصراً} أي شديد البرد والصوت. ولما كان مقصــود الســورة تقريب قيام الســاعة ووصــف ســيرهم إلى الداعي بالإسـراع، ناسـب أن يعبر عن عذابهم بأقل ما يمكن، فعبر باليوم الذي يراد

به الجنس الشـــامل للقليل والكثير وقد يعبر به عن مقدار من الزمان يتم فيه أمر ظاهر ســـواء لحظة أو أياماً أو شـــهوراً أو كثيراً من ذلك أو أقل كيوم البعث ويوم بدر ويوم الموت بقوله تعالى :- {إلى ربك يومئذ المســـاق}- [القيامة: 35]: {في يوم} وأكد شؤمها بذم زمانها فقال: {نحس} أي شديد القباحة، قيل: كان يوم الأربعاء آخر الشـــهر وهو شـــوال لثمان بقيت إلى غروب الأربعاء، وحقق لأن المراد باليوم الجنس لا الواحد بالوصـــف فقال: {مســـتمر *} أي قوي في نحوســـته نافذ ماض فيما أمر به من ذلك شـديد أســـبابه، موجود مرارته وجوداً مطلوباً من مرســـله في كل وقت، مســـتحكم المرارة قويها دائمها إلى وقت إنفاذ المراد.

ولما علم وصـــفها في ذاتها، أتبعه وصـــفها بما يفعل فيه فقال: {تنزع} أي تأخذ من الأرض بعضـهم من وجهها وبعضـهم من حفر حفروها ليتمنعوا بها من العذاب، وأظهر موضع الإضمار ليكون نصاً في الذكور، والإناث فعبر بما هو من النوس تفضـيلاً لهم فقال: {الناس} الذين هم صـور لا ثبات لهم بأرواح التقوى، فتطيرهم بين الســـماء والأرض كأنهم الهباء المنثور، فتقطع رؤوســهم من جثثهم وتغير ألوانهم تعتيماً لهم إلى السـواد، ولذا قال: {كأنهم} أي حين ينزعون فيلقون لا أرواح فيهم كأنهم {أعجاز} أي أصـــول {نخل} قطعت رؤوســها. ولما كان الحكم هنا على ظاهر حالهم، وكان الظاهر دون الباطن، حمل على اللفظ قوله: {منقعر *} أي منقصـــف أي منصـــرع من أسفل قعره وأصل مغرسه، والتشبيه يشير إلى أنهم طوال قد قطعت رؤوسهم،

وفي الحافة وقع التشبيه في الباطن الذي فيه الأعضاء الرئيسة، والمعاني اللطيفة، فأنث الوصف حملاً على معنى النخل لا للطفها- والله أعلم.

ولما طابق ما أخبر به من عذابهم ما هو له به أولاً، أكد ذلك لما تقدم من سره فقال مسبباً عنه مشيراً إلى أنه لشدة هوله مما يجب السؤال عنه: {فكيف كان} أيها السائل، ولفت القول إلى الإقرار تنبيهاً للعبيد على المحافظة على مقام التوحيد: {عذابي} لمن كذب رسلي {ونذر *} أي وإنذاري أو رسلي في إنذارهم هل صدق.

ولما أتم سبحانه تحذيره من مثل حالهم بأمر ناظر أتم نظر إلى تدبير ما في سورة الذاريات، أتبع ذلك التنبيه على أنه ينبغي للسامع أن يتوقع الحث على ذلك، فقال مؤكداً لما لأكثر السامعين من التكذيب بالقال أو بالحال معلماً أنه سهل طريق الفرار من مثل هذه الفتن الكبار إليه، وسوى من الاعتماد عليه، عائداً إلى مظهر العظمة إيذاناً بأن تيسير القرآن لما ذكر من إعجازه لا يكون إلا لعظمة تفوت قوى البشر، وتعجز عنها القدرة {ولقد يسرنا} على ما لنا من العظمة في الذات والصفات {القرآن} الجامع الفارق كله وما أشارت إليه هذه القصة من مفصله {للذكر} للحفظ والشرف والفهم والتدبير والوعظ والاتعاظ ما صرفنا فيه من أنواع الوعظ مع التنبيه للحفظ بالإيجاز وعذوبة اللفظ وقرب الفهم وجلالة المعاني وجزالة السبك وتنويع الفنون وتكثير الشعب وإحكام الربط {فهل من مدَّكر *} أي تسبب عن هذا الأمر العظيم الذي فعلناه أنه موضع السؤال عن أحوال السامعين: هل فيهم من يقبل على حفظه ثم تدبره وفهمه ويتعظ بما حل بالأمم السالفة، ويتذكر

جميع ما صرف من الأقوال وينزلها على نفسه وما لها من الأحوال، ويجعل ذلك لوجهنا فيلقيه بتشريفه به أمر دنياه وأخراه.

ولما كان هذا موضـــــع الإقبال على تدبر مواعظ القرآن، وكان ثمود أعظم وعظ كان بعد عاد لما في صيحتهم الخارجة عن العهود من تصوير الساعة بنفختيها المميتة ثم المحيية، وقال مؤنثاً فعلهم إشـــــارة إلى ســـــفول هممهم وسـفول فعلهم معلماً أن من كذب هلك- على طريق الجواب لمن لعله يقول استبعاداً لتكذيب بعد ما جرى في القصتين الماضيتين من التعذيب: {كذبت ثمود} أي قوم صالح {بالنذر *} الإنذارات والمنذرين كلهم لأنهم شرع واحد، ثم علل ذلك وعقبه بقوله معلماً بالضمير أن المباشر بهذا الكفر رجالهم لئلا يظن أنهم نســـاء فقط: {فقالوا} منكرين لما جاءهم من الله غاية الإنكار: {أبشراً} إنكاراً لرسالة هذا النوع ليكون إنكار النبوة إنكاراً لنبوة نبيهم على أبلغ الوجوه، وأعظم الإنكار بقولهم مقدمين عدم الانفراد عنهم لخصوصيته: {منا} أي فلا فضل له علينا فما وجه اختصاصه بذلك من بيننا، وزادوا ذلك تأكيداً فقالوا: {واحداً} أي ليس معه من يؤيده، ثم فسـر الناصـب لقوله: {بشـراً} بقوله: {نتبعه *} أي نجاهد نفســنا في خلع مألوفنا وخلاف آبائنا والإقرار على أنفســنا بسـخافة العقل والعراقة في الجهل ونحن أشـد الناس كثرة وقوة وفهماً ودراية، ثم استنتجوا عن هذا الإنكار الشديد قولهم مؤكدين الاستشعار بأن كلامهم أهل لأن يكذب: {إنا إذاً} أي إن اتبعناه {لفي ضلال} أي ذهاب عن الصواب محيط بنا {وسعر *} أي تكون عاقبتنا في ذلك الضلال الكون في أوائل أمر لا ندري عاقبته، فإنه لم يجرب ولم يختبر ولم يمعن أحد قبلنا

سلفاً لنا فيجرنا ذلك إلى جنون وجوع ونار كما يكون من يأتوه في القفار في أنواع من الحر بتوقد حر الجبال وحر الضلال وحر الهموم والأوجال- وذلك من النار التي توعدنا بها، وهو معنى تفسير ابن عباس رضي الله عنهما له بالعذاب، وجعل سفيان بن عيينه له جمع سعير، والمعنى إنا نكون إذا اتبعناك كما تقول جامعين بين الضلال والعذاب بسائر أنواعه.

ولما كان فيما قالوه أعظم تكذيب مدلول على صحته في زعمهم بما أمؤوا إليه من كونه آدمياً مثلهم، وهو مع ذلك واحد من أحادهم فليس هو بأمثلهم وهو منفرد فلم يتأيد فكره بفكر غيره حتى يكون موضع الوثوق به، دلوا عليه بأمر آخر ساقوه أيضاً مساق الإنكار، وأموؤا بالإلقاء إلى أنه في إسراعه كأنه سقط من علو فقالوا: {أألقي} أي أنزل بغتة في سرعة لأنه لم يكن عندهم في مضمار هذا الشأن ولم يأتمروا فيه قبل إتيانه به شيء منه بل أتاهم به بغتة في غاية الإسراع. ولما كان الإلقاء يكون للأجسام غالباً، فكان لدفع هذا الوهم تقديم النائب عن الفاعل أولى بخلاف ما تقدم في ص فقالوا: {الذكر} أي الوحي الذي يكون به الشرف الأعظم، وعبروا بعلى إشارة إلى أن مثل هذا الذي تقوله لا يقال إلا عن قضاء غالب وأمر قاهر فقال: {عليه} ودلوا على وجه التعجب والإنكار بالاختصاص بقولهم: {من بيننا} أي وبيننا من هو أولى بذلك سناً وشرفاً ونبلاً.

ولما كان هذا الاستفهام لكونه إنكارياً بمعنى النفي، أضربوا عنه بقولهم على وجه النتيجة عطفاً على ما أفهمه الاستفهام من نحو: ليس الأمر كما زعم: {بل هو} لما أبديناه من الشبه {كذاب} أي بليغ في الكذب {أشر *} أي مرح

غلبت عليه البطالة حتى أعجبته نفسه بمرح وتجبر وبطر، ونشط في ذلك حتى صار كالمنشار الذي هو متفرغ للقطع مهيأ له خشن الأمر سيئ الخلق والأثر فهو يريد الترفع.

ولما كان هذا غاية الذم لمن يستحق منهم غاية المدح، أجاب تعالى عنه موعظة لعباده لئلا يتقولوا ما يعلمون بطلانه أو يقولوا ما لا يعلمون صحته بقوله: {سيعلمون} بوعد لا خلف فيه. ولما كان المراد التقريب لأنه أقعد في التهديد، قال: {غداً} أي في الزمن الآتي القريب لأن كل ما حقق إتيانه قريب عند نزول العذاب في الدنيا ويوم القيامة، وقراءة ابن عامر وحمزة ورويس عن يعقوب بالخطاب التفات يعلم بغاية الغضب {من الكذاب الأشر *} أي الكذب والأشر وهو احتقار الناس والاستكبار على ما أبدوه من الحق مختص به ومقصود عليه لا يتعداه إلى مرميه وذلك بأنهم جعلوا الكذب ديدنه ولم يتعدهم حتى يدعى شيء منه لصالح عليه الصلاة والسلام، فكان الكلام معيناً لهم في الكذب قاصراً عليهم بسياقه على هذا الوجه المبهم المنصف الذي فيه من روعة القلب وهز النفس ما لا يعلمه حق علمه إلا الله تعالى، وكلما كان الإنسان أسلم طبعاً وأكثر علماً كان له أعظم ذوقاً.

▲ تفسير الآيات رقم [27– 31]

{إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27)
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28)
فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (29)
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30)

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31)}

ولما علم من هذا أنه سبحانه فصل الأمر بينهم، تشوف السامع إلى علم ذلك فقال تعالى مستأنفاً دالاً بأنهم طالبوه بآية دالة على صدقه: {إنا} أي بما لنا من العظمة {مرسلو الناقة} أي موجدوها ومخرجوها كما اقترحوا من حجر أهلناه لذلك وخصصناه من بين الحجارة دلالة على إرسالنا صالحاً عليه السلام: مخصصين له من بين قومه، وذلك أنهم قالوا لصالح عليه السلام: نريد أن نعرف المحق منا بأن ندعو آلهتنا وتدعو إلهك فمن أجابه إلهه علم أنه المحق، فدعوا أوثانهم فلم تجبهم، فقالوا : ادع أنت، فقال : فما تريدون؟ قالوا: تخرج لنا من هذه الصخرة ناقة تبعر عشراء، فأجابهم إلى ذلك بشرط الإيمان، فوعدوه بذلك وأكدوا فكذبوا بعد ما كذبوا في أن آلهتهم تجيبهم، وصدق هو صلى الله عليه وسلم في كل ما قال فأخبره ربه سبحانه أنه يجيبهم إلى إخراجها {فتنة لهم} أي امتحاناً يخالطهم به فيميلهم عن حالتهم التي وعدوا بها ويجيبهم عنها، وسبب سبحانه عن ذلك أمره بانتظارهم فيما يصنعون بعد إخراجهم لما توصلهم إليه عواقب الفتنة فقال: {فارتقبهم} أي كلف نفسك انتظارهم فيما يكون لهم جزاء على أعمالهم انتظار من يحرسهم وهو عالم عليم فإنهم واصلون بأعمالهم إلى الداهية التي تسمى بأم العرقوب ليكونوا كمن جعل في رقبته، ودل بصيغة الافتعال على أنه يكون له منه أذى بالغ قبل انفصال النزاع فقال: {واصطبر *} أي عالج نفسك واجتهد في الصبر عليهم {ونبئهم} أي أخبرهم إخباراً عظيماً بأمر عظيم، وهو أن الماء الذي يشربونه وهو ماء بئرهم {أن الماء قسمة

بينهم} أي بين ثمود وبين الناقة، غلب عليها ضـــمير من يعقل، يعني إذا بعثناها كان لهم يوم لا تشـــاركهم فيه في الماء، ولها يوم لا تدع في البئر قطرة يأخذها أحد منهم، وتوسع الكل بدل الماء لبناً. ولما أخبر بتوزيع الماء، أعلم أنه على وجه غريب بقوله استئنافاً: {كل شرب} أي من ذلك وحظ منه ومورد البرو وقت يشـــرب فيه {محتضـــر *} أي أهل لما فيه من الأمر العجيب أن يحضره الحاضـرون حضوراً عظيماً، وتتكلف أنفسـهم لذلك لأنه صـار في كثرته وحسنه كماء الحاضرة للبادية وتأهل لأن تعارضـه حاضروه من حسنه ويرجعوا إليه وأن يجتمع عليه الكثير ويعودوا أنفسهم عليه.

ولما كان التقدير: فكان الأمر كما ذكرنا، واستمر الأمد الذي ضربنا فافتتنوا كما أخبرنا {فنادوا} بسبب الفتنة {صاحبهم} قذار بن سالف الذي انتدبوه بطراً وأشـراً لقتل الناقة وكذبنا فيها بوعدهم الإيمان وإكرامها بالإحسـان وهو أشـقى الأولين {فتعاطى} أي أوقع بســـبب ندائهم التعاطي الذي لا تعاطي مثله، فتناول ما لا يحق له أن يتناوله بسبب الناقة وهو سيفه بيده قائماً في الأمر الناشـئ عن هذا الأخذ على كل حال، ورفع رأسـه بغاية الهمة ومد يديه مداً عظيماً ورفعها وقام على أصـــابع رجليه حين عاطوه ذلك أي ســـألوه فيه فطاوعهم وتناول الناقة بذلك الســـيف غير مكترث ولا مبال {فعقر *} أي فتســـبب عن هذا الجد العظيم أن صـــدق فيما أثبت لهم الكذب في الوعد بالإحسـان إليها والأشـر، وهو إيقاع العقر الذي ما كان في ذلك الزمان عقر مثله وهو عقر الناقة التي هي آية الله وإهلاكها.

ولما وقع كذبهم على هذا الوجه العظيم المبني على غاية الأشـــر، حقق الله تعالى صدقه في توعدهم على تقدير وقوع ذلك، فأوقع عذابهم سبحانه على وجه هو من عظمه أهل لأن يتساءل عنه، فنبه سبحانه على عظمة بإيراده في أسلوب الاستفهام مسبباً عن فعل الأشقى فقال: {فكيف كان} وحافظ على مقام التوحيد كما مضــى فقال: {عذابي} أي كان على حال ووجه هو أهل لأن يجتهد في الإقبال على تعرفه والسؤال عنه {ونذر *} أي إنذاري. ولما علم تفرغ ذهن السائل الواعي، استأنف قوله مؤكداً إشارة إلى أن عذابهم مما يستلذ وينجح به، وإرغاماً لمن يستبعد النصيحة الواحد بفعل مثل ذلك، وإعلاماً بأن القدرة على عذاب من كذب من غيرهم كهي على عذابهم فلا معنى للتكذيب: {إنا} بما لنا من العظمة {أرسلنا} إرسالاً عظيماً، ودل على كونه عذاباً بقوله: {عليهم صيحة} وحقر شأنهم بالنسبة إلى عظمة عذابهم بقوله تعالى: {واحدة} صاحها عليهم جبريل عليه السلام فلم يكن بصيحته هذه التي هي واحدة طاقة، وتلاشــى عندها صــياحهم حين نادوا صـــاحبهم لعقر الناقة. ولما تسبب عنها هلاكهم قال: {فكانوا} كوناً عظيماً {كهشيم المحتظر *} أي محطمين كالشـــجر اليابس الذي جعله الراعي ومن في معناه ممن يجعل شيئاً يأوي إليه ويحتفظ به ويحفظ به ماشيته في وقت ما لا يقاله (؟) وهو حظيره أي شــيء مستدير مانع في ذلك الوقت لمن يدخل إليه فهو يتهشــم ويتحطم كثير منه وهو يعمله فتدوســه الغنم ثم تتحطم أولاً فأولاً، وكل ما سقط منه شــيء فداسته الغنم كان هشيماً، وكأنه الحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته.

▲ تفسير الآيات رقم [32- 39]

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآَنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32)
كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33)
إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آَلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا
كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35)
وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (36)
وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (37)
وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (38)
فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (39)}

ولما كان التقدير : فلقد أبلغنا في الموعظة لكل من يسمع هذه القصة، عطف عليه قوله مؤكداً لأجل من يعرض عن هذا القرآن ويعلل إعراضه عنه بصعوبته: {ولقد يسرنا} أي على ما لنا من القدرة والعظمة {القرآن} أي الكتاب الجامع لكل خير، الفارق بين كل ملبس {للذكر} أي الحفظ والتذكير والتذكر وحصول النباهة به والشرف إلى الدارين. ولما كان هذا غاية في وجوب الإقبال عليه لجميع المتولين، قال: {فهل من مدكر *} أي ناظر فيه بسبب قولنا هذا بعين الإنصاف والتجرد عن الهوى ليرى كل ما أخبرنا به فنعينه عليه . ولما كان النذير : كأنه قال المنذرين لم يتعظوا به فزاد في وعظهم، وكانت قصة لوط عليه السلام مع قومه أعظم ما كان بعد ثمود مما تعرفه العرب بالأخبار ورؤية الآثار، ومع ما في قصتهم من تصوير الساعة من تبديل الأرض غير الأرض، استأنف قوله: {كذبت قوم لوط} أي

وهم في قوة عظيمة على ما يحاولونه وإن كانوا في تكذيبهم هذا في ضعف وقوع النساء عن التجرد مما دل عليه تأنيث الفعل بالتاء وكذا ما قبلها من القصص {بالنذر *} أي الإنذار والإنذارات والمنذرين، ودل على تناهي القباحة في مرتكبهم بتقديم الإخبار عن عذابهم فقال: {إنا} أي بما لنا من العظمة {أرسلنا} ودل على أنه إرسال إهانة بقوله: {عليهم} ودل على هوانهم وبلوغ أمره كل ما يراد به بقوله: {حاصباً} أي ريحاً ترمي بحجارة هي دون ملء فكانت مهلكة لهم محرقة خاسفة مفرقة {إلا آل لوط} وهم من آمن به وكان بحيث إذا رأيته فكأنك رأيت لوطاً عليه السلام لما يلوح عليه من أفعاله والمشي على منواله في أقواله وأحواله وأفعاله.

ولما كان استثناؤهم مفهماً إنجاءهم مع التجويز لإرسال شيء عليهم غير مقيد بما ذكر، قال مستأنفاً جواباً لمن كأنه قال: ما حالهم: {تجيناهم} أي تنجية عظيمة بالتدريج، وذكر أول الشروع لإنجاءهم فقال: {بسحر *} أي بآخر ليلة من الليالي وهي التي عذب فيها قومه، فكأنه تنكيره لأنا لا نعرف تلك الليلة بعينها، ولو قصدت سحر الليلة التي صبحت منها كان معرفة لا ينصرف، والسحر: السدس الأخير من الليل: الوقت الذي يكون فيه الإنسان لا سيما النساء والأطفال في غاية الغفلة بالاستغراق في النوم، ويفتح الله فيها أبواب السماء باذن الدعاء ليحصل منه الإجابة لأن الملوك إذا فتحوا أبوابهم كان ذلك إذناً للناس في الدخول لقضاء الحوائج، فالنزول وفتح الأبواب كناية عن ذلك- والله سبحانه وتعالى متعال عن حاجة إلى نزول أو فتح باب أو غير ذلك.

ولما كان المراد من الموعظين الطاعة التي هي سبب النجاة، فلذا قال ذاكراً للإنعام معبراً عنه بغاية المقصــــود منه معرفاً أن انتقامه عدل ومعافاته فضل، لأن أحداً لا يقدر أن يكافئ نعمه ولا نعمة منها، معللاً للنجاة: {نعمة من عندنا} أي عظيمة غريبة جداً لشـــكرهم، ولما كان كأنه قيل : هل هذا مختص بهم.

. . الإنجاء من بين الظالمين وهو مختص بهم، أجاب بقوله: {كذلك} أي مثل هذا الإنجاء العظيم الذي جعلنا جزاء لهم {نجزي} بقدرتنا وعظمتنا {من شـــكر *} أي أوقع الشـــكر بجميع أنواعه فآمن وأطاع ليس . . . بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كائناً من كان من ســـوقة أو ســـلطان جائر شجاع أو جبان، فاننا عليه بالإنجاء بعد هلاك عدوه، قال القشيري: والشكر على نعم الدفع أتم من الشـــكر على نعم النفع، ولا يعرف ذلك إلا كل موفق كيس فالآية من الاحتباك: ذكر الإنعام أولاً– لأنه الســـبب الحقيقي– دليلاً على حذفه ثانياً، والشكر ثانياً– لأنه السبب الظاهر– دليلاً على حذفه أولاً.

ولما كان التقدير دفعاً لعناد... استشراف السامع إلى ما كان من حاله صلى الله عليه وسـلم معهم قبل العذاب: لقد بالغ في شـكرنا بوعظهم ونصـحهم ودعائهم إلنيا صرفاً لما أنعمنا به عليه من الرسالة في أتم مواضعه، عطف عليه إيماء إليه قوله، مؤكداً لأن تمادي المحذور من العذاب على الإقامة في موجبه يكاد أن لا يصـدق: {ولقد أنذرهم} أي رسـولنا لوط عليه السـلام {بطشـتنا} أي أخذتنا لهم المقرونة بشـدة ما لنا من العظمة، ووحد إشـارة إلى أنه لا يستهان بشـيء من عذابه سبحانه بل الأخذة الواحدة كافية لما لنا من

العظمـة فهي غير محتـاجـة إلى التثنيـة، ودل على أن إنـذاره كـان جـديراً بالقبول لكونه واضــح الحقيقة بما ســبب عن ذلك من قوله: {فتماروا} أي تكلفوا الشــك الواهي {بالنذر *} أي الإنذار مصــدراً والإنذارات أو المنذرين حتى أداهم إلى التكذيب، فكان سبباً للأخذ.

ولما كان ترك الاحتياط في إعمال الحيلة في وجه الخلاص من إنذار النذير عظيم العرافة في السفه دل على أنهم تجاوزوا ذلك إلى انتهاك حرمة النذير، فقال مقســماً لأن مثل ذلك لا يكاد يقع فلا يصــدق من حكاه: {ولقد راودوه} أي زادوا في التكذيب الموجب للتعذيب أن عالجوا معالجة طويلة تحتاج إلى فتل ودوران {عن ضــيفه} ليســلمهم إليهم وهم ملائكة في هيئة شــباب مرد، وأفردوا وإن كان المراد الجنس اســـتعظاماً لذلك لو كان الضـــيف واحداً {فطمسـنا} أي فتسـبب عن مراودتهم أن طمسـنا بعظمتنا {أعينهم} فسـويناها مع سائر الوجوه فصارت بحيث لا يرى لها شق، قال البغوي: هذا قول أكثر المفســرين، وذلك بصــفقة صــفقها لهم جبريل عليه الصــلاة والســلام، وقال القشــيري: مســح بجناحيه على وجوههم فعموا ولم يهتدوا للخروج، وقال ابن جرير: والعرب تقول: طمست الريح الأعلام- إذا دفنتها بما يسفي عليها من التراب.

فـانطلقوا هرابـاً مســـرعين إلى البـاب لا يهتـدون إليـه ولا يقعون عليـه بـل يصـــادمون الجدران خوفاً مما هو أعظم من ذلك وهم يقولون: عند لوط أسـحر الناس، وما أدتهم عقولهم أن يؤمنوا فينجوا أنفسـهم مما حل بهم، قال القشيري: وكذلك أجرى الله سبحانه سنته في أوليائه بأن يطمس على قلوب

أعدائهم حتى يلتبس عليهم كيف يؤذون أولياءه ويخلصـــهم من كيدهم. ولما كان... أول عذابهم قال: {فذوقوا} أي فتسبب عن ذلك أن قال قائل عن الله بلسان القال أو الحال: أيها المكذبون ذوقوا بسبب تكذيبكم لرسلي في إنذارهم {عذابي ونذر *} أي وعاقبة إنذاري على ألسنة رسلي.

ولما كان بقاؤهم بعد هذا على حال كفرهم عجباً إذ العادة قاضـــــية بأن من أخذ ارعوى ولو كان أفجر الخلق، وســأل العفو عنه صــدقاً أو كذباً خداعاً ومكراً ليخلص مما هو فيه. . . بثباتهم على تكذيبهم حتى عذبوا على قرب العهد فقال مقســماً: {ولقد صــبحهم} أي أتاهم في وقت الصــباح، وحقق المعنى بقوله: {بكرة} أي في أول النهار العذاب، ولو كان أول نهارك الذي أنت به كان معرفة فامتنع. . . {عذاب} أي قلع بلادهم ورفعها ثم قلبها، وحصــبها بحجارة من نار وخســفها وغمرها بالماء المنتن الذي لا يعيش به حيوان {مستقر *} أي ثابت عليهم غير مزايل بخيال ولا سحر كما قالوا عند الطمس فإنه أهلكهم فاتصل بعذاب البرزخ المتصل بعذاب القيامة المتصل بالعذاب الأكبر في الطبقة التي تناســـب أعمالهم من عذاب النار فقال لهم لســان الحال إن لم ينطلق لســان القال: {فذوقوا} بســبب أعمالكم {عذابي ونذر *}.

▲ تفسير الآيات رقم [40- 44]

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآَنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40)
وَلَقَدْ جَاءَ آَلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41)
كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42)
أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43)
أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44)}

ولما كرر هذا التكرير، علم منه أن سـببب العذاب التكذيب بالإنذار لأي رسول كان، وكان استئناف كل قصة منبهاً على أنها أهل على حدتها لأن يتعظ بها، علم أن التقدير: فلقد بلغت هذه المواعظ النهاية لمن كان له قلب، فعطف عليه قوله مذكراً بالنعمة التي لا عدل لها: {ولقد يسـرنا} أي تعالى جدنا وتناهى مجدنا {القرآن} الجامع الفارق {للذكر} ولو شئنا لأعليناه بما لنا من العظمة إلى الحد حتى تعجز القوي عن فهمه، كما أعليناه إلى رتبة وقفت القوى عن معارضـته في نظمه، أو مطلع لا يتشـبث بأذيال أدنى علمه، إلا الأفراد من حذاق العباد، فكيف بما فوق ذلك.

ولما كانوا مع ذلك واقفين عن المبادرة إليه والإقبال عليه، قال تلطفاً بهم وتعطفاً عليهم مسبباً عن ذلك: {فهل} وأكد فقال: {من مدكر *} مفتك لنفسه من مثل هذا الذي أوقع فيه هؤلاء أنفسهم ظناً منهم أن الأمر لا يصل إلى ما وصل إليه جهلاً منهم وعدم اكتراث بالعواقب.

ولما كان الآخر ينبغي له أن يحذر ما وقع للأول، وكان قوم فرعون قد جاء بعد قوم لوط عليه السـلام، فكان ربما ظن أنهم لم ينذروا لأن من علم أن

العادة جرت أن من كذب الرسل هلك أنكر أن يحصل ممن تبع ذلك تكذيب، قال مقسماً: {ولقد جاء آل فرعون} أي ملك القبط بمصر وأشرافه الذين إذا رؤوا كان كأنه رئي فيهم لشـــدة قربهم منه وتخلقهم بأخلاقهم {النذر *} أي الإنذارات والمنذرون بنذارة موســى وهارون عليهما الســلام، فإن نذارة بعض الأنبياء كنذارة الكل لأنه يأتي أحد منهم إلا وله من الآيات ما مثله آمن عليه البشـــر، والمعجزات كلها متســـاوية في خرق العادة، وكان قد أنذرهم يوسـف عليه السـلام، ولما كان كأنه قيل: فما فعلوا عند مجيء ذلك إليهم، قال: {كذبوا} أي تكذيباً عظيماً متسـهينين {بآياتنا} التي أتاهم بها موســى عليه السلام وغيرها لأجل تكذيبهم بها على ما لها من العظمة المعرفة قطعاً عن أنها من عندنا.

ولما كانت خوارق العادات كما مضـــى متســـاوية الأقدام في الدلالة على صدق الآتي بها، وكانوا قد صمموا على أنه مهما أتاهم بآية كذبوا بها، كانوا كأنهم قد أتتهم كل آية فلذلك قال: {كلها} وسبب عن ذلك القول: {فأخذناهم} أي بما لنا من العظمة بنحو ما أخذنا به قوم نوح من الإغراق {أخذ عزيز} أي لا يغلبه شيء وهو يغلب كل شيء {مقتدر *} أي لا يعجل بالأخذ لأنه لا يخاف الفوت ولا يخشـــى معقباً لحكمه، بالغ القدرة إلى حد لا يدرك الوصـــف كنهه لأن صـــيغة الافتعال مبناها على المعاجلة من عاجل فعلاً أجهل نفســه فيه، فكان على أتم الوجوه، وهذه الغاية هي المرادة ليس غيرها، فهو تمثيل لأنه ســـبحانه يخاطبنا بما نعبده، وبهذه المبالغة فلم يلفت منهم أحد، وقد ختمت القصص بمثل ما افتتحت به من عذاب المفسدين بالإغراق

ليطابق الختم البدء، وكانت نجاة المصــلحين من الأولين بالســفينة، وكانت نجاة المصلحين من الآخرين بأرض البحر كانت هي سفينتهم، ليكون الختم أعظم من البدء كما هو شأن أهل الاقتدار.

ولما بلغت هذه المواعظ الانتهاء، وعلت أقدامها على رتبة الســـها، ولم يبين ذلك كفار قريش عن شـــرادهم، ولا فتر من جحودهم وعنادهم، كان لســـان حالهم قائلاً: إنا لا نخاف شـيئاً من هذا، فكان الحال مقتضـياً لأن يقال لهم إلزاماً بالحجة: {أكفاركم} الراســـخون منكم في الكفر الثابتون عليه يا أيها المكذبون لهذا النبي الكريم الســاترون لشـموس دينه {خير} في الدنيا بالقوة والكثرة أو الدين عند الله أو عند الناس {من أولائكم} أي الكفار أي الكفار العظماء الجبابرة الأشـــداء الذين وعظناكم بهم في هذه الســـورة ليكون ذلك ســـبباً لافتراق حالهم منهم فيأمنوا العذاب مع جامع التكذيب وإن لم يكن لهم براءة من الله {أم لكم} أجمعين دونهم كفاركم وغير كفاركم {براءة} من العذاب من الله {في الزبر *} أي الكتب الآتية من عنده أأمنتم بها من العذاب مع أنهم خير منكم، فالآية من الاحتباك: أثبت الخيرية أولاً دليلاً على حذفها ثانياً، والبراءة ثانياً دليلاً على حذفها أولاً.

ولمـا بلغوا إلى هـذا الحـد من التمـادي في الكفر مع المواعظ البـالغـة والاستعطاف المكين، استحقوا أعظم الغضب، فأعرض عنهم الخطاب إيذاناً بذلك وإهانة لهم واحتقاراً وإقبالاً على النبي صلى الله عليه وسلم تسلية فقال عاطفاً على ما تقديره: أيدعون جهلاً ومكابرة شــيئاً من هذين الأمرين: {أم يقولون} أي هؤلاء الذي أنت بين أظهرهم تعاملهم باللين في القال والقيل

والصفح الجميل امتثالاً لأمرنا تعظيماً لقدرك فاستهانوا بك: {نحن جميع} أي جمع واحد مبالغ في اجتماعه فهو في الغاية من الضم فلا افتراق له {منتصر *} أي على كل من يناويه لأنهم على قلب رجل واحد، فالإفراد للفظ «جميع» ولإفهام هذا المعنى، أو أن كل واحد محكوم له بالانتصار.

تفسير الآيات رقم [45- 48]

{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45)

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46)

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (47)

يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48)}

ولما كان لسان الحال ناطقاً بأنهم يقولون: هذا كله فأي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ونحوها، وقال بعضهم: لئن بعثنا لأوتينا وولداً، ولا شك أنهم كانوا في غاية الاستحالة لغلبة المؤمنين لهم على قلتهم وضعفهم، استأنف الجواب بقوله: {سيهزم} بأيسر أمر من أي هازم كان بوعد لا خلف فيه، وقراءة الجمهور بالبناء للمفعول مفهمة للعظمة بطريقة كلام القدرين، فهي أبلغ من قراءة يعقوب بالنون والبناء للفاعل الدالة على العظمة صريحاً {الجمع} الذي تقدم أنه بولغ في جمعه فصدق الله وعده وهزموا في يوم بدر وغيره في الدنيا عن قريب، ولم يزالوا يضعفون حتى اضمحل أمرهم وزال بالكلية سرهم، وهي من دلائل النبوة البينة {ويولون الدبر *} أي يقع توليتهم كلهم بهذا الجنس بأن يكون والياً لها من منهم مع الهزيمة لأنه لم يتولهم في

حال الهزيمة نوع مســـكنة يطمعون بها في الخيار، وكل من إفراد الدبر والمنتصر وجمع المولين أبلغ مما لو وضع غيره موضعه وأقطع للتعنت.

ولما ونقع هذا في الدنيا، وكان في يوم بدر، وكان ذلك من أعلام النبوة، وكان ربما ظن ظان أن ذلك هو النهاية، كان كأنه قيل: ليس ذلك الموعد الأعظم: {بل الساعة} القيامة التي يكون فيها الجمع الأعظم والهول الأكبر {موعدهم} أي الأعظم للجزاء المتوعد به {والساعة أدهى} من كل ما يفرض وقوعه في الدنيا، أفعل تفضـــيل من الداهية وهي أمر هائل لا يهتدي لدوائه {وأمر *} لأن عذابها للكافر غير مفارق ومزايل. ولما أخبر عن الســاعة بهذا الإخبار الهائل، علله مقســـماً لأهلها مجملاً بعض ما لهم عند قيامها بقوله مؤكداً لما أظهروا من التكذيب: {إن المجرمين} أي القاطعين لما أمر الله بأن يوصـل {في ضـلال} أي عمى عن القصـد بتكذيبهم بالبعث محيط بهم مانع من الخلاص من دواهي الساعة وغيرها، ومن الوصول إلى شيء من مقاصـــدهم التي هم عليها الآن معتمدون {وســعر} أي نيران تضــطرم وتتقد غاية الاتقاد {يوم} أي في ذلك اليوم الموعود به {يســحبون} أي في الســاعة دائماً بأيســر وجه إهانة لهم من أي صــاحب كان {في النار} أي الكاملة في النارية {على وجوههم} لأنهم في غاية الذل والهوان جزاء بما كانوا يذلون أولياء الله تعالى، مقولاً لهم من أي قائل اتفق: {ذوقوا} أي لأنهم لا منعة لهم ولا حمية عندهم بوجه {مس ســقر *} أي ألم مباشــرة الطبقة النارية التي تلفح بحرها فتلوح الجسـم وتذيبه فيسـيل ذهنه... وعصــاراً كما يسيل الدبس وعصارة الرطب فتسمى النخلة بذلك مسقاراً.

▲ تفسير الآيات رقم [49- 55]

{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49)

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50)

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52)

وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54)

فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)}

ولما أخبر بقيام الساعة وما يتفق لهم فيها جزاء لأعمالهم التي قدرها عليهم وهي ستر فرضوا بها لاتباع الشهوات واحتجوا على رضاه بها، وكان ربما ظن ظان أن تماديهم على الكفر لم يكن بإرادته سبحانه، علل ذلك منبهاً على أن الكل فعله، وإنما نسبته إلى العباد بأمور ظاهرية، تقوم عليهم بها الحجة في مجاري عاداتهم، فقال: {إنا} أي بما لنا من العظمة {كل شيء} أي من الأشياء المخلوقة كلها صغيرها وكبيرها.

ولما كان هذا التعميم في الخلق أمراً أفهمه النصب، استأنف قوله تفسيراً للعامل المطوي وإخباراً بجعل ذلك الخلق كله على نظام محكم وأمر مقدر مبرم {خلقناه بقدر *} أي قضاء وحكم وقياس مضبوط وقسمة محدودة وقودة بالغة وتدبير محكم في وقت معلوم ومكان محدود مكتوب في ذلك اللوح قبل وقوعه تقيسه الملائكة بالزمان وغيره من العد وجميع أنواع الأقيسة- فلا يخرم عنه مثقال ذرة لأنه لا منازع لنا مع ما لنا من القدرة الكاملة والعلم التام، فهذا العذاب بقدرتنا ومشيئتنا فاصبروا عليه وارضوا به كما كنتم ترضون أعمالكم السيئة ثم تحتجون على عبادنا بأنها مشيئتنا بنحو

{ولو شاء الله ما أشركنا} [الأنعام: 148] فقد أوصلكم إلى ما ترون وانكشف أتم انكشاف أنه لا يكون شيء على خلاف مرادنا، ولا يقال لشيء قدرناه: لم؟ قال الرازي في اللوامع: الكمية ساقطة عن أفعاله كما أن الكيفية والكمية ساقطتان عن ذاته وصفته- انتهى. ولا يكون شيء من أمره سبحانه إلا ما هو على غاية الحكمة، ولو كان الخلق لا يبعثون بعد الموت ليقع القصاص والقياس العدل ليكون القياس جزافاً لا بقدر وعدل، لأن المشاهد أن الفساد في هذه الدار من المكلفين من الصلاح أضعافاً مضاعفة، وقرئ في الشواذ برفع «كل» وجعله ابن جني أقوى من النصب، وليس كذلك لأن الرفع لا يفيد ما ذكرته، وما حمله على ذلك إلا أنه معتزلي، والنصب على ما قدرته قاصم لأهل الاعتزال.

ولما بين أن كل شيء بفعله، بين يسر ذلك وسهولته عليه فقال: {وما أمرنا} أي كل شيء أردناه وإن عظم أثره، وعظم القدر وحقر المقدورات بالتأنيث فقال: {إلا واحدة} أي فعلة يسيرة لا معالجة فيها وليس هناك إحداث قول لأنه قديم بل تعلق القدرة بالمقدور على وفق الأرادة الأزلية، ثم مثل لنا ذلك بأسرع ما يعقله وأخفه فقال؛ {كلمح بالبصر *} فكما أن لمح أحدكم ببصره لا كلفة عليه فيه، فكذلك الأفعال كلها، بل أيسر من ذلك.

ولما أخبر بتمام قدرته، وكان إهلاك من ذكر من الكفار وإنجاء من ذكر من الأبرار في هذه السورة نحواً مما ذكر من أمر الساعة في السهولة والسرعة، دل على ذلك بإنجاء أوليائه وإهلاك أعدائه فذكر بهم جملة وبما كان من أحوالهم بأيسر أمر لأن ذلك أوعظ للنفوس وأزجر للعقول، فقال

مقســـــماً تنبيهاً على عادتهم في الكفر مع هذا الوعظ فعل المكذب بهلاكهم لأجل تكذيبهم عاطفاً على ما تقديره: ولقد أنجينا رســلنا وأشــياعهم من كل شيء خطر: {ولقد أهلكنا} أي بما لنا من العظمة {أشياعكم} الذين أنتم وهم شرع واحد في التكذيب، والقدرة عليكم كالقدرة عليهم، فاحذروا أن يصيبكم ما أصــابهم، فلذلك ســبب عنه قوله: {فهل من مدكر *} أي بما وقع لهم أنه مثل من مضى بل أضعاف.

...، وأن قدرته سبحانه عليه كقدرته عليهم ليرجع عن غيه خوفاً من سطوته سبحانه.

ولما تمت الدلالة على إحاطة القدرة بما شـــوهد من الأفعال الهائلة التي لا تسـعها قدرة غيره سـبحانه، وكانوا يظنون أن أحواله غير مضـبوطة لأنه لا يمكن ضـبطها ولا يسـعها علم عالم ولا سـيما إذا ادعى أنه واحد، شـرع في إتمام الإخبار بعظمة القدر بالإخبار بأن أفعالهم كلها مكتوبة فضـــلاً عن كونها محفوظة فقال: {وكل شيء فعلوه} أي الأشياء في أيّ وقت كان، كأن بالكتابة {في الزبر *} أي كتب الحفظة فليحذروا من أفعالهم فإنها غير منسية، هذا ما أطبق عليه القراء مما أدى إلى هذا المعنى من رفع كل، لأنه لو نصب لأوهم تعلق الجار بالفعل فيوهم أنهم فعلوا في الزبر كل شيء من الأشياء وهو فاسد.

ولما خصـــهم، عم بقوله واعظاً ومخوفاً ومحذراً بأن كل شـــيء محفوظ فمكتوب فمعروض على الإنســـان يوم الجمع: {وكل صـــغير وكبير} من

الجواهر والمعاني منهم ومن غيرهم {مســـتطر *} أي مكتوب على وجه عظيم من اجتهاد الحفظة في كتابته وتحريره مع يسر ذلك وسهولته.

ولما أخبر عن أحوال الكفرة في الدنيا والآخرة واعظاً بها وإعلاماً بعظمته وعليّ صفاته وسعة مملكته وشامل علمه وقدرته، ختم بأحوال القسم الآخر من أهل الســاعة وهم أهل طاعته تتميماً لذلك وإشــارة وبشــارة للســالك في أحسن المسالك، فقال مؤكداً رداً على المنكر: {إن المتقين} أي العريقين في وصــف الخوف من الله تعالى الذي أداهم إلى أن لا يفعلوا شــيئاً إلا بدليل. ولما كان من البســاتين والمياه وما هو ظاهر بكل مراد على عكس ما عليه الضال البعيد عن القصد الواقع في الهلاك والنار قال: {في جنات} أي في بســاتين ذات أشــجار تســر داخلها، قال القشــيري: والجمع إذا قوبل بالجمع فالأحاد تقابل الأحاد. ولما كانت الجنان لا تقوم وتدوم إلا بالماء قال: {ونهر *} وأفرده لأن التعبير ب «في» مفهم لعمومهم به عموم ما كأنه ظرف وهم مظروفون له، ولكثرة الأنهار وعظمها حتى أنها لقرب بعضـــــها من بعض واتصال منابعها وتهيئ جميع الأرض لجري الأنهار منها كأنها شيء واحد، وما وعد به المتقون من النعيم في تلك الدار فرقائقه معجلة لهم في هذه الدار، فلهم اليوم جنات العلوم وأنهار المعارف، وفي الآخرة الأنهار الجارية والرياض والأشجار والقصور والزخارف، وهو يصلح مع ذلك لأن يكون مما منه النهار فيكون المعنى: أنهم في ضياء وسعة لا يزايلونه أصلاً بضد ما عليه المجرم من العمى الناشــئ عن الظلام، ولمثل هذه الأغراض أفرد مع إرادة الجنس لا للفاصلة فقط.

ولما كانت البســـاتين لا تســـكن في الدنيا لأنه ليس فيها جميع ما يحتاجه الإنسـان، بين أن حال تلك غير حال هذه، فقال مبدلاً مما قبله: {في مقعد} أي تلك الجنان محل إقامتهم التي تراد للقعود {صدق} أي فيما أراده الإنسان صدق وجوده الإرادة ولا يقعد فيه إلا أهل الصدق، ولا يكون فيه إلا صدقه، لا لغو فيـه ولا تـأثيم، والتوحيد لإرادة الجنس مع أن الإبدال يفهم أنـه لا موضـع في تلك الجنان إلا وهو الصـالح للتسمية بهذا الاسـم ولأنهم لاتحاد قلوبهم ورضاهم كأنهم في مقعد واحد على أنه قرئ بالجمع.

ولما كان هذا غير معهود، بين أن سببه تمكين الله لهم منه لاختصاصه لهم وتقريبه إياهم لإرضـــائه لهم، فقال مقيداً لذلك بالتعبير بالعندية لأن عنديته سبحانه تعالى منزهة عن قرب الأجسام والجهات: {عند مليك} أي ملك تام الملك {مقتدر} أي شـامل اقدرة بالغها إلى حد لا يمكن إدراكه لغيره سبحانه كما تقدم قريباً، فهو يوصـلهم إلى كل خير ويدفع عنهم كل ضـير، وكما أن لهم في الآخرة عندية الإشـــهاد فلهم في الدنيا عندية الإمداد، ولهذا الاســـم الشريف سر في الانتصـار على الظالمين، ولقد ختمت السورة كما ترى كما ابتدئت به من أمر الســـاعة، وكانت البداية للبداية والنهاية للنهاية، وزادت النهاية بيان الســبب الموجد لها، وهو قدرته ســبحانه وعز شـــأنه وعظمت رحمته وإحسـانه، وعفوه ومغفرته ورضـوانه، ولتصـنيف الناس فيها إلى كافر مستحق للانتقام، ومؤمن مؤهل لغاية الإكرام، لم يذكر الاسم الأعظم الجامع الذي يذكر في سـياق مقتضـى جمع الجلال والإكرام لصـنف واحد وهو من يقع منه الإيمان ولا يتدنس بالعصـــيان، وهم الذين آمنوا، ولمشـــاركتها

للســورتين اللتين بعدها في هذا العرض، وهو الكلام في حق الصــنفين فقط من غير ذكر عارض ممن آمن، أشــرك الثلاثة في الخلو عن ذكر الاســم الأعظم. فلم يذكر في واحدة منها وجاء فيها من الصفات ما يقتضي العظمة على أهل الكفران، وما ينبئ عن الإكرام والإحســـان لأهل الإيمان {ولمن خاف مقام ربه جنتان} [الرحمن : 46] ولهذا ختمت هذه بصــــفة الملك المقتضــي للســطوة التامة والإكرام البالغ وعدم المبالاة بأحد كائناً من كان، لأن الملك من حيث هو ملك إما يقتضــــي مقامه إهانة العدو وإكرام الولي، وجعل ذلك على وجه المبالغة أيضــاً، كل ذلك للإعلام بأن تصـريفه سبحانه لأحوال الآخرة كما قصــد في هذه الســورة من تصــريفه في أحوال الدنيا من إهلاك الأعداء وإنجاء الأولياء، وكأن هذه الســـورة كانت هكذا لأنها جاءت عقب النجم التي شـرح فيها الإسـراء وكان للنبي صــلى الله عليه وســلم من العظمة بخرق العوائد باختراق الســماوات، والوصـــول إلى أنهى الغاية من المناجاة، وغيره من سـر الملكوت ومحل الجبروت، بعد أن لوح بمقامه عليه الصــلاة والســلام بالطور ليعلم الفرق ويوصــف كل بما هو الحق، فكان ذلك مقتضــــياً لئلا يكون بعده من الناس إلا مؤمن خالص، فإن كان غيره فهو معاند شـــديد الكفر، وكأنها جعلت ثلاثاً لإرادة غاية التأكيد لهذا المعنى الشديد، فلما انقضت الثلاثة كان متبركاً به في معظم آيات الحديد ثم توجت كل آية من آيات المجادلة به إشــارة إلى أنه قد حصــل غاية التشــوف إليه ترهيباً لمن يعصــي ولا ســيما من يظاهر، وترغيباً في الطاعة للملك الغافر، والله الموفق لما يريد إنه قوي فعال لما يريد.

سورة الرحمن

55 مكية

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

لبقاعي

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي

▲ تفسير الآيات رقم [1- 10]

{الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10)}

ولما ختم سبحانه القمر بعظيم الملك وبليغ القدرة، وكان الملك القادر لا يكمل ملكه إلا بالرحمة، وكانت رحمته لا تتم إلا بعمومها، قصر هذه السورة على تعداد نعمه على خلقه في الدارين، وذلك من آثار الملك، وفصل فيها ما أجمل في آخر القمر من مقر الأولياء والأعداء في الآخرة، وصدرها بالاسم الدال على عموم الرحمة براعة للاستهلال، وموازنة لما حصل بالملك والاقتدار من غاية التبرك والظهور والهيبة والرعب باسم هو مع أنه في غاية

الغيب دال على أعظم الرجاء مفتتحاً لها بأعظم النعم وهو تعليم الذكر الذي هز ذوي الهمم العالية في القمر إلى الإقبال عليه بقوله {ولقد يســـرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} لأنه لما كان للعظمة الدالة عليها نون {يســرنا} التي هي عماد الملك نظران: نظر الكبرياء والجبروت يقتضي أن يتكلم بما يعجز خلقه من كل جهة في الفهم والحفظ والإتيان بمثله وكل معنى من معانيه، ونظر الإكرام والرحمة، وكانت رحمته سابقة لغضبه نظر بها لخلقه لا سيما هذه الأمة المرحومة فيســـر لها الذكر تحقيقاً للرحمة بعد أن أبقى من آثار الجبروت الإعجاز عن النظر، ومن الإعجاز من الفهم الحروف المقطعة أوائل الســور، ومنع المتعنت من أن يقول: إنه لا معاني لها بأن فهم بعض الأصفياء بعض أسرارها، فقال جواباً لمن كأنه قال: من هذا المليك المقتدر، فقيل: {الرحمان *} أي العام الرحمة، قال ابن برجان: وهو ظاهر اسمه الله، وباطن اسمه الرب، جعل هذه الأسماء الثلاثة في ظهورها مقام الذات يخبر بها عنه وحجاباً بينه وبين خلقه، يوصـل بها الخطاب منه إليهم، ثم أسـماؤه الظاهرة مبينة لهذه الأسماء الثلاثة- انتهى.

ومن مقتضـى اسـمه {الرحمن} انبثت جميع النعم، ولذا ذكر في هذه السـورة أمهات النعم في الدارين.

ولما كان لا شــــيء من الرحمة أبلغ ولا أدل على القدرة من إيصـــال بعض صـفات الخالق إلى المخلوق نوع إيصـال ليتخلقوا به بحسـب ما يمكنهم منه فيحصـلوا على الحياة الأبدية والسـعادة السـرمدية قال: {علم القرآن *} أي المرئي المشـهود بالكتابة والمتلو المسـموع الجامع لكل خير، الفارق بين كل

لبس، وكان القياس يقتضي أن لا يعلم المسموع أحد لأنه صفة من صفاته، وصـــفاته في العظم كذاته، وذاته غيب محض، لأن الخلق أحقر من أن يحيطوا به علماً، «وأين الثريا من يد المتناول» فدل تعليمه القرآن على أنه يقدر أن يعلم ما أراد من أراد {وعلم آدم الاسماء كلها} [البقرة: 31] ولا يخفى ما في تقديمه على جميع النعم من المناسبة لأن أجل النعم نعمة الدين التي تتبعها نعمة الدنيا والآخرة، وهو أعلى مراتب، فهو ســنام الكتب الســماوية وعمادها ومصــداقها والعبار عليها، وفائدتها الإيصــال إلى مقعد الصــدق المتقدم لأنه بين ما يرضي الله ليعمل به وما يسخطه ليجتنب.

وقال الإمام جعفر بن الزبير : من المعلوم أن الكتاب العزيز وإن كانت آية كلها معجزة باهرة وســورة في جليل النظم وبديع التأليف قاطعة بالخصــوم قاهرة، فبعضــــها أوضـــح من بعض في تبين إعجازها، وتظاهر بلاغتها وإيجازها: ألا ترى إلى تسارع الأفهام إلى الحصول على بلاغة آيات وسور من أول وهلة دون كبير تأمل كقوله تعالى

{وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي} [هود: 44]

وقوله {فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين} [الحجر: 94]، الآيات، لا يتوقف في باهر إعجازها إلا من طبع الله على قلبه أو ســد دونه باب الفهم بأنى له بر لوجه وقوعه، وسورة القمر من هذا النمط، ألا ترى اختصار القصص فيه مع حصول أطرافها وتوفية أغراضها، وما جرى مع كل قصة من الزجر والوعظ والتنبيه والإعذار، ولولا أني لم أقصـــد التعليق ما بنيته عليه من ترتيب السور لأوضحت ما أشرت إليه مما لم أسبق إليه، ولعل الله

سبحانه ييسر ذلك فيما باليد من التفسير نفع الله به ويسر فيه، فلما انطوت هذه السورة على ما ذكرنا وبان فيها عظيم الرحمة في تكرر القصص وشفع العظات، وظهرت حجة الله على الخلق، وكان ذلك من أعظم ألطافه تعالى لمن يســـره لتدبر القرآن ووفقه لفهمه واعتباره، أردف ذلك ســـبحانه بالتنبيه على هذه النعمة فقال تبارك وتعالى {الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان} وخص من أسمائه الحسنى هذا الاسم إشعاراً برحمته بالكتاب وعظيم إحسـانه به {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصـوها} [إبراهيم: 34] ثم قد تمهد أن سورة القمر إعذار ومن أين للعباد بجميل هذا اللطف وعظيم هذا الحلم حتى يرادوا إلى بسـط الدلالات وإيضــاح البينات إن تعذر إليهم زيادة في البلاغ، فأنبأ تعالى أن هذا رحمة فقال {الرحمن علم القرآن} ثم إذا تأملت سورة القمر وجدت خطابها وإعذارها خاصـــاً ببني آدم بل بمشـــركي العرب منهم فقط، فاتبعت سورة القمر بسورة الرحمن تنبيهاً للثقلين وإعذاراً إليهم وتقريراً للجنسين على ما أودع سبحانه في العالم من العجائب والبراهين الساطعة فتكرر فيها التقرير والتنبيه بقوله تعالى: {فبأيّ آلاء ربكما تكذبان} خطاباً للجنســـين وإعذاراً للثقلين فبان اتصالها بسورة القمر أشد البيان- انتهى.

ولما كان كأنه قيل: كيف علمه وهو صـــفة من صـــفاته ولمن علمه، قال مســـتأنفاً أو معللاً: {خلق الإنســـان *} أي قدره وأوجده على هذا الشـــكل المعروف والتركيب الموصوف منفصلاً عن جميع الجمادات وأصله منها ثم عن سائر الناميات ثم عن غيره من الحيوانات، وجعله أصنافاً، وفصل بين كل قوم بلسانهم عمن عداهم وخلقه لهم دليل على خلقه لكل شيء موجود

{إنا كل شيء خلقناه بقدر} [القمر: 49] والإنسان وإن كان اسم جنس لكن أحقهم بالإرادة بهذا أولهم وهو آدم عليه السلام، وإرادته- كما قال ابن عباس رضي الله عنهما- لا تمنع إرادة الجنس من حيث هو.

ولما كان كأنه قيل: فكان ماذا بخلقه، قال: {علمه البيان *} وهو القوة الناطقة، وهي الإدراك للأمور الكلية والجزئية والحكم الحاضر والغائب بقياسه على الحاضرة تارة بالتوسم وأخرى بالحساب ومرة بالعيافة والزجر وطوراً بالنظر في الآفاق وغير ذلك من الأمور مع التمييز بين الحسن والقبيح وغير ذلك ما أدعه سبحانه وتعالى له مع تعبيره عما أدركه بما هو غائب في ضميره وإفهامه للغير تارة بالقول وتارة بالفعل نطقاً وكتابة وإشارة وغيرها، فصار بذلك ذا قدرة على الكمال في نفسه والتكميل لغيره، فهذا تعليم البيان الذي مكن من تعليم القرآن، وهذا وإن كان سبحانه جبلنا عليه وخلقناه به قد صار عندنا مألوفاً ومشهوراً معروفاً، فهو عند غيرنا على غير ذلك مما أوضحه لنا سبحانه نعمة علينا بمحاجته لملائكته الكرام عن نبينا آدم عليه الصلاة والسلام وما أبدى لهم من علمه وبهرهم من رسم كل شيء بمعناه واسمه.

ولما بين سبحانه النعمة في تعليم القرآن الذي هو حياة الأرواح، وبين الطريق فيها، دل على البيان بذكر البينات التي يجمعها أمر ويفرقها آخر، ولها مدخل في حياة الأشباح، وعددها على سبيل الامتنان بياناً لأنها من أكبر النعم فقال في جواب من قال: ما بيانه؟ بادئاً بالكوكب الأعظم الذي هو أعظم نوراً وأكبر جرماً وأعم نفعاً ليكون خضوعه لقبول الآثار أدل على

خضــوع غيره بياناً لحكمته في تدبيره وقوته في تقديره: {الشـمس} وهي آية النهار {والقمر} وهو آية الليل اللذان كان بهما البيان الإبراهيمي، ولعله بدأ لهذه الأمة بغاية بيانه عليه الصــلاة والســلام تشـريفاً لها بالإشـارة إلى علو أفهامها {بحسبان *} أي جريهما، يجري كل منهما- مع اشتراكهما في أنهما كوكبان سماويان- بحساب عظيم جداً لا تكاد توصف جلالته في دقته وكثرة ســـعته وعظم ما يتفرع عليه من المنافع الدينية ولدنيوية، ومن عظم هذا الحســاب الذي أفادته صــيغة الفعلان أنه على نهج واحد لا يتعداه، تعلم به الأعوام والشــهور والأيام والســاعات والدقائق والفصــول في منازل معلومة، ويعرف موضـــــع كل منهما في الآفاق العلوية وما يحدث له وما يتأثر عنه في الكوائن السفلية بحيث أن به انتظام غالب الأمور السفلية إلى غير ذلك من الأمور التي خلقهما الله عليها ولها، وبين الإنســـان وبين كل منهما من المســـافات ما لا يعلمه على التحرير إلا العليم الخبير، وهذا على تطاول الأيام والدهور لا يختل ذرة دلالة على أن صــانعه قيوم لا يغفل، ثم بعد هذا الحساب المستجد والحساب الأعظم الذي قدر لتكوير الشمس وانكدار القمر دلالة على أنه فاعل بالاختيار مع ما أفاد ذلك من تعاقب الملوين تارة بالاعتدال وتارة بالزيادة وأخرى بالنقص، وغير ذلك من الأمور في لطائف المقدور.

ولما كان ســـيرهما على هذا المنهاج مع ما لهما فيه من الدؤب فيه بالتغير والتنقل طاعة منهما لمدبرهما ومبدعهما ومسيرهما، وكان خضوعهما- وهما النيران الأعظمان- دالاً على خضوع ما دونهما من الكواكب بطريق الأولى،

كان ذكرهما مغنياً عن ذكر ما عداهما بخصوصه، فأتبعهما حضور ما هو للأرض كالكواكب للسماء في الزينة والنفع والضر والصغر والكبر والكثرة والقلة من النبات مقدماً صغاره لعموم نفعه وعظيم وقعه بأن من أكثر الأقوات لجميع الحيوان والملابس من القطن والكتان وغير ذلك من عجيب الشأن، معبراً بما يصلح لبقية الكواكب فقال: {والنجم} أي وجميع الكواكب السماوية وكل نبت ارتفع من الأرض ولا ساق له من النبات الأرضية التي هي أصل قوام الإنسان وسائر الحيوان {والشجر} وكل ما له ساق ويتفكه به أو يقتات {يسجدان *} أي يخضعان وينقادان لما يراد منهما ويذلان للانتفاع بهما انقياد الساجد من العقلاء لما أمر به بجريهما لما سخرا له وطاعتهما لما قدرا فيه غير إباء على تجدد الأوقات من نمو في النبات ووقوف واخضرار ويبس وإثمار وعطل، لا يقدر النجم أن يعلو إلى رتبة الشجرة ولا الشجرة أن يسفل إلى وهدة النجم إلى غير ذلك مما صرفنا فيه من سجود الظلال ودوران الجبال والمثال مما يدل على وحدانية الصانع وفعله بالاختيار، ونفي الطبائع، ومن تسيير في الكواكب وتدبير في المنافع في الحر والبرد اللذين جعل سبحانه بهما الاعتدال في النبات من الفواكهة والأقوات، وغير ذلك من وجود الانتفاعات.

ولما كان تغير ما تقدم من الشمس والقمر والنجم والشجر يدل دلالة واضحة على أنه سبحانه هو المؤثر فيه، وكانت السماء والأرض ثابتتين على حالة واحدة، فكان ربما أشكل أمرهما كما ضل فيهما خلق من أهل الوحدة أهل الجمود والاغترار والوقوف مع الشاهد وغيرهم، وكان إذا ثبت أنه تعالى

المؤثر فيهما، فلذلك قال مســـنداً التأثير فيهما إليه بعد أن أعرى ما قبلهما من مثله لما أغنى عنه من الدلالة بالتغير والســـير والتنقل عطفاً على ما تقديره: وهو الذي دبر ذلك: {والسماء رفعها} أي حساً بعد أن كانت ملتصقة بالأرض ففتقها منها وأعلاها عنها بما يشـهد لذلك من العقل عند كل من له تأمل في أن كل جسم ثقيل ما رفعه عما تحته إلا رافع، ولا رافع لهذه إلا الله فإنـه لا يقدر على التـأثير غيره، ولعظمها قدمها على الفعل تنبيهاً على التفكر فيما فيها من جلالة الصـنائع وأنواع البدائع، ومعنى بأنه جعلها منشأ أحكامه ومصـــدر قضـــاياه ومتنزل أوامره ونواهيه ومســـكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه.

ولما كانت الســـماء مع علوها الدال على عزة موجدها ومدبرها دالة على عدلـه بـاعتدال جميع أحوالها من الحر والبرد والمطر والثلج والندى والطل وغير ذلك في أن كل فصـل منها معادل لضـده وأنها لا ينزلها سـبحانه إلا بقدر معلوم، و إلا لفسـدت الأرض كلها، ودلنا على أنه شـرع لنا مثل ذلك العدل لتقوم أحوالنا وتصـلح أقوالنا وأفعالنا بما قامت به السـماوات والأرض فقال: {ووضـع الميزان *} أي العدل الذي بدر به الخافقين من الموازنة وهي المعادلة لتنتظم أمورنا.

ولما ذكر أولاً القرآن الذي هو ميزان المعلومات، ودل على رحمانيته بأنواع من البيان، الذي رقي به الإنسـان فصـــار أهلاً للفهم، وذكره نعمة الميزان للمحسوسات، أقبل بالخطاب عليه لافتاً له عن أسلوب الغيبة تنشيطاً له إلى ارتقاء مراتب الكمال بحسـن الامتثال معللاً فقال: {أن} أي لأن {لا تطغوا}

أي لا تتجاوزا الحدود {في الميزان *} أي الأشـياء الموزونة من الموزونات المعروفة والعلم والعمل المقدر أحدهما بالآخر، وفي مساواة الظاهر والباطن والقول والفعل، فالميزان الثاني عام لميزان المعلومات وميزان المحسوسات.

ولما كان التقدير : فاقتدوا بأفعالي وتخلقوا بكل ما آمر به من أقوالي، عطف عليه قوله : {وأقيموا الوزن* } أي جميع الأفعال التي يقاس لها الأشـــياء {بالقسط}.

ولما كان المراد العدل العظيم، بينه بالتأكيد بعد الأمر بالنهي عن الضــد فقال: {ولا تخسـروا الميزان *} أي توقعوا في شـيء من آلة العدل التي يقدر بها الأشياء من الذرع والوزن والعدل والكيل ونحو- نوعاً من أنواع الخسر- بما دل عليه تجريد الفعل فتخســروا ميزان أعمالكم وجزائكم يوم القيامة، وقد علم بتكرير الميزان ما أريد من التأكيد في الأمر به لما له من الضــخامة سواء كان بمعنى واحد أو بمعان مختلفة.

ولما ذكر إنعامه الدال على اقتداره برفع الســماء، ذكر على ذلك الوجه مقابلها بعد أن وســط بينهما ما قامتا به من العدل تنبيهاً على شــدة العناية والاهتمام به فقال: {والأرض} أي ووضـع الأرض: ثم فسـر ناصـبها ليكون كالمذكور مرتين إشـــارة إلى عظيم تدبيره لشــدة ما فيه من الحكم فقال : {وضـعها} أي دحاها وبسـطها على الماء {للأنام *} أي كل من فيه قابلية النوم أو قابلية الونيم وهو الصـوت بعد أن وضـع لهم الميزان الذي لا تقوم الأرض إلا به.

▲ تفسير الآيات رقم [11- 19]

{فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11)
وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (13)
خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14)
وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (16)
رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (18) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19)}
ولما كان في سياق بيان الرحمة بمزيد الإنعام، وكان إقامة البينة أعظم نعمة، وكانت الفواكه ألذ ما يكون، وكانت برقتها وشدة لطافتها منافية للأرض في يبسها وكثافتها، فكان كونها فيها عجباً دالاً على عظيم قدرته، وكان ذكرها يدل على ما تقدمها من النعم من جميع الأقوات، بدأ بها ليصير ما يتقدمها كالمذكور مرتين، فقال مستأنفاً وصفها بما هو أعم: {فيها فاكهة} أي ضروب منها عظيمة جداً يدرك الإنسان بما له من البيان تباينها في الصور والألوان، والطعوم والمنافع- وغير ذلك من بديع الشأن.
ولما كان المراد بتنكيرها تعظيمها، نبه عليه بتعريف بنوع منها، ونوه به لأن فيه مع التفكه التقوت، وهو أكثر ثمار العرب المقصودين بهذا الذكر بالقصد الأول فقال: {والنخل} ودل على تمام القدرة بقوله: {ذات} أي صاحبة {الأكمام *} أي أوعية ثمرها، وهو الطلع قبل أن ينفتق بالثمر، وكل نبت يخرج ما هو مكمم فهو ذو كمام، ولكنه مشهور في النخل لشرفه وشهرته

عندهم، قال البغوي: وكل ما ستر شيئاً فهو كم وكمة، ومنه كم القميص، وفيه تذكير بثمر الجنة الذي ينفتق عن نباهم، وذكر أصل النخل دون ثمره للتنبيه عن كثرة منافعه من الليف والسعف والجريد والجذوع وغيرها من المنافع التي الثمر منها.

ولما ذكر ما يقتات من الفواكه وهو في غاية الطول، أتبعه الأصل في الاقتيات للناس والبهائم وهو بمكان من القصر، فقال ذاكراً ثمرته لأنها المقصودة بالذات: {والحب} أي من الحنطة وغيرها، ونبه على تمام القدرة بعد تنبيه بتمايز هذه المذكورات مع أن أصل الكل الماء بقوله: {ذو العصف} أي الورق والبقل الذي إذا زال عنه ثقل الحب كان مما تعصفه الرياح التي تطيره، وهو التبن الذي هو من قوت البهائم.

ولما كان الريحان يطلق على كل نبت طيب الرائحة خصوصاً، وعلى كل نبت عموماً، أتبعه به ليعم ويخص جميع ما ذكر من سائر النبات وغيره على وجه مذكر بنعمه بغذاء الأرواح بعد ما ذكر غذاء الأشباح فقال: {والريحان *} ولما كان من كفر به سبحانه بإنكاره أو إنكار شيء من صفاته، أو كذب بأحد من رسله قد أنكر نعمه أو نعمة منها فلزمه بانكاره لتلك النعمة إنكار جميع النعم، لأن الرسل داعية إلى الله بالتذكير بنعمه، وكان ما مضى من هذه السورة إلى هنا اثنتي عشرة آية على عدد الكوفي والشامي، عدد فيها أصول نعمه سبحانه على وجه دل بغاية البيان على أن له كل كمال، وكان هذا العدد أول عدد زائد إشارة إلى تزايد النعم لأن كسوره النصف والثلث الربع والسدس تزيد على أصله، وكان قد مضى ذكر الثقلين

الجن والإنس في قوله {الأنام} قال تعالى إشـــارة إلى أنهم المقصـــودون بالوعظ، منكراً موبخاً مبكتاً لمن أنكر شـــيئاً من نعمه أو قال قولاً أو فعل فعلاً يلزم منه إنكار شـــيء منها مســـبباً عما مضـــى من تعداد هذه النعم المتزايدة التي لا يسـوغ إنكارها ولا إنكار شـيئ منها فيجب شـكرها: {فبأي آلاء} أي نعم عطايا {ربكما} أي المحسـن إليكما بما أسـدى من المزايا التي أســـداها إليكم على وجه الكبرياء والعظمة وهي دائمة لا تنقطع من غير حاجة إلى مكافأة أحد ولا غيرها- أيها الثقلان- المدبر لكما الذي لا مدبر ولا ســـيد لكما غيره، من آياته وصـــنائعه وحكمه وحكمته وعزته في خلقه واسـتسـلام الكل له وخضـوعهما إليه، فإن كل هذه النعم الكبار آيات دالة عليه وصـــنائع محكمة وأحكام وحكم ظهرت بها عزته وبانت بها قدرته {تكذبان *} فمخاطبته بهذا الثقلين دليل على أن هذه الأشياء تعم على الجن كما أنها تعم على الإنس، وأن لهم من ذلك ما لهم، وذكره لهذه الآية بعد ذكر هذا العدد من الآيات إشـــارة إلى أن زيادة النعم إلى حد لا يحصـــى بحيث أن اسـتيفاء عددها لا تحيط به عقول المكلفين لئلا يظنوا أنه لا نعمة غير ما ذكر في هذه السـورة، والتعبير عنها بلفظ الآلاء من أجل أنها النعم المخصوصة بالملوك لما لها من اللمعان والصف المميز لها من غيرها ولما لرؤيتها من الخير والدعاء، وهي وإن كانت من الوا فيمكن أخذها من اللؤواء إلى أن الأصـــل الهمزة واللام، فإذا انضـــم إليهما لام أخرى أو ألف ازداد المعنى الذي كان ظهوراً لأن الألف غيب الهمزة وباطنها، واللام هي عين ما كان فلم يحصـــل خروج عن ذلك المعنى، فإذا نظرت إلى الآل كان

المعنى أن تلك النعم الكبار الملوكية تظهر للعباد معرفته سـبحانه وأنه يؤل إليه كل شـيء أولاً من غير نزاع كما أنه كان بكل شـيء، وتكل عن نظرها الأبصـار النوافذ كما تكل عن رؤية الأشـخاص التي يرفعها الآل لأنها تدل عليه سبحانه.

.. نعم عظيمة وإن كانت نقماً لأنه لا نعمة تدل مثل ما دل عليه سـبحانه، وكرر هذه الآية في هذه السـورة من هنا بعد كل آية إلى آخرها لما تقدم في القمر من أن المنكر إذا تكرر إنكاره جداً بحيث أحرق الأكباد في المجاهرة بالعناد حسن سرد ما أنكره عليه،

وكلما ذكر بفرد منه قيل له: لم تتكره؟

سواء أقر به حال التقرير أو استمر على العناد، فالتكرار حينئذ يفيد التعريف بـأن إنكاره تجاوز الحد، ولتغاير النعم وتعددها واختلافها حسـن تكرير التوقيف عليها واحدة واحدة تنبيهاً على جلالتها، فإن كانت نعمة فالأمر فيها واضح، وإن كانت نقمة فالنعمة دفعها أو تأخير الإيقاع بها،

ولما تقدم من أن كل تذكير بما أفاده الله تعالى من النعم بالحواس الخمس مضروبة في الجهات الستّ على أنك إذا اعتبرت نفس الآية وجدتها مشيرة إلى ذلك، فإن كل كلمة منها- إلا الأخيرة في رسـم من أثبت ألفها من كتبة المصـاحف- خمسـة أحرف أن اعتبرت هجاء الأولين والثالثة خمسـة في الرسم ستة في الهجاء والنطق، فهي للحواس وللجهات لأن الكل من الرب، والكلمة الأخيرة ستة أحرف إن اعتبرت رسمها في المصاحف التي أسقطت ألفها، فإن في إثباتها وحذفها اختلافاً بين أئمة المصـاحف، وهي إشـارة إلى

الجهات التي يملك الإنسـان التصـرف فيها، أما الحواس فلا اختيار له فيها، وإن اعتبرت هجاءها بحسـب النطق كانت سـبعة أحرف إشـارة إلى أن النعم أكثر من أن تحصـــى لما تقدم من أســـرار عدد الســـبعة وإلى أن تكذيب المكلفين متكاثر جداً، فلذلك كان في غاية المناسبة أن تبسط هذه النعم على عدد ضـــرب الحواس الخمس في الجهات الســت، وذلك في الحقيقة فائدة، فإنه من المألوف المعروف والجميل الموصـــوف أن التكرير عند التكذيب يوجب التكرير عند التقرير، ويبلغ به النهاية في حســـن التأثير، وزاد العدد على مسـطح الخمس في السـت واحد إشـارة إلى أن نعم الواحدة لا انقطاع لها، ولذلك فصلت إلى ثمان ذكرت أولاً عقب النعم، فكانت على عدد السبع الذي هو أول عدد تام لأنه جمع الفرد والزوج وزوج الفرد وزوج الزوج، وزاد بواحد إشارة إلى أنه كلما انقضى دور من عدد تام جدير لنعم أخرى فهي لا تتناهى لأن موليها له القدرة الشاملة والعلم التام ورحمته سبقت غضبه،

وفي كونها ثمانية إشـارة إلى أنها سـبب إلى الجنة ذات الأبواب الثمانية إن شكرت،

وفي تعقيبها بسـبع نارية إشـارة إلى أنها سـببيتها للنار أقرب لكونها حفت بالشهوات،

وفي ذلك إشـارة إلى أن من اتقى ما توعد عليه بشـكر هذه النعم وقي أبواب النار السبعة،

ثم عقبها بثمانية ذكر فيها جنة المقربين إشـــارة إلى أن من عمل لما وعده كما أمره به الله نال أبواب الجنة الثمانية،

وثمانية أخرى عقب الجنة أصــحاب اليمين إشــارة إلى مثل ذلك والله أعلم، وكان ترتيبها في غاية الحسن،

ذكرت النعم أولاً استعطافاً وترغيباً في الشكر

ثم الأهوال ترهيباً ودرأ للمفسدة بالعصيان والكفر

ثم النعم الباقية لجلب المصــالح، وبدأ بأشــرفها فذكر الجنة العليا لأن القلب إثر التخويف يكون أنشــط والهمم تكون أعلى والعزم يكون أشــد، فحينئذ هذه الآية الأولى من الإحدى والثلاثين مشــــيرة إلى أن نعمة البصــــر من جهة الأمام، فكأنه قيل: أبنعمة البصر مما يواجهكم أو غيرها تكذبان.

ولما كان قد تقدم في إشارة الخطاب الامتنان بخلق الإنسان، ثم ذكر أصول النعم عليه على وجه بديع الشــأن، إلى أن ذكر غذاء روحه: الريحان، أتبع ذلك تفصــيلاً لما أجمل فقال: {خلق الإنســان} أي أصــل هذا النوع الذي هو من جملة الأنام الذي خلقنا الريحان لهم والغالب عليه الأنس بنفســــه وبما ألفه.

ولما كان أغلب عناصــره التراب وإن كان من العناصــر الأربعة، عبر عن إشارة به إلى مطابقة اسمه- بما فيه مما يقتضي الأنس الذي حاصله الثبات على حالة واحدة- لمســــماه الذي أغلبه التراب لنقله وثباته ما لم يحركه محرك، وعبر عن ذلك بما هو في غاية البعد عن قابلية البيان

فقال: {من صــلصــال} أي طين يابس له صــوت إذا نقر عليه {كالفخار *} أي كالخزف المصــنوع المشــوي بالنار لأنه أخذه من التراب ثم خلطه بالماء حتى صار طيناً ثم تركه حتى صار حماء مسنوناً مبيناً،

ثم صوره كما يصور الإبريق وغيره من الأواني

ثم أيبسه حتى صار في غاية الصلابة فصار كالخزف الذي إذا نقر عليه صوت صوتاً يعلم منه هل فيه عيب أم لا، كما أن الآدمي بكلامه يعرف حاله وغاية أمره ومآله، فالمذكور هنا غاية تخليقه وهو أنسب بالرحمانية، وفي غيرها تارة مبدؤه وتارة إنشاؤه،

فالأرض أمه والماء أبوه ممزوجين بالهواء الحامل للجزء الذي هو من فيح جهنم،

فمن التراب جسده ونفسه،

ومن الماء روحه وعقله،

ومن النار غوايته وحدته،

ومن الهواء حركته وتقلبه في محامده ومذامه.

ولما كان الجان الذي شمله أيضاً اسم الأنام مخلوقاً من العناصر الأربعة، وأغلبها في جبلته النار، قال تعالى: {وخلق الجانّ} أي هذا النوع المستتر عن العيون بخلق أبيهم، وهو اسم جمع للجن. ولما كان الجن يطلق على الملائكة لاستتارهم، بين أنهم لم يرادوا به هنا

فقال: {من مارج} أي شيء صاف خالص مضطرب شديد الاضطراب جداً والاختلاط،

قال البغوي: وهو الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه،

وقال القشيري، هو اللهب المختلط بسواد النار– انتهى.

ومرجت نارهم- أي اختلطت- ببرد الزمهرير . ولما كان المارج عاماً في النار وغيرها، بينه بقوله: {من نار *} هي أغلب من عناصر، فتعين المراد بذكر النار لأن الملائكة عليهم السلام من نور لا من نار،

وليس عندهم مروج ولا اضطراب، بل هم في غاية الثبات على الطاعة فيما أمروا به، وقد عرف بهذا كل مضطرب قدره لئلا يتعدى طوره.

ولما كان خلق هذين القبيلين على هذين الوجهين اللذين هما في غاية التنافي مستوراً أحدهما عن الآخر مع منع كل من التسلط على الآخر إلا نادراً، إظهاراً لعظيم قدرته وباهر حكمته من أعظم النعم، قال مسبباً عنه: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعم الملوكية الناشئة عن مبدعكما ومربيكما وسيدكما {تكذبان *} أي بنعمة البصر من جهة الوراء وغيرها من خلقكم على هذا النمط الغريب، وإيداعكم ما أودعكم من القوى، وجعلكم خلاصة مخلوقاته، ومن منع أحد قبيليكم عن الآخر، وتيسيره لكم الأرزاق والمنافع، وحملكم على الحنيفية السمحة، وقدرته على إعادتكم كما قدر على ابتدائكم.

ولما ذكر سبحانه هذين الجنسين اللذين أحدهما ظاهر والآخر مستتر، إرشاداً إلى التأمل فيما فيهما من الدلالة على كمال قدرته، فكانا محتاجين إلى ما هما فيه من المحل، وكان صلاحه مما دبر سبحانه فيه من منازل الشروق الذي هو سبب الأنوار والظهور، والغروب الذي هو منشأ الظلمة والخفاء، أتبعه قوله منبهاً على النظر في بديع صنعه الدال على توحيده:

{رب} أي هو خالق ومدير {المشرقين} ومدبرهما على كيفية لا يقدر على شيء منها غيره {ورب المغربين *} كذلك، وهذه المشارق والمغارب هي ما

للشـتاء من البروج، السـافلة الجنوبية التي هي سـبب الأمطار والثلوج، التي هي سبب الحياة والظهور، حال كون الشمس منحدرة في آفاق السماء، وما للصيف من البروج العالية في جهة الشمال التي هي سبب التهشم والأفول والشـمس مصـعدة في جو السـماء، وما بينهما من الربيع الذي هو للنمو، والخريف الذي هو للذبول، فهي آية الإيجاد والإعدام، فأول المشارق الصيف وقت استواء الليل والنهار عند حلول الشمس بأول البروج الشمالية صاعدة وهو الكبش، يعتدل الزمان حينئذ بقطعها الجنوبية واسـتقبالها الشـمالية، ثم آخر مشارقه إذا كانت الشمس في آخر الشمالية وأول الجنوبية عند حلولها برأس الميزان يعتدل الزمان ثانياً لاستقبالها البروج الجنوبية، ثم بحلولها بآخر القوس ورأس الجدي يكون الانتهاء في قصـر الأيام وطول الليالي لتوسـطها البروج الجنوبيـة، ثم بحلولهـا كـذلـك عنـد خروجهـا من برج التوأمين إلى السـرطان من بروج الشـمال، وهي آخر درجات الشـمس، يكون طول الأيام وقصر الليالي، فيختلف على هذين الفصلين الحر والبرد، وكون الشمس في أول برج الحمل هو بمثابة طلوعها من المشـــرق في أول كل نهار، وكونها في الاعتدال الثاني عند استقبالها البروج الجنوبية إذا حلت برأس الميزان هو بمثابة غروبها، ثم بكونها في الانتهائين في طول الأيام حين حلولها برج السـرطان هو بمنزلة اسـتوائها في الصـيف في كبد السـماء كما أن حلولها برأس الجدي عند الانتهاء في الشـــتاء في قصـــر الأيام وطول الليالي هو بمثابة اسـتوائها فيما يقابل اسـتواءها في الشـتاء في كبد السـماء في النهار- ذكر ذلك ابن برجان وقال بعد ذلك: سخر سبحانه لعباده جهنم- أي بواسطة

الشـــمس– وهي أعدى عدو لهم، فأخرج لهما بواســـطتها الزرع والزيتون والرمان والنخيل والأعناب والجنان المعروشات وغير المعروشـات ومن كل الثمرات.

ولما كان في هذا من النعم ما لا يحصـــى، قال مسـببا ً: {فبأيَّ آلاء ربكما} الذي دبر لكم هذا التدبير العظيم {تكذبان *} أي بنعمة البصـــر من جهة اليمين أو غيرها من تســـخير الشـــمس والقمر دائبين دائرين لإدارة الزمان وتجديد الأيام، وعدد الشـــهور والأعوام، واعتدال الهواء واختلاف الأحوال على الوجه الملائم لمصـالح الدنيا ومعايشـها على منهاج محفوظ وقانون لا يزيغ.

ولما كانت باحة البحر لجري المراكب كساحة السماء لسير الكواكب مع ما اقتضـى ذكره من تضـمن ذكر المشـارق والمغارب للشـتاء الحاصـل فيه من الأمطار ما لو جرى على القياس لأفاض البحار، فأغرقت البراري والقفار، وعلت على الأمصار وجميع الأقطار،

فقال: {مرج} أي أرســـل الرحمن {البحرين} أي الملح والعذب فجعلهما مضـطربين، من طبعهما الاضـطراب، حال كونهما {يلتقيان *} أي يتماسـان على ظهر الأرض بلا فصـــل بينهما في رؤية العين وفي باطنها، فجعل الحلو آية دالة على مياه الجنة، والملح آية دالة على بعض شراب أهل النار لا يروي شـــاربه ولا يغنيه، بل يحرق بطنه ويعييه، أو بحري فارس والروم هما ملتقيان في البحر المحيط لكونهما خليجين منه.

▲ تفسير الآيات رقم [20 –26]

{بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21)
يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (23)
وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآَتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (25)
كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26)}

ولما كان التقاء المايعين ولا سيما مع الاضطراب الدائم الاختلاط فيحيل ما لأحدهما أو لكل منهما من الصفات إلى الصفات الأخرى، فتشوفت النفس إلى المانع من مثل ذلك في البحرين،

قال مستأنفاً: {بينهما برزخ} أي حاجز عظيم من القدرة المجردة على الأول وتسيب الأرض على الثاني يمنعهما مع الالتقاء من الاختلاط،

وقال ابن برجان: البرزخ ما ليس هو بصريح هذا ولا بصريح هذا،

- فكذلك السهل والجبل بينهما برزخ يسمى الخيف،
- كذلك الليل والنهار بينهما برزخ يسمى غبشاً،
- كذلك بين الدنيا والآخرة برزخ ليس من هذا ولا من هذا ولا هو خارج عنهما،
- وكذلك الربيعان هما برزخان بين الشتاء والصيف بمنزلة غبش أول النهار وغبش آخره،

- جعل بين كل صـــــنفين من الموجودات برزخاً ليس من هذا ولا من هذا وهو منهما كالجماد والنبات والحيوان.

ولما كانت نتيجة ذلك كذلك قال: {لا يبغيان *} أي لا يطغيان في هلاك الناس كما طغيا فأهلكا من على الأرض أيام نوح عليه الصلاة والسلام، ولا يبغي واحد منهما على الآخر بالممارجة، ولا يتجاوزان ما حده لهما خالقهما ومدبرهما لا في الظاهر ولا في الباطن، فمتى حفرت على جنب المالح وجدت الماء العذب، وإن قربت الحفرة منه بل كلما قربت كان أحلى، فخلطهما الله سـبحانه في رأى العين وحجز بينهما في رأى عين القدرة، هذا وهما جمادان لا نطق لهما ولا إدراك، فكيف يبغي بعضـكم على بعض أيها المدركون العقلاء.

ولما كان هذا أمراً باهراً دالاً دلالة ظاهرة على تمام قدرته لا سـيما على الآخرة، قال مسبباً عنه: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي الموجد لكما والمربي {تكذبان *} أي بنعمة الإبصار من جهة اليسار أو غيره، فهلا اعتبرتم بهذه الأصول من أنواع الموجودات فصـــدقتم بالآخرة لعلمكم بهذه البرازخ أن موتتكم هذه برزخ وفصـل بين الدنيا والآخرة كالعشـاء بين الليل والنهار، ولو اسـتقر أتم ذلك في آيات السماوات والأرض وجدتموه شائعاً في جميع الأكوان.

ولما ذكر المنة بالبحر ذكر النعمة بما ينبت فيه كما فعل بالبر،

فقال معبراً بالمبني للمفعول لأن كلاً من وجوده فيه والتسـليط على إخراجه منه خارق من غير نظر إلى مخرج معين، والنعمة نفس الخروج، ولذلك قرأ غير نافع والبصريين بالبناء للفاعل من الخروج: {يخرج منهما} أي بمخالطة

العذب الملح من غير واسطة أو بواسطة السحاب، فصار ذلك كالذكر والأنثى،
قال الرازي: فيكون العذب العذب كاللقاح للملح،
وقال أبو حيان: قال الجمهور: إنما يخرج من الأجاج في المواضع التي يقع فيها الأنهار والمياه العذبة فناسب إسناد ذلك إليهما، وهذا مشهور عند الغواصين،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة مولاه رضي الله عنه: تكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر لأن الصدف وغيرها تفتح أفواهها للمطر- انتهى.
فتكون الأصداف كالأرحام للنطف وماء البحر كالجسد الغاذي،
والدليل على أنه من ماء المطر كما قال الأستاذ حمزة الكرماني : إن من المشهور أن السنة إذا أجدبت هزلت الحيتان،
وقلت الأصداف والجواهر- انتهى.
ثم لا شك في أنهما وإن كانا بحرين فقد جمعها وصف واحد بكونهما ماء، فيسوغ إسناد الخروج إليهما كما يسند خروج الإنسان إلى جميع البلد، وإنما خرج من دار منها كما نسب الرسل إلى الجن والإنس بجمعهما في خطاب واحد فقال: {رسل منكم} [الأنعام: 130] وكذا {وجعل القمر فيهن نوراً} [نوح: 16] ومثله كثير {اللؤلؤ} وهو الدر الذي هو في غاية البياض والإشراق والصفاء {والمرجان *} أي القضبان الحمر التي هي في غاية

الحمرة، فسبحان من غاير بينهما في اللون والمنافع والكون- نقل هذا القول ابن عطية عن ابن مسعود رضي الله عنه،

وقال: وهذا هو المشهور الاستعمال- انتهى،

وقال جمع كثير: إن اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره.

ولما كان ذلك من جليل النعم، سبب عنه قوله: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي المالك لكما الذي هو الملك الأعظم {تكذبان *} مع هذه الصنائع العظمى، أبنعمة البصر من جهة الفوق أو غير ذلك من خلق المنافع في البحار وتسليطكم عليها وإخراج الحلي الغريبة وغيرها.

ولما كان قد ذكر الخارج منه بماء السماء، ذكر السائر عليه بالهواء، وأشار بتقديم الجار إلى أن السائر في الفلك لا تصريف له، وإن ظهر له تصريف فهو لضعفه كلا تصريف،

فقال: {وله} أي لا لغيره، فلا تغتروا بالأسباب الظاهرة فتقوا معها فتسندوا شيئاً من ذلك إليها كما وقف أهل الاغترار بالشاهد، الذين أجمد أهل الأرض أذهاناً وأحقرهم شأناً فقالوا بالاتحاد والوحدة {الجوار} أي السفن الكبار والصغار الفارغة والمشحونة. ولما كانت حياة كل شيء كونه على صفة كماله، وكانت السفن تبنى من خشب مجمع وتوصل حتى تصير على هيئة تقبل المنافع الجمة، وكانت تربى بذلك الجمع كما تربى النبات والحيوان، وكانت ترتفع على البحر ويرفع شراعها وتحدث في البحر بعد أن كانت مستترة بجبال الأمواج قال تعالى: {المنشآت} من نشأ- إذا وربا، والسحابة: ارتفعت، وأصل الناشئ كل ما حدث بالليل وبدأ، ومعنى قراءة حمزة وأبي

بكر بكسر الشين أنها رافعة شراعها بسبب استمساكها عن الرسوب ومنشئة للسير، ومعنى قراءة الباقين أنه أنشأها الصانع وأرسلها ورفع شراعها.
ولما كانت مع كونها عالية على الماء منغمســـة فيه مع أنه ليس لها من نفســها إلا الرســوب والغوص قال: {في البحر} ولما كانت ترى على البعد كالجبال على وجه الماء قال: {كالأعلام *} أي كالجبال الطوال.
ولما كان ما فيها من المنافع بالتكسـب من البحر بالصـيد وغيره والتوصـل إلى البلاد الشـــاســـعة للفوائد الهائلة، وكانت أعمالهم في البحر الإخلاص الذي يلزم منها الإخلاص في البر، لأنهما بالنســـبة إلى إبداعه لهما وقدرته على التصــرف فيهما بكل ما يريده على حد ســواء، ســبب عن ذلك قوله: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعمة العظمى {تكذبان *} أبنعمة البصـر من تحتكم أو غيرها من الأسفار، في محل الأخطار، والإنجاء عند الاضـطراب والريح في محل الخسـار، والإرشـاد إلى ذلك بعد خلق مواد السـفن وتعليم صـنعتها وتسخيرها والفلك لعدصـي لوهما (؟) بمثابة جميع الكون، فخدامها كالملائكة في إقامة الملكوت وتحسين تماسكه بإذن ربهم، والمسافرون بها الذين أنشئت لأجلهم وزان المأمورين المكلفين المتهيئين الذين من أجلهم خلقت الســماوات والأرض ومـا بينهمـا فعبر بهم من غربتهم إلى قرارهم، ومن غيبتهم إلى حضـــورهم ومشـــاهدهم، ومدبرها أمرها في أعلاها يأمرهم بأمره فيعدونه ويســمعون له، ثم قد يصــرف الاعتبار إلى أن تكون آية على قطع المؤمن أيام الدنيا فالدنيا هي البحر، والســفينة جســمه، وباطن العبد هو المحمول فيها، العقل صـاحب سياستها، والقوى خدمتها، وأمر الله وتدبيره محيط بها،

والإيمان أمنتها، والتوفيق ريحها، والذكر شراعها، والرسول سائقها بما جاء به من عند ربه، والعمل الطيب يصلح شأنها- ذكر ذلك ابن برجان.

ولما أخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من المنافع من الأعيان والمعاني، واستوفى الأرض بقسميها براً وبحراً، مضمناً ذلك العناصر الأربعة التي أسس عليها المركبات، وكان أعجب ما للمخلوق من الصنائع ما في البحر، وكان راكبه في حكم العدم، دل على أنه المتفرد بجميع ذلك بهلاك الخلق، فقال مستأنفاً معبراً بالاسمية الدالة على الثبات وب {من} للدلالة على التصريح تهويلاً بفتاء العاقل على فناء غير العاقل بطريق الأولى: {كل من عليها} أي الأرض بقسميها والسماء أيضاً {فان *} أي هالك ومعدوم بالفعل بعد أن كان هو وغيره من سائر ما سوى إليه، وليس لذل كله من ذاته إلا العدم، فهو فان بهذا الاعتبار، وإن كان موجوداً فوجوده بين عدمين أولهما أنه لم يكن، وثانيهما أنه يزول ثم هو فيما بين ذلك يتعاوره الإيجاد والإفناء في حين من أحواله وأعراضه وقواه، وأسباب الهلاك محيطة به حساً ومعنى وهو لا يراها كما أنها محيطة بمن هو في السفينة من فوقه ومن تحته ومن جميع جهاته.

▲ تفسير الآيات رقم [27- 34]

{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (28)

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (30)

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32)
يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (34)}

ولما كان الوجه أشرف ما في الوجود، وكان يعبر به عما أريد به صاحب الوجه مع أنه لا يتصور بقاء الوجه صاحبه، فكان التعبير به عن حقيقة ذلك الشيء أعظم وأدل على الكمال، وكان من المقرر عند أهل الشرع أنه سبحانه ليس كمثله شيء فلا يتوهم أحد منهم من التعبير به نقصاً قال: {ويبقى} أي بعد فناء الكل، بقاء مستمراً إلى ما لا نهاية له {وجه ربك} أي المربي لك بالرسالة والترقية بهذا الوحي إلى ما لا يحد من المعارف، وكل عمل أريد به وجهه سبحانه وتعالى خالصاً. ولما ذكر مباينته للمخلوقات، وصفه بالإحاطة الكاملة بالنزاهة والحمد، وقال واصفاً الوجه لأن المراد به الذات الذي هو أشرفها معبراً به ولأنها أبلغ من «صاحب» وبما ينبه على التنزيه عما ربما توهمه من ذكر الوجه بليد جامد مع المحسوسات يقيس الغائب- الذي لا يعتريه حاجة ولا يلم بجنابه الأقدس نقص- بالشاهد الذي كله نقص وحاجة

{ذو الجلال} أي العظمة التي لا ترام وهو صفة ذاته التي تقتضي إجلاله عن كل ما لا يليق به

{والإكرام *} أي الإحسان العام وهو صفة فعله.

ولما كان الموت نفســـه فيه نعم لا تنكر، وكان موت ناس نعمة على ناس، مع ما ختم به الآية من وصــفه بالإنعام قال: {فبأيّ آلاء ربكما} أي المربي لكما على هذا الوجه الذي مآله إلى العدم إلى أجل مســمى {تكذبان *} أي أيها الثقلان الإنس والجان، أبنعمة الســـمع من جهة الأمام أو غيرها من إيجاد الخلق ثم إعدامهم وتخليف بعضـــهم في أثر بعض وإيراث البعض ما في يد البعض- ونحو ذلك من أمور لا يدركها على جهتها إلا الله تعالى.

ولما كان أدل دليل على العدم الحاجة، وعلى دوام الوجود الغنى، قال دليلاً على ما قبله: {يسئله} أي على سبيل التجدد والاستمرار {من في السماوات} أي كلهم {والأرض} أي كلهم من ناطق أو صامت بلسان الحال أو القال أو بهما، ولما كان كأنه قيل: فماذا يفعل عند الســـؤال، وكان أقل الأوقات المحدودة المحسوسة {اليوم} عبر به عن أقل الزمان كما عبر به عن أخف الموزونات بالذرة فقال مجيباً لذلك: {كل يوم} أي وقت من الأوقات من يوم الســبت وعلى اليهود لعنة الله وغضــبه حيث قالوا في الســبت ما هو مناف لقوله ســبحانه وتعالى: {ولقد خلقنا الســماوات والأرض وما بينهما في ســتة أيام وما مسنا من لغوب} [ق: 38]

{ولا يؤده حفظهما هو العلي العظيم} [البقرة: 255]

{هو في شأن} أي من إحداث أعيان وتجديد معان أو إعدام ذلك، قال القشـــيري: في فنون أقســـام المخلوقات وما يجريه عليها من اختلفا الصفات- انتهى.

وهو شـــؤون يبديها لا شـــؤون يبتدئها تتعلق قدرته على وفق إرادته على ما تعلق به العلم في الأزل أنه يكون أو يعدم في أوقاته، فكل شـــــيء قانت له خاضع لديه ساجد لعظمته شاهد لقدرته دالّ عليه {وإن من شيء إلا يسبح بحمده} وذلك التعبير– مع أنه من أجل النعم– أدل دليل على صـــــفات الكمال له وصـــفات النقص للمتغيرات وأنها عدم في نفســها ولأنها نعم قال: {فبأيّ آلاء ربكما} أي المربي لكما بهذا التدبير العظيم لكل ما يصـــلحكما {تكذبان *} أبنعمة السمع من جهة الخلف أو غيرها من تصريفه إياكم فيما خلقكم له هو أعلم به منكم من معايشـــــكم وجميع تقلباتكم، وقد تكررت في هذه الآية المقررة على النعم من أولها إلى هنا ثماني مرات عقب النعم إشــارة– والله أعلم– إلى أن نعمة الله سبحانه وتعالى لا تحصـى لأنها تزيد على السبعة التي هي العدد التام الواحد هو مبدأ لدور جديد من العدد إشارة إلى أنه كلما انقضـــى منها دور ابتدأ دور آخر، ووجه آخر وهو أن الأخيرة صرح فيها ب {من في السماوات والأرض} والسبع التي قبلها يختص بأهل الأرض إشـــارة إلى أن أمهات النعم ســبع كالســماوات والأرض والكواكب السيارة ونحو ذلك.

ولما انقضــــى عد النعم العظام على وجه هو في غاية الإمكان من البيان، وكان تغير سائر الممكنات من النبات والجماد والملائكة والسماوات والأرض وما حوتا مما عدا الثقلين على نظام واحد لا تفاوت فيه،

وأما الثقلان فأحوالهما لأجل تنازع العقل والشهوات لا تكاد تنضبط، بل تغير حال الواحد منهم في اللحظة الواحد إلى ألوان كثيرة متضـــادة لما فيهم من

المكر وأحوال المغالبة والبغي والاستئثار باللهو بالأمر والنهي، وكان أكثرهم يموت بناره من غير أخذ ثأره، واقتضت الحكمة ولا بد أنه لا بد لهم من يوم يجتمعون فيه يكون بينهما فيه الفصـــل على ميزان العدل، خصـــهما بالذكر فقال آتياً في النهاية بالوعيد لأنه ليس للعصاة بعد الإنعام والبيان إلا التهديد الشـــديد للرجوع إلى طاعة الملك الديان، والالتفات في قراءة الجماعة بالنون إلى التكلم أشـــد تهديداً من قراءة حمزة والكســـائي بالتحتية على نســـق ما مضـى: {سنفرغ} أي بوعد قريب لا خلف فيه من جميع الشؤون التي ذكرت {لكم} أي نعمل علم من يفرغ للشـيء فلا يكون له شـغل سـواه بفراغ جنودنا من الملائكة وغيرهم مما أمرناهم به مما سبقت به كلمتنا ومضت به حكمتنا من الآجال والأرزاق وغير ذلك فينتهي كلـه ولا يكون لهم حينئذ عمل إلا جمعكم ليقضي بينكم: {أيّه الثقلان *} بالنصفة، والثقل هو ما يكون به قوام صـاحبه، فكأنهما سـميا بذلك تمثيلاً لهما بذلك إشـارة إلى أنهما المقصـودان بالذات من الخلائق،

وقال الرازي في اللوامع: وصـفاً بذلك يعظم ذلك شـأنهما، كأن ما عداهما لا وزن له بالإضافة إليهما– انتهى.

وهذا كما قال صـــلى الله عليه وســـلم «إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي»

وقال جعفر الصادق: سميا بذلك لأنهما مثقلان بالذنوب.

ولما كان هذا من أجلّ النعم التي يدور عليها العباد، ويصـــلح بها البلاد، وتقوم بها السـماوات والأرض، لأن مطلق التهديد يحصـل به انزجار النفس

عما لها من الانتشار فيما يضر ولا ينفع، فكيف بالتهديد بيوم الفصل قال: {فبأيّ آلاء ربكما} أي المحسن إليكما بهذا الصنع المحكم {تكذبان *} أبنعمة السمع عن اليمين أو بغيرها من إثابة أمل طاعته وعقوبة أمل معصيته، وسمى ابن برجان هذا الإخبار الذي لا نون جمع فيه خطاب القبض يخبر فيه عن موجوداته وما هو خالقه، قال: وذلك إخبار منه عن محض الوحدانية، وما قبله من {سنفرغ} ونحوه وما فيه نون الجمع إخبار عن وصف ملكوته وجنوده وهو خطاب البسط.

ولما كان التهديد بالفراغ ربما أوهم أنهم الآن معجوز عنهم أو عن بعض أمرهم، بين بخطاب القبض المظهر لمحض الواحدانية أنهم في القبضة، لا فعل لأحد منهم بدليل أنهم لا يصلون إلى جميع مرادهم مما هو في مقدورهم، ولكنه ستر ذلك بالأسباب التي يوجد التقيد بها إسناد الأمور إلى مباشرتها فقال بياناً للمراد بالثقلين:

{يا معشر} أي يا جماعة فيهم الأهلية والعشرة والتصادق

{الجن} قدمهم لمزيد قوتهم ونفوذهم في المسام وقدرتهم على الخفاء والتشكل في الصور بما ظن أنهم لا يعجزهم شيء

{والإنس} أي الخواص والمستأنسين والمؤانسين المبني أمرهم على الإقامة والاجتماع.

ولما بان بهذه التسمية المراد بالتثنية، جمع دلالة على كثرتهم فقال: {إن استطعتم} أي إن وجدت لكم طاعة الكون في

{أن تنفذوا} أي تسلكوا بأجسامكم وتمضوا من غير مانع يمنعكم

{من أقطار} أي نواحي {السـماوات والأرض} التي يتخللها القطر لسـهولة انفتاحها لشـي تريدونه من هرب من الله من إيقاع الجزاء بينكم، أو عصـيان عليه في قبول أحكامه وجري مراداته وأقضـــيته عليكم من الموت وغيره أو غير ذلك

{فانفذوا} وهذا يدل على أن كل واحدة منها محيطة بالأخرى لأن النفوذ لا يكون حقيقة إلا مع الخرق.

ولما كان نفوذهم في حد ذاته ممكناً ولكنه منعهم من ذلك بأنه لم يخلق في أحد منهم قوته ولا ســيما وقد منعهم منه يوم القيامة بأمور منها إحداق أهل السـماوات السـبع بهم صـفاً بعد صـف وسـرادق النار قد أحاط بالكافرين ولا منفذ لأحد إلا على الصراط ولا يجوزه إلا كل ضامر يخف، أشار إليه بقوله مستأنفاً:

{لا تنفذون} أي من شيء من ذلك

{إلا بسلطان} إلا بتسليط عظيم منه سبحانه بأمر قاهر وقدرة بالغة وأنى لكم بالقدرة على ذلك،

قال البغوي: وفي الخبر: يحاط على الخلق بالملائكة وبلســـان من نار ثم ينادون: يا معشر الجن الآية.

انتهى، وهذا حكاية ما يكون من ذلك يوم القيامة لا أنه خاص بهم.

ولما كان هذا نظرهم فيما بينهم وبين بقية الحيوانات بما أعطاهم من القوى الحسـية والمعنوية وما نصـب لهم، المصـاعد العقلية والمعارض النقلية التي ينفذون بها إلى غاية الكائنات ويتخللون بما يؤديهم إليه علمها إلى أعلى

المخلوقات، ثم نظرهم فيما بين الحيوانات وبين النباتات ثم بينها وبين الجمادات دالاًّ دلالة واضحة على أنه سبحانه وتعالى يعطي من يشاء من يشاء، فلو أراد قواهم على النفوذ منها، ولو قواهم على ذلك لكان من أجل النعم، وأنه سبحانه قادر على ما يريد منهم، فلو شاء أهلكهم ولكنه يؤخرهم إلى آجالهم حلماً منه وعفواً منه عنهم، سبب عن ذلك قوله : {فبأيّ آلاء ربكما} أي المحسن إليكما المربي لكما بما تعرفون به قدرته على كل ما يريد {تكذبان *} أبنعمة السمع من جهة اليسار أو غيرها من جعلكم سواء في أنكم لا تقدرون على مخالفة مراده سواء ابتدأ بخلقكم أو اليوم المشهود وقد أشهدكم قبل على أنفسكم وعهد إليكم أو بتكشيط السماوات وقد شاهدتم تكشيط السحاب بعد بسطه أو بالجزاء وقد رأيتم الجزاء العاجل وشاهدتم ما أصاب الأمم الماضية.

▲ تفسير الآيات رقم [35- 45]

{يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (36)

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38)

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (40)

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (41)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (42)

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43)
يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آَنٍ (44)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (45)}

ولما سلب عنهم القدرة على النفوذ المذكور تنبيهاً على سلب جميع القدرة عنهم وعلى أن ما يقدرون عليه إنما هو بتقديره لهم نعمة منه عليهم، ولما كان منهم من بلغ الغاية في قسوة القلب وجمود الفكر فهو يحيل العجز عن بعض الأمور إلى أنه لم يجر بذلك عادة، لا إلى أنه سبحانه المانع من ذلك، فعمهم شيء من ذلك سطوته فقال {يرسل عليكما} أي أيها المعاندون، قال ابن عباس رضي الله عنهما : حين تخرجون من القبور بسوقكم إلى المحشر {شواظ} أي لهب عظيم منتشر مع التضايق محيط بكم من كل جانب له صوت شديد كهيئته ذي الخلق الضيق الشديد النفس.

ولما كان الشواظ يطلق على اللهب الذي لا دخان فيه وعلى دخان النار وحرها وعلى غير ذلك، بينه بقوله : {من نار ونحاس} أي دخان هو في غاية الفظاعة فيه شرر متطاير وقطر مذاب، قال ابن جرير: والعرب تسمي الدخان نحاساً بضم النون وكسرها، وأجمع القراء على ضمها- انتهى. وجرها أبو عمرو وابن كثير عطفاً على {نار} ورفعه الباقون عطفاً على {شواظ}.

ولما كان ذلك ممكناً عقلاً وعادة، وكانوا عارفين بأنهم لو وقعوا في مثل ذلك لم يتخلصوا منه بوجه، سبب عنه قوله: {فلا تنصران *} قال ابن برجان: هذا مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «يخرج عنق من نار

فيقول بكل جبار عنيد فيلتقطهم من بين الجمع لقط الحمام حب السمسم، ويغشي المجرمين دخان جهنم من بين المؤمنين ولا يضرهم، وآية الشواظ وعنق النار هنالك صواعق ما هنا وبروقه والنار المعهودة».

ولما كان التهديد بهذا لطفاً بهم فهو نعمة عليهم والعفو عن المعالجة بإرسالة لذلك، سبب عنه قوله: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي المربي لكما بدفع البلايا وجلب المنافع {تكذبان *} أبنعمة السمع من فوق أو غيرها، ألم يكن لكم فيما شهدتموه في الدنيا من دلائل ذلك وآياته ما يوجب لكم الإيمان. ولما كان هذا مما لم تجر عادة بعمومه وإن استطردت بجريانه منه في أشياء منه في أماكن متفرقة كأشخاص كثيرة، بين لهم وقته بقوله: {فإذا} أي فيتسبب عن هذا الإرسال إنه إذا {انشقت السماء} من هوله وعظمته فكانت أبواباً لنزول الملائكة وغيرهم، وغير ذلك من آيات الله {فكانت} لما يصيبها من الحر {وردة} أي حمراء مشرقة من شدة لهيبه،

وقال البغوي: كلون الفرس الورد وهو الأبيض الذي يضرب إلى حمرة وصفرة.

{كالدهان} أي ذائبة صافية كالشيء الذي يدهن به أو كالأديم الأحمر والمكان الزلق، وآية ذلك في الدنيا الشفقان عند الطلوع وعند الغروب، وجواب {إذا} محذوف تقديره: علمتم ذلك علماً شهودياً أو فما أعظم الهول حينئذ ونحو ذا أن يكون الجواب شيئاً دلت عليه الآيات الآتية نحو: فلا يسأل أحد إذ ذاك عن ذنبه، وحذفه أفخم ليذهب الوهم فيه كل مذهب.

ولما كان حفظ السماء عن مثل ذلك بتأخير إرسال هذا وغيره من الأسباب وجعلها محل الروح والحياة والرزق من أعظم الفواضل قال مسبباً عنه: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي المربي لكما هذا التدبير المتقن {تكذبان *} أبنعمة السمع من تحت أو غيرها وليس شيء بما أخبرتكم به من أحوال الآخرة إلا قد أقمت لكم في الدنيا ما تهتدون به إلى العلم بكونه. ولما كان يوم القيامة ذا ألوان كثيرة ومواقف مهولة طويلة شهيرة تكون في كل منها شؤون عظيمة وأمور كبيرة، ذكر بعض ما سببه هذا الوقت من التعريف بالعاصي والطائع بآيات جعلها الله سبباً في علمها فقال: {فيومئذ} أي فسبب عن يوم انشقت السماء لأنه {لا يسئل} سؤال تعرف واستعلام بل سؤال تقريع وتوبيخ وكلام، وذلك أنه لا يقال له: هل فعلت كذا؟ بل يقال له: لم فعلت كذا، على أنه ذلك اليوم طويل، وهو ذو ألوان تارة يسأل فيه وتارة لا يسأل، والأمر في غاية الشدة، وكل لون من تلك الألوان يسمى يوماً، فقد مضى في الفاتحة أن اليوم عبارة عن وقت يمتد إلى انقضاء أمر مقدر فيه ظاهر من ليل أو نهار أو غيرهما لقوله تعالى {إلى ربك يومئذ المساق} [القيامة: 30] أي يوم إذا بلغت الروح التراقي وهو لا يختص بليل ولا نهار، وبناه للمفعول تعظيماً للأمر بالإشارة إلى أن شأن المعترف بالذنب لا يكون خاصاً بعهد دون عهد بل يعرفه كل من أراد علمه، وأضمر قبل الذكر لما هو مقدم في الرتبة ليفهم الاختصاص فوجد الضمير لأجل اللفظ فقال: {عن ذنبه} أي خاصة وقد سئل المحسن عن حسنته سؤال تشريف له وتنديم لمن دونه.

ولما كان الإنس أعظم مقصــود بهذا، ولهذا كان الرســول صــلى الله عليه وسلم منهم، وكان التعريف بالشاهد المألوف أعظم في التعريف، وكان علم أحوال الشيء الظاهر أسهل، قدمهم فقال: {إنس} ولما كان لا يلزم من علم أحوال الظاهر علم أحوال الخفي، بين أن الكل عليه سبحانه هين فقال: {ولا جان *} ولما كان هذا التمييز من أجل النعم لئلا يؤدي الالتباس إلى ترويع بعض المطيعين عاملاً أو نكاية بالسؤال عنه قال: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي الذي ربى كلاًّ منكم بما لا مطمع في إنكاره ولا خفاء فيه {تكذبان *} أبنعمة الشم من الأمام أم من غيرها.

ولما كان الكلام عاماً عرف انه خاص بتعرف المجرم من غيره دون التعزير بالذنب أو غيره من الأحوال فقال معللاً لعدم السؤال: {يعرف} أي لكل أحد {المجرمون} أي العريقون في هذا الوصــف {بسـيماهم} أي العلامات التي صــــور الله ذنوبهم فيها فجعلها ظاهرة بعد أن كانت باطنة، وظاهرة الدلالة عليهم كما يعرف أن الليل إذا جاء لا يخفى على أحد أصــــلاً وكذلك النهار ونحوهما لغير الأعمى، وتلك السيما- والله أعلم- زرقة العيون وسواد الوجوه والعمى والصــمم والمشــي على الوجوه ونحو ذلك، وكما يعرف المحســنون بسيماهم من بياض الوجوه وإشراقها وتبسمها، والغرة والتحجيل ونحو ذلك، وسبب عن هذه المعرفة قوله مشيراً بالبناء للمفعول إلى سهولة الأخذ من أي آخذ كان {فيؤخذ بالنواصــي} أي منهم وهي مقدمات الرؤوس {والأقدام *} بعد أن يجمع بينهما كما أنهم كانوا هم يجمعون ما أمر الله به أن يفرق،

ويفرقون ما أمر الله به أن يجمع، فيسحبون بها سحباً من كل ساحب أقامه الله لذلك لا يقدرون على الامتناع بوجه فيلقون في النار.

ولما كان ذلك نعمة لا يقام بشكرها لكل من يسمعها لأن كل أحد ينتفي من الإجرام ويود للمجرمين عظيم الانتقام، سبب عنه قوله: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعم الكبار من الذي دبر مصالحكم بعد أن أوجدكم {تكذبان *} أبنعمة الشم من الوراء أم بغيرها مما يجب أن يفعل من الجزاء في الآخرة لكل شخص بما كان يعمل في الدنيا أو غير ذلك من الفضل.

ولما كان أخذهم على هذا الوجه مؤذناً بأنه يصير إلى خزي عظيم، صرح به في قوله، بانياً على ما هدى إليه السياق من نحو: أخذاً مقولاً فيه عند وصولهم إلى محل النكال على الحال التي ذكرت من الأخذ بنواصيهم وأقدامهم، {هذه} أي الحفرة العظيمة الكريهة المنظر «القريبة منكم» الملازمة للقرب لكم {جهنم التي يكذب} أي ماضياً وحالاً ومآلاً استهانة {ولو ردوا} [الأنعام: 28] - إلى الدنيا - بعد إدخالهم إياها - {لعادوا لما نهوا عنه} [الأنعام: 28] {بها المجرمون *} أي العريقون في الإجرام، وهو قطع ما من حقه أن يوصل وهو ما أمر الله به، وخص هذا الاسم إشارة إلى أنها تلقاهم بالتجهم والعبوسة والكلاحة والفظاظة كما كانوا يفعلون مع الصالحين عند الإجرام المذكور، قال ابن برجان: وقرأ عبد الله «هذه جهنم التي كنتم بها تكذبان فتصليانها لا تموتان فيها ولا تحييان» ثم استأنف ما يفعل بهم فيها فقال: {يطوفون بينها} أي بين دركة النار التي تتجهمهم {وبين حميم} أي ماء حار هو من شدة حرارته ذو دخان.

ولما كان هذا الاســم يطلق على البارد، بين أمره فقال: {آن} أي بالغ حره إلى غاية ليس وراءها غاية، قال الرازي في اللوامع: وقيل: حاضــر، وبه ســمي الحال بالآن لأنه الحاضــر الموجود، فإن الماضــي لا تدارك له والمســتقبل أمل وليس لنا إلا الآن، ثم «الآن» ليس بثابت طرفة عين، لأن الآن هوالجزء المشــترك بين زمانين، فهم دائماً يترددون بين عذابي النار المذيبة للظاهر والماء المقطع بحره للباطن لا يزال حاضراً لهم تردد الطائف الذي لا أول لتردده ولا آخر.

ولما كانت عذاب المجرم- القاطع لما من شأنه أن يكون متصلاً- من أكبر النعم وأسرها لكل أحد حتى لمن سواه من المجرمين، سبب قوله: {فبأي آلاء ربكما} أي المحســن إليكما أيها الثقلان بإهلاك المجرم في الدارين وإنجاء المســلم مما أهلك به المجرم لطفاً بالمهددين ليرتدعوا وينزجروا عما يكون سبب إهلاكهم هم ومن والاهم {تكذبان *} أبنعمة الشم من اليمين أمن من غيرها مما أراكم من آياته، وظاهر عليكم من بيناته، في السماوات والأرض، وما أراكم من مطالع الدنيا من الشـمس التي هي آية النهار والقمر الذي هو آية الزمهرير، وغير ذلك من آياته المحكمة المرئية المســموعة، وقد كررت هذه الآية عقب ذكر النار وأهوالها ســبع مرات تنبيهاً على اســتدفاع أبوابها السبعة كما مضى- والله المستعان.

▲ تفسير الآيات رقم [46- 57]

{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (47)
ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49)
فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51)
فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (52)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (53)
مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (55)
فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (57)}

ولما كان قد عرف ما للمجرم المجترئ على العظائم، وقدمه لما اقتضاه مقام التكبر من الترهيب وجعله سبعاً إشارة إلى أبواب النار السبعة، عطف عليه ما للخائف الذي أداه خوفه إلى الطاعة وجعله ثمانية على عدد أبواب الجنة الثمانية فقال: {ولمن} أي ولكل من، ووحد الضمير مراعاة للفظ {من} إشارة إلى قلة الخائفين {خاف} أي من الثقلين.

ولما كان ذكر الخوف من الزمان المضروب للحساب والتدبير والمكان المعد لهما أبلغ من ذكر الخوف من الملك المحاسب المدبر، والخوف مع ذكر

وصـــف الإكرام أبلغ من ذكر الخوف عند ذكر أوصـــاف الجلال، قال دالاً بذلك على أن المذكور رأس الخائفين: {مقام ربه} أي مكان قيامه الذي يقيمه وغيره فيه المحسن إليه للحكم وزمانه الذي ضربه له وقيامه عليه وعلى غيره بالتدبير، فهو رقيب عليه وعليهم، فكيف إذا ذكر مقام المنتقم الجبار المتكبر فترك لهذا ما يغضـبه وفعل ما يرضـيه {جنَّتان} عن يمين وشـمال، واحدة للعلم والعقل وأخرى للعمل، ويمكن أن يراد بـالتثنيـة المبالغـة إفهاماً لأنها جنان متكررة ومتكثرة مثل {ألقيا في جهنم كل كفَّارٍ عنيد} [ق: 24] ونحو ذلك.

ولما كانت هذه نعمة جامعة، سـبب عنها قوله: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي نعم المربي لكما والمحسـن إليكم بإحسـانه الكبار التي لا يقدر غيره على شـيء منها {تكذبان *} أبنعمة الشـم من اليسـار المنبعثة من القلب أو غيرها من تربة جنان الدنيا بنفس جهنم من حر الشـــمس وحرورها، فجعل من ذلك جميع الفواكه والزروع إلى غير ذلك من المرافق التي طبخها بها {وكأين من آية في السـماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضـون} [يوسـف: 105] وغير ذلك من نعمه التي لا تحصى.

ولما كانت البســاتين لا يكمل مدحها إلا بكثرة الأنواع والألوان والفروع المشتبكة والأغصان، قال واصفاً لهما: {ذواتا} أي صاحبتا برد عين الكلمة فإن أصـــلها «ذوو» {أفنان *} أي جميع فن يتنوع فيه الثمار، وفنن وهو الغصـن المسـتقيم طولاً الذي تكون به الزينة بالورق والثمر وكمال الانتفاع، قال عطاء: في كل غصـن فنون من الفاكهة؛ ولهذا سـبب عنه قوله: {فبأيّ

آلاء ربكما} أي المربي لكما والمحسن إليكما {تكذبان *} أبنعمة الشم من جهة الفوق أو غيرها مما ذكره لكم من وصف الجنة الذي جعل لكم من أمثاله ما تعتبرون به.

ولما كانت الجنان لا تقوم إلا بالأنهار قال: {فيهما عينان} أي في كل واحدة عين {تجريان *} أي في كل مكان شاء صاحبهما وإن علا مكانه كما تصعد المياه في الأشجار في كل غصن منها، وإن زاد علوها جرى على عيني دموعه الجاريتين من خشية الله وذلك على مثال جنان الدنيا، والشمس صاعدة في البروج الشمالية من تكامل المياه وتفجرها عيوناً في أيام الربيع والصيف لقرب العهد بالأمطار {فبأي آلاء ربكما} أي المالك لكما والمحسن إليكما {تكذبان *} أبنعمة الشم من جهة التحت أو غيرها مما ذكره وجعل له في الدنيا أمثالاً كثيراً.

ولما كان بالمياه حياة النبات وزكاؤه، قال ذاكراً أفضل النبات: {فيهما} أي هاتين الجنتين العاليتين، ودل على جميع كل ما يعلم وزيادة بقوله: {من كل فاكهة} أي تعلمونها أو لا تعلمونها {زوجان} أي صنفان يكمل أحدهما بالآخر كما لا يدرك كنه أحد الزوجين بسبب العمل بما يرضى والآخر بالانتهاء عما يسخط {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعم الكبار التي رباها الموجد لكما المحسن إليكما {تكذبان *} أبنعمة اللمس من الأمام أو غيرها من أنه أوجد لكما جنان الدنيا بواسطة حر النار التي هي أعدى عدوكما إشارة إلى أنه قادر على أنه يوجد برضوانه ومحبته من موضع غضبه وانتقامه إكراماً، فقد جعل ما في الدنيا مثالاً لما ذكر في الآخرة، فبأي شيء من ذلك

تكذبان، لا يكمل الإيمان حتى يصـــدق المؤمن أنه تعالى قادر على أن يجعل من جهنم جنة بأن يجعل من موضع سخطه رحمة ويشاء ذلك ويعتبر ذلك بما أرانا من نموذجه.

ولما كان التفكه لا يكمل حســنه إلا مع التنعم من طيب الفرش وغيره، قال مخبراً عن الذين يخافون مقام ربهم من قبيلي الإنس والجن مراعياً معنى {من} بعد مراعاة لفظها تحقيقاً للواقع: {متكئين} أي لهم ما ذكر في حال الاتكاء وهو التمكين بهيئة المتربع أو غيره من الكون على جنب، قال في القاموس: توكأ عليه: تحمل، واعتمد كأوكأ، والتكأة كهمزة: العصــا، وما يتوكأ عليه، وضربه فأتكأه: ألقاه على هيئة المتكئ أو على جانبه الأيسر، وقال ابن القطاع: وضربته حتى أتكأته أي سقط على جانبه، وهو يدل على تمام التنعم بصحة الجسم وفراغ البال {على فرش} وعظمها بقوله مخاطباً للمكلفين بما تحتمل عقولهم وإلا فليس في الجنة ما يشــبهه على الحقيقة شــيء من الدنيا {بطائنها} أي فما ظنك بظواهرها ووجوهها {من إســتبرق} وهو ثخين الديباج يوجد فيه من حســنه بريق كأنه من شــدة لمعانه يطلب إيجاده حتى كأنه نور مجرد.

ولما كان المتكئ قد يشق عليه القيام لتناول ما يريد قال: {وجنا الجنتين} أي مجنيهما اســم بمعنى المفعول- كأنه عبر به ليفهم ســهولة نفس المصــدر الذي هو الاجتناء {دان *} أي قريب من كل من يريده من متكئ وغيره لا يخرج إلى صعود شجرة، وموجود من كل حين يراد غير مقطوع ولا ممنوع.

ولما كان ربما وجد مثل من ذلك شـــاهد له من أغصـــان تتعطف بجملتها فتقرب وأخرى تكون قريبة من ساق الشجرة فيسهل تناولها قال: {فبأيِّ آلاء ربكما } أي النعم الكبار الملوكية التي أوجدها لكما هذا المربي لكما الذي يقدر على كل ما يريد {تكذبان *} أبنعمة اللمس من جهة الوراء أم غيرها من قدرته على عطف الأغصان وتقريب الثمار.

ولما كان ما ذكر لا تتم نعمته إلا بالنسوان الحسـان، قال دالاًّ على الكثرة بعد سـياق الامتنان بالجمع الذي هو أولى من التثنية بالدلالة على أن في كل بسـتان جماعة من النسـوان، لما بهن من عظيم اللذة وفرط الأنس: {فيهن} أي الجنان التي علم مما مضـى أن لكل فرد من الخائفين منها جنتين. ولما كان سياق الامتنان معرفاً بأن جمع القلة أريد به الكثرة مع ما ذكر من محسناته في سورة «ص» قال معبراً به: {قاصرات الطرف} أي نساء مخدرات هن في وجوب الستر بحيث يظن من ذكرهن بغير الوصف من غير تصـريح، قد قصـرن طرفهن وهممهن على أزواجهن ولهن من الجمال ما قصـرن به أزواجهن عن الالتفات إلى غيرهن لفتور الطرف وسحره وشدة أخذه للقلوب جزاء لهم على قصر هممهم في الدنيا على ربهم.

ولما كان الاختصاص بالشيء لا سيما المرأة من أعظم الملذذات قال: {لم يطمثهن} أي يجامعهن ويتسلط عليهن في هذا الخلق الذي أنشئن فيه نوع من أنواع السلطة سواء من إنسيات أو جنيات أو غير ذلك، يقال: طمثت المرأة كضرب وفرح: حاضت، وطمثها الرجل: افتضها وأيضاً جامعها، والبعير عقلته، فكأنه قيل: هن أبكار لم يخالط موضع الطمث منهن {إنس}

ولما كان المراد تعميم الزمان أسـقط الجارّ فقال: {قبلهم} أي المتكئين {ولا جان *} وقد جمع هذا كل من يمكن منه جماع من ظاهر وباطن، وفيه دليل على أن الجني يغشـى الإنسـي كما نقل عن الزجاج {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعم الجسـام من المربي الكامل العلم الشـامل القدرة القيوم {تكذبان *} أبنعمة اللمس من جهة اليمنى أم غيرها مما جعله الله لكم مثالاً لهذا من الأبكار الحسان، أو غير ذلك من أنواع الإحسان.

▲ تفسير الآيات رقم [58- 65]

{كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (59)

هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (61)

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (62)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (63)

مُدْهَامَّتَانِ (64) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (65)}

ولما دل ما تقدم من وصـف المسـتمتع بهن بالعزة والنفاسـة، زاده على وجه أفاد أنه يكون بهن غاية ما يكون من سـكون النفس وقوة القلب وشـدة البدن واعتدال الدم وغير ذلك من خواص ما شـبههن به فقال: {كأنهن الياقوت} الذي هو في صـفاته بحيث يشـف عن سـلكه وهو جوهر معروف، قال في القاموس: أجوده الأحمر الرماني نافع للوسـواس والخفقان وضـعف القلب شـرباً ولجمود الدم تعليقاً: {والمرجان *} في بياضـه، وصـغار الدر أنصـع

بياضــاً، قال أبو عبد الله القزاز : والمرجان صــغار اللؤلؤ، وهذا الذي يخرج من نبات البحر أحمر معروف- انتهى. وقد يســـتفاد من ذلك أن ألوانهن البياض والحمرة على نوع من الإشـراب هو في غاية الإعجاب من الشـفوف والصفاء، وهو مع ذلك ثابت لا يعتريه تغير ليطابق الحديث الذي فيه «يرى مخ ساقها من وراء سبعين حلة» وقال أبو حيان: شبههن بهما فيما يحسن التشبيه به فالياقوت في املاسه وشفوفه والمرجان في املاسه وجمال منظره {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعم الغريبة البالغة في الحســـن من المالك الملك المربي ببدائع التربية {تكذبان *} أبنعمة اللمس من جهة اليســرى أم غيرها مما جعله مثالاً لما ذكر من وصـفهن من تشـبيه شـيء بشـيئين لبلوغ الأمر في الحســن إلى حد لا يســاويه فيه شــيء واحد ليشــبه به، فهو كما قيل: بيضــاء في دعج صــفراء في نعج كأنها فضــة قد شــابها ذهب، وقد جعل سبحانه الأشياء الشفافة مثلاً لذلك وأنت ترى بعض الأجسام يكاد يرى فيه الوجه بل في سـواد العين أعظم غرة حيث يرى فيه الوجه فإن السـواد منشـأ الظلام.

ولما كان ألذ ما أفاده الإنســان من النعم ما كان تســبب منه، قال ســاراً لهم بذلك مع ما فيه من لذة المدح لا ســـيما والمادح الملك الأعلى، معظماً له بسـياق الاســتفهام المفيد للإثبات بعد النفي المفيد للاختصــاص على وجه الإنكار الشديد على من يتوهم غير ذلك: {هل جزاء الإحسان} أي في العمل الكائن من الإنس أو الجن أو غيرهم {إلا الإحســان *} أي في الثواب، فهذا من المواضـع التي أعيدت فيها المعرفة والمعنى مختلف، روى البغوي بسنده

عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة» وذلك جزاء إحسان العبد في العمل في مقابلة إحسان ربه إليه بالتربية {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعم العظيمة الحسن من السيد الكريم العظيم الرحيم الجامع لأوصاف الكمال {تكذبان *} أبنعمة اللمس من جهة الفوق أم غيرها مما جعله الله سبحانه مثالاً في أن من أحسن قوبل بمثل إحسانه، وهذه الآية ختام ثمان آيات حاثة على العمل الموصل إلى الثمانية الأبواب الكائنة لجنة المقربين- والله الهادي.

ولما كان قد علم مما ذكر أول هذا الكلام من الخوف مع ذكر وصف الإكرام، وآخره من ذكر الإحسان أن هذا الفريق محسنون، وكان من المعلوم أن العاملين طبقات، وأن كل طبقة أجرها على مقدار أعمالها، اقتضى الحال بيان ما أعد لمن دونهم: {ومن دونهما} أي من أدنى مكان، رتبة مما تحت جنتي هؤلاء المحسنين المقربين {جنتان *} أي لكل واحد لمن دون هؤلاء المحسنين من الخائفين وهم أصحاب اليمين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: دونهما في الدرج، وجعل ابن برجان الأربع موزعة بين الكل، وأن تخصيص هذه العدة إشارة إلى أنها تكون جامعة لما في فصول الدنيا الأربعة: الشتاء والربيع والصيف والخريف، وفسر بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم «جنتان من ذهب أوتيتهما وما فيهما وجنتان من فضة أوتيتهما وما فيهما» ثم جوز أن يكون المراد بالدون الأدنى إلى الإنسان، وهو البرزخ، فتكون هاتان لأهل البرزخ كما كان {وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك} من

عذاب القبر {فبأيِّ آلاء ربكما} أي المحسن بنعمه السابغة إلى الأعلى ومن دونه {تكذبان *} أبنعمة اللمس من جهة التحت أم غيرها مما جعله الله في الدنيا مثالاً لهذا من أن بعض البساتين أفضل من بعض إلى غير ذلك من أنواع التفضيل.

ولما كان ما في هاتين من الماء دون ما في الباقيتين، فكان ربما ظن أن ماءهما لا يقوم بأعلى كفايتهما قال: {مدهامتان *} أي خضراوان خضرة تضرب من شدة الري إلى السواد، من الدهمة، قال الأصبهاني: الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض وفي الأوليين الأشجار والفواكه {فبأيِّ آلاء ربكما} أي نعم المحسن إلى العالي منكما ومن دونه بسعة رحمته {تكذبان *} أبنعمة الذوق من جهة الأمام أم غيرها مما جعله مثالاً لذلك من جنان الدنيا الكثيرة الري وغيره.

▲ تفسير الآيات رقم [66- 78]

{فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (66)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (67)

فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (69)

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (70)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (71)

حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (72)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (73)

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (74)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (75)
مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (76)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (77)
تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78)}

ولما كان ذكر ما يدل على ريهما، حققه بقوله: {فيهما} أي في كل جنة لكل شخص منهم {عينان نضاختان *} أي تفوران بشدة توجب لهما رشاش الماء بحيث لا ينقطع ذلك، ولم يذكر جريهما فكأنهما بحيث يرويان جنتهما ولا يبلغان الجري، والنضخ دون الجري وفوق النضح، قال الأصبهاني: وأصل النضخ بالمعجمة- انتهى.

وكأنهما لمن تغرغر عيناه بالدمع فتمتلئان من غير جري،

وقال ابن برجان ما معناه إن حر (؟) عدم جريهما لكونهما على مثال جنة خريف ما ههنا وشــــتاء به لبعد عهدهما بنزول الماء وســـكنا في أعماق الأرض لينعكس بالنبع والفوران صـــاعداً مع أن الجنة لا مطر فيها {فبأيِّ آلاء ربكما} أي نعم المربي البليغ الحكمة في التربية {تكذبان *}

أبنعمة الذوق من جهة ما وراء اللســـان أم غيرها مما جعله مثالاً لذلك من الأعين التي تفور ولا تجري والأنابيب المصــنوعة للفوران لأنها بحيث تروق ناظرها لصــعودها بقوة نبعها وترشــيشــها من النعم الكبار. ولما ذكر الري والســبب فيه، ذكر ما ينشــأ عنه فقال: {فيهما فاكهة} أي من كل الفاكهة،

وخص أشـرفها وأكثرها وجداناً في الخريف والشـتاء كما في جنان الدنيا التي جعلت مثالاً لهاتين الجنتين

فقال : {ونخل ورمان *} فإن كلاًّ منهما فاكهة وإدام، فلذا خص تشـــريفاً وتنبيهاً على ما فيهما من التفكه وأولاهما أعم نفعاً وأعجب خلقاً فلذا قدم {فبأيِّ آلاء ربكما} أي نعم المحسن إليكما أيها الثقلان بجليل التربية {تكذبان *} أبنعمة الذوق من اليمين أم من غيرها مما جعل مثالاً لهذا من جنان الدنيا وغير ذلك.

ولما كان ما ذكر لا تكمل لذته إلا بالأنيس، وكان قد ورد أنه يكون في بعض ثمار الجنة وحمل أشـجارها نسـاء وولدان كما أن أمثال ذلك في بطن مياه الدنيا {وجعلنا من الماء كل شـيء حي} [الأنبياء: 30] قال جامعاً على نحو ما مضى من الإشارة إلى أن الجنتين لكل واحد من أفراد هذا الصنف: {فيهن} أي الجنان الأربع أو الجنان التي خصت للنساء، وجوز ابن برجان أن يكون الضمير للفاكهة والنخل والرمان فإنه يتكون منها نسـاء وولدان في داخل قشر الرمان ونحوه {خيرات} أي نساء بليغ ما فيهن من الخير، أصله خير مثقلاً لأن «خير» الذي للتفضـيل لا يجمع جمع سـلامة، ولعله خفف لاتصافهن بالخفة في وجودهن وجميع شأنهن، ولكون هاتين الجنتين دون ما قبلهما {حســان *} أي في غاية الجمال خلقاً وخلقاً {فبأيِّ آلاء ربكما} أي نعم الكامل الإحسـان إليكما {تكذبان *} أبنعمة الذوق من جهة اليسار أمن من غيرها ممن جعله مثالاً لتكوين النســـاء والولدان والملابس والحلي من ثمار الأشـــجار والزروع التي من المياه التي بها العيش، ففيها التوليد وغير

ذلك مما تظهره الفكرة لأهل العبرة لأن كل ما في الجنة ينشأ عن الكلمة من الرزق كما ينشأ عنه سبحانه في هذه الدار على تسبيب.

.. والحكمة، ثم بينهن بقوله: {حور} أي ذوات أعين شـديدة سـواد السـواد وشديدة بياض البياض، وقال ابن جرير: بيض جمع {مقصورات} أي على أزواجهن ومحبوسـات، صـيانة عن التبذل، فهو كناية عن عظمتهن {في الخيام *} التي هي من الدر المجوف الشفاف جزاء لمن قصر نفسه عن... الله فكف جوارحه عن الزلات، وصـان قلبه عن الغفلات {فبأيِّ آلاء ربكما} أي الجليل الإحسـان إليكما {تكذبان *} أبنعمة الذوق من جهة الفوق أم بغيرها مما جعله مثالاً لهذا في الدنيا، فإنه كما خلقنا من تراب ثم طورنا في أطوار الخلقة بحسـب حكمة الأسـباب كذلك خلق أولئك من أرض الجنة ورياضها وفواكهها عن كلمة السكان من غير أسباب.

ولما كانت أنفس الأخيار ذوي الهمم العالية الكبار في الالتفات إلى الأبكار قال: {لم يطمثهن} أي يتسلط عليهن نوع سلطة {إنس} وعم الزمان بحذف الجار فقال: {قبلهم} أي انتفى الطمث المذكور في جميع الزمان الكائن قبل طمث أصـحاب هذه الجنان لهن، فلو وجد في لحظة من لحظات القبل لما صدق النفي {ولا جان *} فهن في غاية الاختصاص كل بما عنده {فبأيِّ} أي فتسـبب عن هذا التعدد لمثل هذه النعم العظيمة أنا نقول تعجيباً ممن يكذب توبيخاً له وتنبيهاً على ما له تعالى من النعم التي تفوت الحصر: بأيِّ {آلاء ربكما} أي النعم الجليلة من المدبر لكما بما له من القدرة التامة والعظمة الباهرة العامة {تكذبان *} أبنعمة الذوق من تحت أم بغيرها مما

جعله مثالاً لهذا من الأبكار المخدرات، وجميع ما ذكر من النعم العامة الظاهرة في كل حالة في الدنيا والآخرة، وختم بالتقرير أربع وعشـــرون ثمان منها أول السـورة من النعم الدنياوية، وســت عشـرة جنان، وجعلها على هذا العدد، إشـارة إلى تعظيمها بتكثيرها فإنه عدد تام لأنه جامع لأكثر الكسـور، ولذا قسم الدرهم وغيره أربعة وعشرون قيراطاً. ولما تم التقرير بالنعم المحيطة بالجهات الست والحواس الخمس على الوجه الأكمل من درء المفاسد وجلب المصـالح كما تقدمت الإشـارة إليه بمدكر، بقوله: {فهل من مدكر} [القمر: 17] في القمر، بالحسـن فيها إلى الحواس الخمس وبتكرارها، وتكرار {كيف كان عذابي ونذر} [القمر: 18] ســتاً إلى الجهات الســت من جهة الوراء والخلف، أوترها بنعمة أخرى واحدة إشـــارة إلى أن الســـبب في هذا اعتقاد وحدانية الواحد تعالى اعتقاداً أدى الخضـوع لأمر مرسـل كلما جاء من عنده تعالى فلذلك كانت نعمة لا تنقطع أصـــلاً، بل كلما تم دور منها ابتدأ دور آخر جديد، وهكذا على وجه لا انقطاع له أبداً كما أن الواحد الذي هو أصل العدد لا انتهاء له أصـــلاً، وهذه النعمة الدالة على الراحة الدائمة التي هي المقصـودة بالذات على وجه لا يرى أغرب منه ولا أشـرف، فقال تعالى مبيناً حال المحسـنين ومن دونهم مشـركاً لهم في الراحة على ما لا عين رأت ولا أذن ســمعت ولا خطر على قلب بشـــر: {متكئين} أي لهم ذلك في حال الاتكاء ديدناً لأنهم لا شـــغل لهم بوجه إلا التمتع {على رفرف} أي ثياب ناعمة وفرش رقيقة النســج من الديباج لينة ووســائد عظيمة ورياض باهرة وبسط لها أطراف فاضلة، ورفرف السحاب هدبه أي ذيله المتدلي.

ولما كان الأخضر أحسن الألوان وأبهجها قال: {خضر وعبقري} أي متاع كامل من البسط وغيرها هو في كماله وغرابته كأنه من عمل الجن لنسبته إلى بلدهم، قال في القاموس: عبقر موضع كثير الجن، وقرية بناؤها في غاية الحسن، والعبقري الكامل من كل شيء، والسيد والذي ليس فوقه شيء، وقال الرازي: هو الطنافس المخملة، قال ابن جرير: الطنافس الثخان، وقال القشيري: العبقري عند العرب كل ثوب موشى، وقال الخليل: كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في عمر رضي الله عنه: «فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه» وقال قطرب: ليس هو من المنسوب بل هو بمزلة كرسي وبختي.

ولما كان المراد به الجنس، دل على كثرته بالجمع مع التعبير بالمفرد إشارة إلى وحدة تكامله بالحسن فقال: {حسان *} أي هي في غاية من كمال الصنعة وحسن المنظر لا توصف {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعم العظيمة من المحسن الواحد الذي لا محسن غيره ولا إحسان إلا منه ولا تعد نعمه ولا تحصي ثناء عليه {تكذبان *} وبهذه الآية تمت النعم الثمان المختصة بجنة أصحاب اليمين إشارة إلى العمل لأبوابها الثمانية. والله الموفق.

ولما دل ما ذكر في هذه السورة من النعم على إحاطة مبدعها بأوصاف الكمال، ودل بالإشارة بالنعمة الأخيرة على أن نعمه لا نهاية لها لأنه مع أن له الكمال كله متعال عن شائبة نقص، فكانت ترجمة ذلك قوله في ختام نعم الآخرة مناظرة لما تقدم من ختام نعم الدنيا معبراً هناك بالبقاء لما ذكر قبله، من الفناء، وهذا بما من البركة إشارة إلى أن نعمه لا انقضاء لها: {تبارك}

قال ابن برجان: تفاعل من البركة، ولا يكاد يذكره جل ذكره إلا عند أمر معجب- انتهى، ومعناه ثبت ثباتاً لا يسع العقول جمع وصفه لكونه على صيغه المفاعلة المفيدة لبذل الجهد إذا كانت ممن تمكن منازعته، وذلك مع اليمن والبركة والإحسان. ولما كان تعظيم الاسم أقعد وأبلغ في تعظيم المسمى قال: {اسم ربك} أي المحسن إليك بإنزال هذا القرآن الذي جبلك على متابعته فصرت مظهراً له وصار خلقاً لك فصار إحسانه إليك فوق الوصف، ولذلك قال واصفاً للرب في قراءة الجمهور: {ذي الجلال} أي العظمة الباهرة فهو المنتقم من الأعداء {والإكرام *} أي الإحسان الذي لا يمكن الإحاطة به فهو المتصف بالجمال الأقدس المقتضي لفيض الرحمة على جميع الأولياء، وقراءة ابن عامر {ذو} صفة للاسم، وكذا هو في مصاحف أهل الشام، والوصفان الأخيران من شبه الاحتباك حذف من الأول متعلق الصفة وهو النقمة للأعداء، ومن الثاني أثر الإكرام وهو الرحمة للأولياء، فإثبات الصفة أولاً يدل على حذف ضدها ثانياً، وإثبات الفعل ثانياً يدل على حذف ضده أولاً، وقال الرازي في اللوامع: كأنه يريد بالاسم الذي افتتح به السورة وقد انعطف آخر السورة على أولها على وجه أعم، فيشمل الإكرام بتعليم القرآن وغيره والانتقام بإدخال النيران وغيرها- الله سبحانه وتعالى هو الموفق للصواب.

56 Surah Waaqiah Tafsir Nazamuddurrar li Baqaaee

سورة الواقعة

56

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي

▲ تفسير الآيات رقم [1- 14]

{إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1)
لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2)
خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3)
إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4)
وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (5)
فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (6)
وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (7)
فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8)
وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9)
وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10)
أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11)
فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12)
ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13)
وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14)}

لما صـنف سـبحانه الناس في تلك إلى ثلاث أصـناف: مجرمين وسـابقين ولاحقين، وختم بعلة ذلك وهو أنه ذو الانتقام والإكرام، شرح أحوالهم في هذه السورة وبين الوقت الذي يظهر فيه إكرامه وانتقامه بما ذكر في الرحمن غاية الظهور فقال بانياً على ما أرشده السياق إلى أن تقديره: يكون ذلك كله كوناً يشـترك في علمه الخاص والعام: {إذا وقعت الواقعة *} أي التي لا بد من وقوعها ولا واقع يستحق أن يسمى الواقعة بلام الكمال وتاء المبالغة غيرها، وهي النفخة الثانية التي يكون عنها البعث الأكبر الذي هو القيامة الجامعة لجميع الخلق للحكم بينهم على الانفراد الظاهر الذي لا مدعى للمشاركة فيه بوجه من الوجوه، ويجوز أن يكون {إذا} منصـوباً بالمحذوف لتذهب النفس فيه كل مذهب، فيكون أهول أي إذا وقعت كانت أموراً يضـيق عنها نطاق الحصر.

ولما كان هذا معناه السـاعة التي أبرم القضـاء بأنه لا بد من كونها، عبر عنه بانياً على مبتدأ محذوف فقال: {ليس لوقعتها} أي تحقق وجودها {كاذبة *} أي كذب فهي مصـدر عبر عنه باسـم الفاعل للمبالغة بأنه ليس في أحوالها شيء يمكن أن ينسب إليه كذب ولا يمشي فيها كذب أصلاً ولا يقر عليه، بل كل ما أخبر بمجيئه جاء من غير أن يرده شـيء، وكل ما أخبر بنفيه انتفى فلا يأتي به شـيء، وقرر عظمتها وحقق بعث الأمور فيها بقوله مخبراً عن مبتدأ محذوف: {خافضـة} أي هي لمن يشـاء الله خفضـه من عظماء أهل النار وغيرهم مما يشـاؤه من الجبال وغيرها إلى أسـفل سـافلين {رافعة *} أي لضعفاء أهل الجنة وغيرهم من منازلهم وغيرها مما يشاؤه إلى

عليين، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه. ولما كان في هذا من الهول ما يقطع القلوب الواعية أكده بقوله وزاد ما يشــاء منه أيضــاً بقوله مبدلاً من الظرف الأول بعض ما يدخل في الرفع والخفض: {إذا رجت الأرض} أي كلها على سعتها وثقلها بأيسر أمر {رجاً *} أي زلزلت زلزالاً شديداً بعنف فانخفضت وارتفعت ثم انتفضــت بأهلها انتفاضــاً شــديداً، قال البغوي: والرج في اللغة التحريك. ولما ذكر حركتها المزعجة، أتبعها غايتها فقال: {وبسـت الجبال} أي فتتت على صـــلابتها وعظمها بأدنى إشـــارة وخلط حجرها بترابها حتى صـــار شــيئاً واحداً، وصـــارت كالعهن المنفوش، وســيرت وكانت تمر مرّ الســـحاب {بســاً * فكانت} أي بســبب ذلك {هباء} غباراً هو في غاية الانمحاق، وإلى شــدة لطافته أشــار بصــيغة الانفعال فقال: {منبثاً *} أي منتشـــراً متفرقاً بنفســـه من غير حاجة إلى هواء يفرقه فهو كالذي يرى في شعاع الشمس إذا دخل في كوة.

ولما ذكر غاية مبادئها المرجفة المرهبة، ذكر مبادئ غاياتها فقال: {وكنتم} أي قســـمتم بما كان في جبلاتكم وطباعكم في الدنيا {أزواجاً ثلاثة *} أي أصـنافاً لا تكمل حكمة صـنف منها إلا بكونها قسـمين: أعلى ودونه، ليكون ذلك أدل على تمام القدرة وهم أصـحاب الميمنة المنقسـمين إلى سـابقين وهم المقربون، وإلى لاحقين وهم الأبرار أو أصـــحاب اليمين، وكأنهم من أولي القلب الذي هو العدل الســواء من أصــحاب المشــأمة إلى آخر أصــحاب الميمنة فأصــحاب الســواء هم المقربون، وبقية أصــحاب الميمنة أصــحاب اليمين، وأصحاب المشأمة هم أصحاب القسم الثالث، وكل من الثلاثة ينقسم

إلى أعلى ودونه، وقد تبينت الأقسام الثلاثة آخر السورة، قال البيضاوي: وكل صنف يكون أو يذكر مع صنف آخر زوج.

ولما قسمهم إلى ثلاثة أقسام وفرع تقسيمهم، ذكر أحوالهم وابتدأ ذلك بالإعلام بأنه ليس الخبر كالخبر كما أنه ليس العين كالأثر فقال: {فأصحاب الميمنة *} أي جهة اليمين وموضعها وأعمالها، ثم فخم أمرهم بالتعجيب من حالهم بقوله منبهاً على أنهم أهل لأن يسأل عنهم فيما يفهمه اليمين من الخير والبركة فكيف إذا عبر عنها بصيغة مبالغة فقال: {ما} وهو مبتدأ ثان {أصحاب الميمنة *} أي جهة اليمين وموضعها وأعمالها، والجملة خبر عن الأولى، والرابط تكرار المبتدأ بلفظه، قال أبو حيان رحمه الله تعالى: وأكثر ما يكون ذلك في موضع التهويل والتعظيم.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تقدم الإعذار في السورتين المتقدمتين والتقرير على عظيم البراهين، وأعلم في آخر سورة القمر أن كل واقع في العالم فبقضائه سبحانه وقدره {إنا كل شيء خلقناه بقدر} [القمر: 49] {وكل شيء فعلوه في الزبر} {القمر: 52] وأعلمهم سبحانه في الواقعة بانقسامهم الأخروي فافتتح ذكر الساعة {إذا وقعت الواقعة} إلى قوله {وكنتم أزواجاً ثلاثة} فتجردت هذه السورة للتعريف بأحوالهم الأخروية، وصدرت بذلك كما جرد في هذه السورة قبل التعريف بحالهم في هذه الدار، وما انجر في السور الثلاث جارياً على غير هذا الأسلوب فبحكم استدعاء الترغيب والترهيب لطفاً بالعباد ورحمة ومطالعها مبنية على ما ذكرته تصريحاً لا تلويحاً، وعلى الاستيفاء لا بالإشارة والإيماء، ولهذا قال تعالى في آخر القصص الأخراوية

في هذه السورة: {هذا نزلهم يوم الدين} فأخبر أن هذا حالهم يوم الجزاء وقد قدم حالهم الدنياوي في السورتين قبل وتأكيد التعريف المتقدم فيما بعد، وذلك قوله {فأما إن كان من المقربين} إلى خاتمتها- انتهى.

ولما ذكر الناجين بقسميهم، أتبعهم أضدادهم فقال: {وأصحاب المشأمة} أي جهة الشؤم وموضعها وأعمالها، ثم عظم ذنبهم فقال: {ما أصحاب المشأمة} أي لأنهم أهل لأن يسأل عما أصابهم من الشؤم والشر والسوء بعظيم قدرته التي ساقتهم إلى ما وصلوا إليه من الجزاء الذي لا يفعله بنفسه عاقل بل ولا بهيمة مع ما ركب فيهم من العقول الصحيحة والأفكار العظيمة وصان الأولين عن خذلان هؤلاء فأوصلهم إلى النعيم المقيم.

ولما ذكر القسمين، وكان كل منهما قسمين، ذكر أعلى أهل القسم الأول ترغيباً في أحسن حالهم ولم يقسم أهل المشأمة ترهيباً من سوء مآلهم فقال: {والسابقون} أي إلى أعمال الطاعة أصحاب الجنتين الأوليين في الرحمان وهم أصحاب القلب {السابقون *} أي هم الذين يستحقون الوصف بالسبق لا غيرهم لأنه منزلة أعلى من منزلتهم فلذلك سبقوا إلى منزلتهم وهي جنتهم وهم قسمان كما يأتي عن الرازي، وعن المهدوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «السابقون الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سألوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم».

ولما بين علو شأنهم ونسب السبق إليهم، ترجمه نازعاً للفعل منهم بقوله: {أولئك} أي العالو الرتبة جداً من الذين هم أصحاب الميمنة {المقربون *} أي الذين اصطفاهم الله تعالى للسبق فأرادهم لقربه أو أنعم عليهم بقربه ولولا

فعله في تقريبهم لم يكونوا سابقين، قال الرازي في اللوامع: المقربون تخلصوا من نفوســـهم فأعمالهم كلها لله ديناً ودنيا من حق الله وحق الناس، وكلاهما عندهم حق الله، والدنيا عندهم آخرتهم لأنهم يراقبون ما يبدو لهم من ملكوته فيتلقونه بالرضـا والانقياد، وهم صـنفان فصـنف قلوبهم في جلاله وعظمته هائمة قد ملكتهم هيبتهم فالحق يستعملهم، وصنف آخر قد أرخى من عنانه، فالأمر عليه أســهل لأنه قد جاور بقلبه هذه الحطة ومحله أعلى فهو أمين الله في أرضـــه، فيكون الأمر عليه أســهل لأنه قد جاوز- انتهى. ثم بين تقريبه لهم بقوله: {في جنات النعيم *} أي الذي لا نعيم غيره لأنه لا كدر فيه بوجه ولا منغص، والصـــنف الآخر منهم المتقربون والمتشـــاققون من أصحاب المشأمة، أولئك المغضوب عليهم المبعودون، ومن دونهم الضالون البعيدون وهم أصحاب الشمال.

ولما ذكر الســابقين فصــلهم فقال: {ثلة} أي جماعة كثيرة حســنة، وقال البغوي: والثلة جماعة غير محصــورة العدد، {من الأولين *} وهم الأنبياء الماضون عليهم الصلاة والسلام، ومن آمن بهم من غير واسطة رضي الله عنهم {وقليل من الآخرين *} وهم من آمن بمحمد- عليه الصلاة والسلام- كذلك بغير واسطة رضي الله عنهم، فقد كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مائة ألف ونيفاً وعشـرين ألفاً، وكان من خرج مع موســى عليه الســلام من مصــر وهم من آمن به من الرجال المقاتلين ممن هو فوق العشـرين ودون الثمانين وهم ســتمائة ألف فما ظنك بمن عداهم من الشــيوخ ومن دون العشـرين من التابعين والصـبيان ومن النسـاء، فكيف بمن عداه من سـائر

النبيين عليهم الصلاة والسلام. المجددين من بني إسرائيل وغيرهم، وقيل «الثلة والقليل كلاهما من هذه الأمة»، رواه الطبراني وابن عدي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أبان بن أبي عياش وهو متروك ورواه إسحاق بن راهويه مسدد بن مسرهد وأبو داود الطيالسي وإبراهيم الحربي والطبراني من رواية علي بن زيد وهو ضعيف عن عقبة بن صهبان عن أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أولى بالصواب، وتطبيقه على هذه الأمة سواء كان مرفوعاً أو موقوفاً صحيح لا غبار عليه، فتكون الصحابة رضي الله عنهم كلهم من هذه الثلة وكذا من تبعهم بإحسان إلى رأس القرن الثالث وهم لا يحصيهم إلا الله تعالى، ومن المعلوم أنه تناقص الأمر بعد ذلك إلى أن صار السابق في الناس أقل من القليل لرجوع الإسلام إلى الحال الذي بدأ عليها من الغربة

»بدأ الإسلام غريباً وسيكون غريباً فطوبى للغرباء» ويجوز أن يقدر أيضاً: وثلة- أي جماعة كثيرة هلكى- من الأولين، وهم المعاندون من الأمم الماضين، وقليل من الآخرين- وهم المعاندون من هذه الأمة.

▲ تفسير الآيات رقم [15- 23]

{عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15)

مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16)

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17)

بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18)

لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19)
وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20)
وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21)
وَحُورٌ عِينٌ (22)
كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23)}

ولما ذكر السابقين في الخير بصنفيهم مشيراً إلى السابقين في الشر بصنفيهم، ذكر جزاء أهل الخير ليعلم منه جزاء أولئك، فقال مبيناً أنهم ملوك لكن ملكهم لا ينافس فيه ولا يحاسد، بل هو كله يقابل بالوداد والصفاء {على سرر} وهو ما يسر الإنسان من المقاعد العالية المصنوعة للراحة والكرامة التي هي آية الملك وهو العرش {موضونة *} أي منسوجة نسجاً مضاعفاً منضودة داخلاً بعضها في بعض مقارب النسج معجباً كالدرع لكن نسجها بالذهب مفصلاً بالجوهر من الدر والياقوت.

ولما ذكر السرر وبين عظمتها، ذكر غايتها فقال: {متكئين} أي متكئين هيئة المتربع أو غيرها من الجنب أو غيرها {عليها} ولما كان الجمع إذا كثر كان ظهور بعض أهله إلى بعض، أعلم أن جموع أهل الجنة على غير ذلك فقال: {متقابلين *} فلا بعد ولا مدابرة لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض ولا يكره بعضهم بعضاً.

ولما كان المتكئ قد يصعب عليه القيام لحاجته قال: {يطوف عليهم} أي لكفاية كل ما يحتاجون إليه {ولدان} على أحسن صورة وزي وهيئة {مخلدون *} قد حكم ببقائهم على ما هم عليه من الهيئة، قال البغوي: تقول العرب

لمن كبر ولمن شمط: إنه مخلد، قال: قال الحسن: هم أولاد أهل الدنيا، لم يكن لهم حسنات يثابون عليها ولا سيئات يعاقبون عليها لأن الجنة لا ولادة فيها، فهم خدام أهل الجنة.

ولما كان مدحهم هذا في غاية الإبلاغ مع الإيجاز، وكان فيه- إلى تبليغ ما لهم- تحريك إلى مثل أعمالهم، وكان الأكل الذي هو من أعظم المآرب مشاراً إليه بالمدح العظيم الذي من جملته الاستراحة على الأسرة التي علم أن من عادة الملوك أنهم لا يتسنمونها إلا بعد قضاء الوطر منه فلم يبق بعده إلا ما تدعو الحاجة إليه من المشارب وما يتبعها قال تعالى: {بأكواب} أي كيزان مستديرة الأفواه بلا عرى ولا خراطيم لا يعوق الشارب منها عائق عن الشرب من أي موضع أراد منها فلا يحتاج أن يحول الإناء إلى الحالة التي تناوله عنها ليشرب، ويمكن أن تكون البدأة بالشراب لما نالوا من المتاعب من العطش كما لمن يشرب من الحوض فيكون حينئذ قبل الأكل والله أعلم {وأباريق *} أي أواني لها عرى وخراطيم فيها من أنواع المشارب ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين {وكأس} أي إناء معد للشرب فيه والشراب نفسه.

ولما كان الشراب عاماً بينه بقوله: {من معين *} أي خمر جارية صافية صفاء الماء ليس يتكلف عصرها بل ينبع كما ينبع الماء. ولما أثبت نفعها وما يشوق إليها، نفى ما ينفر عنها فقال: {لا يصدعون} أي تصدعاً يوجب المجاوزة {عنها} أي بوجع في الرأس ولا تفرق لملالة {ولا ينزفون *} أي يذهب بعقولهم بوجه من الوجوه أي يصرع شرابهم، من نزفت البئر- إذا نزح

ماؤها كله، ونزف فلان: ذهب عقله أو سـكر، وبنى الفعلان لملجهول لأنه لم تدع حاجة إلى معرفة الفاعل، وقال الرازي في اللوامع: قال الصـادق: لا تذهل عقولهم عن موارد الحقائق عليهم ولا يغيبون عن مجالس المشـاهدة بحال.

ولما بدأ بالألذ الهاضـم للأكل، تلاه بما يليه مما يدعو إليه الهضـم تصـريحاً به بعد التلويح فقال: {وفاكهة مما يتخيرون *} أي هو فيها بحيث لو كان فيها جيد وغيره واختاروا وبالغوا في التنقية لكان مما يقع التخير عليه، ولما ذكر ما جرت العادة بتناوله لمجرد اللذة، أتبعه ما العادة أنه لإقامة البينة وإن كان هناك لمجرد اللذة أيضاً فقال: {ولحم طير} ولما كان في لحم الطير مما يرغب عنه، احترز عنه بقوله: {مما يشتهون *} أي غاية الشهوة بحيث يجدون لآخره من اللذة ما لأوله.

ولما كان لم يكن بعد الأكل والشـرب أشـهى من الجماع، قال عاطفاً على {ولدان}: {وحور العين *} أي يطفن عليهم، وجره حمزة والكسـائي عطفاً على {سـرر} فإن النسـاء في معنى الاتكاء لأنهن يسـمين فراشـاً. ولما كان المثل في الأصـل الشـيء نفسـه كما مضـى في الشـورى قال: {كأمثال} أي مثل أشخاص {اللؤلؤ المكنون *} أي المصون في الصدف عما قد يدنسه.

▲ تفسير الآيات رقم [24– 34]

{جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24)

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (25)

إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (26)

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27)
فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28)
وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29)
وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30)
وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (31)
وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32)
لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33)
وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34)}

ولما أبلغ في وصف جزائهم بالحسن والصفاء، دل على أن أعمالهم كانت كذلك لأن الجزاء من جنس العمل فقال تعالى: {جزاء} أي فعل لهم ذلك لأجل الجزاء {بما كانوا} جبلة وطبعاً {يعملون *} أي يجددون عمله على جهة الاستمرار.

ولما أثبت لها الكمال وجعله لهم، نفى عنها النقص فقال: {لا يسمعون} أي على حال من الأحوال {فيها لغواً} أي شيئاً مما لا ينفع فإن أنكاً... بالسميع الحكيم ذلك، واللغو: الساقط {ولا تأثيماً *} أي ما يحصل به الإثم أو النسبة إلى الإثم، بل حركاتهم وسكناتهم كلها رضى الله، وما قطع قلوب السائرين إلى الله إلا هاتان الخصلتان بينا أحدهم يبني ما ينفعه مجتهداً في البناء إذ هو غلبه طبعه فهدم أكثر ما بنى، وبينا هو يظن أنه قد قرب إذا هو تحقق بمثل ذلك أنه قد بعد، نزحت داره وشط مزاره، فاللّه المستعان.

ولما كان الاستثناء، معيار العموم، ساق بصورة الاستثناء قوله: {إلا قيلاً} أي هو في غاية اللطافة والرقة بما دل عليه المبني على ما قبلها محاسن مع ما تدل عليه مادة قوله. ولما تشوف السامع إليه بالعبير بما ذكر، بينه بقوله: {سلاماً} ودل على دوامه بتكريره فقال: {سلاماً *} أي لا يخطر في النفس ولا يظهر في الحس منهم قول إلا دالاً على السلامة لأنه لا عطب فيها أصلاً، وساقه مساق الاستثناء المتصل دلالة على أنه إن كان فيها لغو فهو ذلك حسب، وهو ما يؤمنهم وينعمهم ويبشرهم مع أنه دال على حسن العشرة وجميل الصحبة وتهذيب الأخلاق وصفاء المودة.

ولما أتم سبحانه القسم الأول القلبي السوائي المولي من الثلاثة بقسميه، وذكر في جزائه مما لأصحاب المدن ما لا يمكنهم الوصول إليه، عطف عليه الثاني الذي هو دونه لذلك وهم والله أعلم الأبرار وهم أيضاً صنفان، وذكر في جزائهم من جنس ما لأهل البوادي أنهى ما يتصورونه ويتمنونه فقال: {وأصحاب اليمين *} ثم فخم أمرهم وأعلى مدحهم لتعظيم جزائهم، والإشارة إلى أنهم أهل لأن يسأل عن حالهم فإنهم في غاية الإعجاب فقال: {ما أصحاب اليمين} ولما عبر عنهم بما أفهم أنهم أولو القوة والجد في الأعمال، والبركة في جمع الأحوال، ذكر عشيهم بادئاً بالفاكهة لأن عيش الجنة كله تفكه، ذاكراً منها ما ينبت في بلاد العرب من غير كلفة بغرس ولا خدمة، وأشار إلى كثرة ما يذكره بأن جعله ظرفهم، فقال من غير ذكر لسرير الملك الذي حبا به المقربين من الملك، ولم يزد على ذلك المأكول وما معه بما يتصور للبهائم: {في سدر} أي شجر نبق متدلي الأغصان من شدة

حمله، من سدر الشعر- إذا سدله {مخضود *} أي هو مع أنه لا شوك له ولا عجم بحيث تنثني أغصانه من شدة الحمل، من خضد الشوك: قطعه، والغصن: ثناه وهو رطب، وفي ذكر هذا تنبيه على أن كل ما لا نفع فيه أو فيه نوع أذى له في الجنة وجود كريم لأن الجنة إنما خلقت للنعيم.

ولما ذكر ما يطلع في الجبال والأماكن المعطشة والرمال، أتبعه ما لا يطلع إلا على المياه دلالة على أن أماكنهم في غاية السهولة والري فقال: {وطلح} أي شجر موز أو نخل، وقال الحسن: شجر له ظل بارد طيب الرائحة وقال الفراء وأبو عبيدة: شجر عظام لها شوك، وقيل: هو أم غيلان، وله نور كثير، ويحكى عن أبي تراب النخشبي أنه كان سائراً مع قوم من الصوفية على قدم التوكل، فجاعوا أياماً فقال: أتريدون أن تأكلوا، قالوا: نعم، فضرب بيده على شجرة غيلان فإذا عليها عراجين موز، فأكلوا إلا شاباً منهم، فقال: لا آكل ولا أصحبك بعدها، لأني كنت أسير بلا معلوم، وقد صرت أنت الآن معلومي، كلما جعت التفتت نفسي إليك. {منضود *} أي منظوم بالحمل من أعلاه إلى أسفله متراكم يتراكب بعضه على بعض على ترتيب هو في غاية الإعجاب، قال في القاموس: الطلح: شجر عظيم، والطلع: والموز، والطلع من النخل: شيء يخرج كأنه نعلان مطبقان والحمل بينهما منضود، والطرف محدد، أو ما يبدو من ثمرته أول ظهورها.

ولما ذكر ما لا يكون إلا في البلاد الحارة قال: {وظل ممدود *} أي مستوعب للزمان والمكان فهو دائم الاستمداد كما بين الإسفار وطلوع الشمس لا فناء له ولا نهاية. ولما كان ما ذكر من الري لا يستلزم الجري

قال: {وماء مسـكوب *} أي جار في منازلهم من غير أخدود ولا يحتاجون فيه إلى جلب من الأماكن البعيدة، ولا الإدلاء في بئر كما لأهل البوادي.

ولما ذكر ما تقدم، عم بقوله: {وفاكهة كثيرة *} أي أجناســـها وأنواعها وأشـخاصـها. ولما كانت لا تكون عندنا إلا في أوقات يسـيرة، بين أن أمر الجنة على غير ذلك فقال: {لا مقطوعة} ولما كانت في الدنيا قد يعز التوصل إليها مع وجودها لشيء من الأشياء أقله صعود الشجرة أو التحجز بجدار أو غيره قال: {ولا ممنوعة *} ولما كان التفكه لا يكمل الالتذاذ به إلا مع الراحة قال: {وفرش مرفوعة *} أي هي رفيعة القدر وعالية بالفعل لكثرة الحشـو ولتراكم بعضـها على بعض ولأنها على السـرر، وروى البغوي من طريق النسـائي عن أبي سـعيد وأبي هريرة رضـي الله عنهما أن النبي صـلى الله عليه وسـلم قال: «ارتفاعها كما بين السـماء والأرض مسـيرة خمسـمائة عام»

▲ تفسير الآيات رقم [35- 46]

{إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35)

فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (36)

عُرُبًا أَتْرَابًا (37)

لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (38)

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39)

وَثُلَّةٌ مِنَ الْآَخِرِينَ (40)

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41)

فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42)
وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43)
لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44)
إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45)
وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46)}

ولما كانت النســاء يسـمين فرشــاً، قال تعالى معيداً للضــمير على غير ما يتبادر إليه الذهن من الظاهر على طريق الاســتخدام مؤكداً لأجل إنكار من ينكر البعث: {إنا} أي بما لنا من القدرة والعظمة التي لا يتعاظمها شــــيء {أنشأناهن} أي الفرش التي معناها النساء من أهل الدنيا بعد الموت ولو عن الهرم والعجز بالبعث، وزاد في التأكيد فقال: {إنشــاء *} أي من غير ولادة، بل جمعناهن من التراب كما فعلنا في ســــائر المكلفين ليكونوا كأبيهم آدم عليه الصـــلاة والســـلام في خلقه من تراب، فتكون الإعادة كالبداءة، ولذلك يكون الكل عند دخول الجنة على شـكله عليه الصـلاة والسـلام، ويجوز أن يكون المراد بهن الحور العين فيكون إنشاء مبتدعاً لم يسبق له وجود.

ولما كان للنفس أتم التفات إلى الاختصـــاص، وكان الأصـــل في الأنثى المنشــأة أن تكون بكراً، نبه على أن المراد بكارة لا تزول إلا حال الوطئ ثم تعود، فكلما عاد إليها وجدها بكراً، فقال: {فجعلناهن} أي الفرش الثيبات وغيرهن بعظمتنا المحيطة بكل شــــيء {أبكاراً *} أي بكارة دائمة لأنه لا تغيير في الجنة ولا نقص.

ولما كان مما جرت به العادة أن البكر تتضـــرر من الزوج لما يلحقها من الوجع بإزالة البكارة، دل على أنه لا نكد هناك أصـــلاً بوجع ولا غيره بقوله: {عرباً} جمع عروب، وهي الغنجة المتحببة إلى زوجها، قال الرازي في اللوامع: الفطنة بمراد الزوج كفطنة العرب. ولما كان الاتفاق في السن أدعى إلى المحبة ومزيد الألفة قال: {أتراباً *} أي على سن واحدة وقد واحد، بنات ثلاث وثلاثين ســـنة وكذا أزواجهن. قال الرازي في اللوامع: أخذ من لعب الصـــبيان بالتراب– انتهى، «وروى البغوي من طريق عبد بن حميد عن الحسن: قال أتت عجوز النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله! ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال: » يا أم فلان! إن الجنة لا تدخلها عجوز، فولت تبكي، قال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: إنا أنشـأناهن، الآية «رواه الترمذي عنه في الشـمائل هكذا مرسـلاً، ورواه البيهقي في كتاب البعث عن عائشة رضي الله عنها والطبراني في الأوسط من وجه عنها، ومن وجه آخر عن أنس رضـــي الله عنه، قال شـيخنا حافظ عصره ابن حجر: وكل طرقه ضعيفة، وروى البغوي أيضاً من طريق الثعلبي عن أنس بن مالك رضـــي الله عنه عن النبي صـلى الله عليه وسلم في هذه الآية قال:» عجائزكن في الدنيا عمشاً رمصاً فجعلهن أبكاراً «.

ولما كان هذا الوصف البديع مقتضياً لما يزدهي عنه النفس لأن يقال: لمن هؤلاء؟ وإن كان قد علم قبل ذلك، نبه عليه بقوله تعالى: {لأصحاب اليمين *} ويجوز أن يتعلق ب {أتراباً} نصاً على أنهن في أسنان أزواجهن.

ولما أنهى وصف ما فيه أهل هذا الصنف على أنهى ما يكون لأهل البادية بعد أن وصف ما للسابقين بأعلى ما يمكن أن يكون لأهل الحاضرة، وكان قد قدم المقايسة في السابقين بين الأولين والآخرين، فعل هنا كذلك فقال: {ثلة من الأولين *} أي من أصحاب اليمين {وثلة} أي منهم {من الآخرين *} فلم يبين فيهم قلة ولا كثرة، والظاهر أن الآخرين أكثر، فإن وصف الأولين بالكثرة لا ينافي كون غيرهم أكثر ليتفق مع قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن هذه الأمة ثلثا أهل الجنة، فإنهم عشرون ومائة صف، هذه الأمة منهم ثمانون صفاً».

ولما أتم وصف ما فيه الصنفان المحمودان، وبه تمت أقسام أصحاب الميمنة الأربعة الذين هم أصحاب القلب واليمين، أتبعه أضدادهم فقال: {وأصحاب الشمال} أي الجهة التي تتشاءم العرب بها وعبر بها عن الشيء الأخس والحظ الأنقص، والظاهر أنهم أدنى أصحاب المشأمة كما كان أصحاب اليمين دون السابقين من أصحاب الميمنة، ثم عظم ذمهم ومصابهم فقال: {ما أصحاب الشمال *} أي إنهم بحال من الشؤم هو جدير بأن يسأل عنه. ولما ذمهم وعابهم، ذكر عذابهم ليعلم أن القسم الأشد منهم في الشؤم أشد عذاباً فقال: {في سموم} أي ظرفهم المحيط بهم لفح من لفح النار شديد يتخلل المسام {وحميم *} أي ماء حار بالغ في الحرارة إلى حد يذيب اللحم. ولما كان للتهكم في القلب من شديد الوقد ما يجل عن الوصف والحد قال: {وظل} ثم أتبعه ما صرح بأنه تهكم فقال: {من يحموم *} أي دخان أسود كالحمم أي الفحم شديد السواد بما أفهمته الزيادة وشبه صيغة المبالغة: ولما

كان المعهود من الظل البرد والإراحة، نفى ذلك عنه فقال: {لا بارد} ليروح النفس {ولا كريم *} ليؤنس به ويلجأ إليه ويرجى خيره ويعول في حال عليه بأن يفعل ما يفعله الواسع الخلق الصفوح من الإكرام، بل هو مهين، سماه ظلاً لترتاح النفس إليه ثم نفى عنه نفع الظل وبركته لينضم حرقان: اليأس بعد الرجاء إلى إخراق اليحموم فتصير الغصة غصتين.

ولما أنتج هذا أنه على خلق اللئيم فهو موضع الحرارة والضيق والخسة والشدة، علله بقوله: {إنهم} أكده وإن كان فيهم أهل الضر لاجتماعهم في الاسترواح إلى منابذة الدين باتباع الشهوات، ولأن ما مضى لهم بالنسبة إلى هذا العذاب حال ناعم، وعبر بالكون دلالة على العراقة في ذلك ولو بتهيئهم له جبلة وطبعاً فقال: {كانوا} أي في الدنيا. ولما كان ذلك ملازماً للاستغراق في الزمان بميل الطباع، نزع الجار فقال: {قبل ذلك} أي الأمر العظيم الذي وصلوا إليه {مترفين *} أي في سعة من العيش منهمكين في الشهوات مستمتعين بها متمكنين فيها لترامي طباعهم إليها فأعقبهم ما في جبلاتهم من الإخلاد إلى الترف عدم الاعتبار والاتعاظ في الدنيا والتكبر على الدعاة إلى الله، وفي الآخرة شدة الألم لرقة أجسامهم المهيأة للترف بتعودها بالراحة بإخلادها إليها وتعويلها عليها {وكانوا} أي مع الترف {يصرون} أي يقيمون ويدومون على سبيل التجديد مما لهم من الميل الجبلي إلى ذلك {على الحنث} أي الذنب، ومنه قولهم: بلغ الغلام الحنث، أي الحلم الذي هو وقت المؤاخذة بالذنب، ويطلق الحنث على الكذب والميل إلى الأباطيل واليمين الغموس ونقض العهد المؤكد.

ولما كان ذلك قد يكون من المعهود مما يغتفر بكونه صـــــغيراً أو في وقت يســـير قال : {العظيم *} دالاًّ على أنهم يســـتهينون العظائم من القبائح والفواحش.

▲ تفسير الآيات رقم [47– 55]

{وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47)

أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48)

قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49)

لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50)

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51)

لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52)

فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53)

فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54)

فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55)}

ولما وصفهم بالترف والإصرار على السرف، وكان ذلك يلازم البطالة، وكان يلزم عنها الغباوة والفســـاد الموجب للشـــقاوة، ذكر إنكارهم لما لا أبين منه، فقال عاطفاً على ما أفهمه التعبير عن الإثم بالحنث من نحو : فكانوا يقسمون بالله جهد أيمانهم أنهم لا يبعثون وأن الرسل كاذبون: {وكانوا يقولون *} أي إنكاراً مجددين لذلك دائماً جلافة أو عناداً : {أئذاً} أي أنبعث إذاً، وحذف العامل لدلالة {مبعوثون} عليه، ولا يعمل هو لأن الاســـتفهام وحرف التأكيد اللذين لهما الصـــــدر معناه {متنا} أي فلم يبق في رد أرواحنا طب

بوجه {وكنا} أي كوناً ثابتاً {تراباً وعظاماً} ولما كان استفهامهم هذا لإنكار أن يكون في شيء من إقامة أبدانهم أو رد أرواحهم طب، أعاد الاستفهام تاكيداً لإنكارهم فقال: {أءِنا لمبعوثون *} أي كائن وثابت بعثنا ساعة من الدهر، وأكدوا ليكون إنكارهم لما دون المؤكد بطريق الأولى.

ولما كانت أفهامهم واقفة مع المحسوسات لجمودهم. وكان البلى كلما كان أقوى كان ذلك البالي في زعمهم من البعث أبعد، قالوا مخرجين في جملة فعلية عطفاً على الواو من {معبوثون} من غير تأكيد بضمير الفصل بالاستفهام: {أو آباؤنا} أي يبعث آباؤنا أي يوجد بعثهم من حين، وزادوا الاستبعاد على ما أفهموا بقولهم: {الأولون *} أي الذين قد بليت مع لحومهم عظامهم، فصاروا كلهم تراباً ولا سيما إن حملتهم السيول ففرقت ترابهم في كل أوب، وذهبت به في كل صوب، وسكن نافع وابن عامر الواو على أن العاطف {أو} ويجوز أن يكون العطف على محل «إن» واسمها.

ولما كانوا في غاية الجلافة، رد إنكارهم بإثبات ما نفوه، وزادهم الإخبار بإهانتهم ثم دل على صحة ذلك بالدليل العقلي لمن يفهمه، فقال مخاطباً لأعلى الخلق وأوقفهم به لأن هذا المقام لا يذوقه حق ذوقه إلا هو كما أنه لا يقوم بتقريره لهم والرفق بهم إلا هو: {قل} أي لهم ولكل من كان مثلهم، وأكد لإنكارهم: {إن الأولين} الذين جعلتم الاستبعاد فيهم أولياً، ونص على الاستغراق بقوله: {والآخرين *} ودل على سهولة بعثهم وأنه في غاية الثبات، منبهاً على أن نقلهم بالموت والبلى تحصيل لا تفويت: {لمجموعون *} بصيغة اسم المفعول، في المكان الذي يكون فيه الحساب. ولما كان

جمعهم بالتدريج، عبر بالغاية فقال: {إلى ميقات} أي زمان ومكان {يوم معلوم *} أي معين عند الله، ومن شـــأنه أن يعلم بما عنده من الأمارات، والميقات: ما وقت به الشيء من زمان أو مكان أي حد.

ولما كان زمان البعث متراخياً عن نزول القرآن، عبر بأداته وأكد لأجل إنكارهم فقال: {ثم} أي بعد البعث بعد الجمع المدرج {إنكم} وأيد ما فهمه من أصحاب الشمال هم القسم الأدنى من أصحاب المشأمة فقال: {أيها الضـــالون} أي الذين غلبت عليه الغباوة فيهم لا يفهمون، ثم أتبع ذلك ما أوجب الحكم عليهم بالضـــلال فقال: {المكذبون *} أي تكذيباً ناشـئاً عن الضلال والتقيد بما لا يكذب به إلا عريق في التكذيب بالصدق {لآكلون من شجر} منبته النار.

ولما كان الشجر معدن الثمار الشهية كالسدر والطلح، بينه بقوله: {من زقوم *} أي شـــيء هو في غاية الكراهة والبشـــاعة في المنظر ونتن الرائحة والأذى، قال أبو عبد الله القزاز في ديوانه الجامع وعبد الحق في واعيه: الزقم: شوب اللبن والإفراط فيه، يقال: بات يزقم اللبن زقماً، ومن هذا الزقوم الذي ذكره الله تبارك وتعالى، وقالا: قال أبو حنيفة: الزقوم شـــجرة غبراء صـغيرة الورق لا شـوك لها زفرة لها كعابر في رؤوسـها ولها ورد تجرشـه النحل، ونورها أبيض ورأس ورقها قبيح جداً، وهي مرعى، ومنابتها السـهل، وقال في القاموس: في الدفر بالدال المهملة، الدفر – بالتحريك: وقوع الدود في الطعام والذل والنتن، ويسكن، وقال في المعجمة: الذفر – محركة: شدة ذكاء الريح كالذفرة أو يخص برائحة الإبط المنتن، والنتن وماء الفحل،

والذفراء من الكتائب : الســـهكة من الحديد، والكعبرة بضـــمتين عين وراء مهملتين: عقدة أنبوب الزرع، وعن السهيلي أن أبا حنيفة ذكر في النبات أن شـــجرة باليمن يقال لها الزقوم لا ورق لها، وفروعها أشـــبه شـــيء برؤوس الحيات، وقال البيضـاوي: شـجرة صـغيرة الورق دفرة مرة تكون بتهامة، وفي القاموس: والزقمة: الطاعون وقال في النهاية: فعول من الزقم: اللقم الشـديد والشـرب المفرط، وقال ابن القطاع: زقم زقماً: بلع، وقد علم من مجموع هذا الكلام تفسيره بالطاعون تارة والشرب المفرط أخرى، ومن الاشتراط والشجرة المنتنة والبشـعة المنظر أنه شـيء كريه يضـطر آكله إلى التملؤ منه بنهمة وهمة عظيمة، ومن المعلوم أن الحامل له على هذا مع هذه الكراهة لا يكون إلا في أعلى طبقات الكراهة، ولذلك حسن جداً موقع قوله مسبباً عن الأكل: {فمالئون} أي ملأً هو في غاية الثبات وأنتم في غاية الإقبال عليه مع ما هو عليه من عظيم الكراهة {منها} أي الشجر، أنثه لأنه جمع شجر أو هو اســـم جنس، وهم يكرهون الإناث فتأنيثه- والله أعلم- زيادة في تنفيرهم منه {البطون *} أي لشـيء عجيب يضـطركم إلى تناول هذا الكريه مما هو أشد منه كراهة بطبقات من جوع أو غيره، وإن فســـرت بما قالوا من أنه معروف لهم أنه الزبد بالتمر لم يضـــر ذلك بل يكون المعنى أنهم يتملؤون منها تملأً من يأكل من هذا في الدنيا مع أنه من المعلوم أنه لا شـيء في النار المعدة للعذاب لمن أعدت لعذابه حسن.

ولما كان من يأكل كثيراً يعطش عطشـاً شـديداً فيشـرب ما قدر عليه رجاء تبريد ما به من حرارة العطش، سـبب عنه قوله: {فشـاربون عليه} أي على

هذا المليء أو الأكل {من الحميم *} أي الماء الذي هو في غاية الحرارة بحث ضوعف إحماؤه وإغلاؤه.

ولما كان شربهم لأدنى قطرة من ذلك في غاية العجب، أتبعه ما هو أعجب منه وهو شدة تملئهم منه فقال مسبباً عما مضى: {فشاربون} أي منه {شرب} بالفتح في قراءة الجماعة وبالضم لنافع وعاصم وحمزة، وقرئ شاذاً بالكسر والثلاثة مصادر، قال في القاموس: وشرب كسمع شرباً ويثلث أ والشراب مصدر وبالضم والكسر اسمان، وبالفتح القوم: يشربون، وبالكسر: الماء والحظ منه، والمورد ووقت الشرب، والكل يصلح هنا {الهيم *} أي الإبل العطاش لأن بها الهيام وهو داء يشبه الاستسقاء جمع أهيم، وقال القزاز: جمع هيماء وهو أي- اليهام- بالضم: داء يصيب الإبل فتشرب ولا تروى- انتهى. وقال: ذو الرمة:

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد *** صداها ولا يقضي عليها هيامها

ويقال: الهيم: الرمل، ينصب فيه كل ما صب عليه، والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى الأكل ثم من العطش ما يضطرهم إلى الشرب على هذه الهيئة.

▲ تفسير الآيات رقم [56- 61]

{هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56)

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57)

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58)

أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59)

نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60)
عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61)}

ولما كان كأنه قيل: هذا عذابهم كله، قيل تهكماً بهم ونكاية لهم: {هذا نزلهم} أي ما يعد لهم أول قدومهم مكان ما يعد للضـيف أول حلوله كرامة له {يوم الدين *} أي الجزاء الذي هو حكمة القيامة، وإذا كان هذا نزلهم فما ظنك بما يأتي بعده على طريق من يعتني به فما ظنك بما يكون لمن هو أغنى منهم من المعاندين وهو في طريق التهكم مثل قول أبي الشعراء الضبي:

وكنا إذا الجبار بالسيف ضافنا *** جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

ولما ذكر الواقعة وما يكون فيها للأصـناف الثلاثة، وختم بها على وجه بين فيه حكمتها وكانوا ينكرونها، دل عليه بقوله: {نحن} أي لا غيرنا {خلقناكم} أي بما لنا من العظمة، ولعل هذا الخطاب للدهرية المعطلة من العرب. ولما كانوا منكرين للبعث عدوا منكرين للابتداء وإن كانوا من المخلصة بالمقريب بالخلق لأنهما لما بينهما من الملازمة لا انفكاك لأحدهما عن الآخر فقال: {فلولا} أي فتسبب عن ذلك أن يقال تهديداً ووعيداً: هلا ولم لا {تصدقون *} أي بالخلق الذي شاهدتموه ولا منازع لنا فيما فيه فتصدقوا بما لا يفرق بينه وبينه إلا بأن يكون أحق منه في مجاري عاداتكم، وهو الإعادة فتعملوا عمل العبيد لساداتهم ليكون حالكم حال مصدق بأنه مربوب.

ولما حضضـهم على التصـديق بالاستدلال بإيجادهم، وكان البعث إنما هو تحويلهم من صـورة بالية إلى الصـورة التي كانوا عليها من قبل، سـبب عن تكذيبهم به مع تصديقهم بالخلق عدم النظر في تبديل الصور في تفاصيله،

أو ســبب عن قول من عســاه يقول من أهل الطبائع: إنما خلقنا من نطفة حدثت بحرارة كامنة، فقال: {أفرأيتم} أي أخبروني هل رأيتم بالبصــــر أو البصـــيرة أنا خلقناكم فيهديكم ذلك أنا نقدر على الإعادة كما قدرنا على البداءة فرأيتم {ما تمنون *} أي تريقون- من النطف التي هي مني في الأرحام بالجماع.

ولما كانت العبرة بالمسبب لا بالسـبب، نبه على ذلك بتجديد الإنكار تنبيهاً على أنهم وإن كانوا معترفين بتفرده بالإبداع، فإن إنكارهم للبعث مســـتلزم لإنكارهم لذلك فقال: {ءأنتم تخلقونه} أي توجدونه مقدراً على ما هو عليه من الاستواء والحكمة بعد خلقه من صورة النطفة إلى صورة العلقة ثم من صورة العلقة إلى صور المضغة ثم منها إلى صور العظام والأعصاب {أم نحن} خاصـــة. ولما كان المقام لتقرير المنكرين ذكر الخبر المفهوم من الســياق على وجه أفهم أن التقدير: أو أنتم الخالقون له أم نحن؟ فقال: بل نحن {الخالقون *} أي الثابت لنا ذلك، فالآية من الاحتباك: ذكر أولاً {تخلقون} دليلاً على حذف مثله له سبحانه ثانياً، وذكر الاسـم ثانياً دليلاً على حذف مثله لهم أولاً، وسر ذلك أنه ذكر ما هو الأوفق لأعمالهم مما يدل على وقت التجدد ولو وقتاً ما، وما هو الأولى بصــفاته ســبحانه مما يدل على الثبات والدوام.

ولما كان الجواب: أنت الخالق وحدك، وكان الطبيعي ربما قال: اقتضـــى ذلك الحرارة المخمرة للنطفة، وكانت المفاوتة للآجال مع المساواة في اسمية الحياة من الدلائل العظيمة على تمام القدرة على الإفناء والإبداء بالاختيار

مبطلة لقول أهل الطبائع دافعة لهم، أكد ذلك الدليل بقوله: {نحن} أي بما لنا من العظمة لا غيرنا {قدرنا} أي تقديراً عظيماً، لا يقدر سوانا على نقض شيء منه {بينكم} أي كلكم لم نترك أحداً منكم بغير حصة منه {الموت} أي أوجبناه على مقدار معلوم لكل أحد لا يتعداه، فقصـــرنا عمر هذا وربما كان في الأوج من قوة البدن وصـــحة المزاج، فلو اجتمع الخلق كلهم على إطالة عمره ما قدروا أن يؤخروه لحظة، وأطلنا عمر هذا وقد يكون في الحضـيض من ضـــعف البدن واضـــطراب المزاج لو تمالؤوا على تقصـــيره طرفة عين لعجزوا، وأنتم معترفون بأنه سبحانه رتب أفعاله على مقتضى الكمال والقدرة والحكمة البالغة، فلو كانت فائدة الموت مجرد القهر لكانت نقصــاً لكونه يعم الغني والفقير والظالم والمظلوم، ولكان جعل الإنســـــان مخلداً أولى وأحكم، ففائدته غير مجرد القهر وهي الحمل على إحســـــان العمل للقاهر خوفاً من العرض عليه والمحاســـــبة بين يديه ثم النقلة إلى دار الجزاء والترقية إلى العلوم التي البدن حجابها من تمييز الخبيث والطيب والعلم بمقادير الثواب والعقاب، وغير ذلك مما يبصره أولو الألباب.

ولما كان حاصل الموت أنه تغيير الصورة التي كانت إلى غيرها، وكان من قدر على تحويل صورة إلى شـيء قدر على تحويلها إلى شـيء آخر مماثل لذلك الشـيء قال: {وما نحن} أي على ما لنا من العظمة، وأكد النفي فقال: {بمســبوقين *} أي بالموت ولا عاجزين ولا مغلوبين {على أن نبدل} تبديلاً عظيماً {أمثالكم} أي صوركم وأشخاصكم لما تقدم في الشورى من أن المثل في الأصـل هو الشـيء نفسـه {وننشـئكم} أي إنشـاء جديداً بعد تبديل ذواتكم

{في ما لا تعلمون *} فإن بعضهم تأكله السباع أو الحيتان أو الطيور فتنشأ أبدانُها منه، بعضهم يصير تراباً فربما نشأ منه نبات فأكلته الدواب، فنشأ منه أبدانها، وربما صار ترابه من معادن الأرض كالذهب والفضة والحديد والحجر ونحو ذلك، وقد لمح إلى ذلك قوله تعالى: {قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً} إلى آخرها، أو يكون المعنى كما قال البغوي: نأتي بخلق مثلكم بدلاً منكم ونخلقكم فيما لا تعلمون من الصور. أي بتغيير أوصافكم وصوركم في صور أخرى بالمسخ، ومن قدر على ذلك قدر على الإعادة.

▲ تفسير الآيات رقم [62- 69]

{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62)
أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63)
أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64)
لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65)
إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66)
بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67)
أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68)
أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69)}

ولما كان التقدير: فلقد علمتم النشأة الثانية النطفية، عطف عليه قوله مؤكداً تنبيهاً على أنهم لما كانوا يعملون بخلاف ما يعلمون كانوا كأنهم منكرون لهذا العلم: {ولقد علمتم} أي أيها العرب {النشأة الأولى} الترابية لأبيه آدم عليه الصلاة والسلام: أو اللحمية لأمكم حواء عليها السلام حيث لم يكن

هناك طبيعة تقتضي ذلك، وإلا لوجد مثل ذلك بعد ذلك، والنطفية لكم، وكل منها تحويل من شيء إلى غيره، فالذي شاهدتم قدرته على ذلك لا يقدر على تحويلكم بعد أن تصيروا تراباً إلى ما كنتم عليه أولاً من الصورة؟ ولهذا سبب عما تقدم قوله: {فلولا} أي فهلا ولم لا {تذكرون *} أي تذكراً عظيماً تكرهون أنفسكم وإن كان فيه خفاء ما- مما أشار إليه الإدغام من أن الملوم عليه غيب، وكذا بعض ما قيس به أن من قدر على هذه الوجوه من الإبداءات قدر على الإعادة، بل هي أهون في مجاري عاداتكم.

ولما كان علمهم بأمر النبات الذي هو الآية العظمى لإعادة الأموات أعظم من علمهم بجميع ما مضى، وكان أمره في الحرث وإلقاء البذر فيه أشبه شيء بالجماع وإلقاء النطفة، ولذلك سميت المرأة حرثاً، وصل بما مضى مسبباً عنه قوله منكراً عليهم: {أفرأيتم} أي أخبروني هل رأيتم بالبصر أو البصيرة ما نبهناكم عليه وفيما تقدم فتسبب عن تنبهكم لذلك أنكم رأيتم {ما تحرثون *} أي تجددون حرثه على سبيل الاستمرار بتهيئة أرضه للبذر وإلقاء البذر فيه.

ولما كانوا لا يدعون القدرة على الإنبات بوجه، وكان القادر عليه قادراً على كل شيء، وهم يعتقدون في أمر البعث ما يؤدي إلى الطعن في قدرته، كرر الإنكار عليهم فقال: {ءأنتم تزرعونه} أي تنبتونه بعد طرحكم البذر فيه وتحفظونه إلى أن يصير مالاً {أم نحن} خاصة، وأكد لما مضى بذكر الخبر المعلوم من السياق فقال: {الزارعون *} أي المنبتون له والحافظون، فالآية من الاحتباك بمثل ما مضى في أختها قريباً سواء.

ولما كان الجواب قطعاً : أنت الفاعل لذلك وحدك ؟ قال موضـــحاً لأنه ما زرعه غيره بأن الفاعل الكامل من يدفع عما صـنعه ما يفسـده، ومن إذا أراد إفسـاده لم يقدر أحد على منعه {لو نشـاء} أي لو عاملناكم بصـفة العظمة، وأكد لأن فعلهم فعل الآمن من ذلك مع أنهم في غاية الاسـتبعاد لأن يهلك زرعهم كما زرعوه أو لأن المطعوم أهم من المشـروب وأعظم، فإنه الأصـل في إقامة البدن والمشروب تبع له فقال: {لجعلناه} أي بتلك العظمة {حطاماً} أي مكسـراً مفتتاً لا حب فيه قبل النبات حتى لا يقبل الخروج أو بعده ببرد مفرط أو حر مهلك أو غير ذلك فلا ينتفع به {فظلتم} أي فأمتم بسـبب ذلك نهاراً في وقت الأشغال العظيمة وفي كل وقت وتركتم كل ما يهمكم {تفكهون *} قال في القاموس: فكههم بملح الكلام: أطرفهم بها وفكه- كفرح فكهاً فهو فكه وفاكه: طيب النفس أو يحدث صـحبه فيضـحكم ومنه تعجب كتفكه، والتفاكه: التمازح، وتفكه: تندم: والأفكوكة: الأعجوبة، وقال ابن برجان: الفكه هو المتردد في القول الذاهب فيه كل مذهب- انتهى.

فأقمتم دائماً تندمون على العاقكم أو معاصـيكم التي سـببت ذلك التلف أو تتعجبون أو تحدثون في ذلك ولم تعرجوا على شـغل غيره كما تفعلون عند الأشياء السارة التي هي في غاية الإعجاب والملاحة والملاءمة، ولهذا عبر عما المراد به الإقامة مع الدوام ب {ظل} الذي معناه أقام نهاراً إشـارة إلى ترك الأشـغال التي تهم ومحلها النهار ويمنع الإنسـان من أكثر ما يهمه من الكلام لهذا النازل الأعظم، وحذف إحدى لامي ظل وتاء التفعل من تفكه إشـارة إلى ضـعف المصـابين عن الدفاع في بقائهم وفي كلامهم حال بقائهم

الضـعيف، وكون المحذوف عين الفعل وهو الوسـط، إشـارة إلى خلع القلب واختراق الجوف والقهر العظيم، فلا قدرة لأحد منهم على ممانعة هذا النازل بوجه ولا على تبريد ما اعتراه منه من حرارة الصـــدر وخوف الفقر بغير الشـــكاية إلى آماله ممن يعلم أنه لا ضـــر في يده ولا نفع، ورمبا كان ذلك إشـارة إلى أنه عادته سـبحانه قرب الفرج من شـدائد الدنيا ليكون الإنسـان متمكناً من الشـــكر لا عـذر لـه في تركـه، ويكون المعنى أنكم مع كثرة اعتيادكم للفرج بعد الشدة عن قرب تيأسون أول ما يصدمكم البلاء، فتقبلون على كثرة الشكاية، ولا ينفعكم كثرة التجارب لإدرار النعم أبداً.

ولما ذكر تفكههم، وكان التفكه يطلق على ما ذكر من التعجب والتندم وعلى التنعم، قال الكسـائي: هو من الأضـداد، تقول العرب: تفكهت أي تنعمت، وتفكهت، أي حزنت، بين المراد بقوله حكاية لتفكههم: {إنا} وأكد إعلاماً بشـدة بأسـهم فقال {لمغرمون *} أي مولع بنا وملازمون بشـر دائم وعذاب وهلاك لهلاك رزقنا، أو مكرمون بغرامة ما أنفقنا ولم ينتفع به، وقراءة أبي بكر عن عاصم بالاستفهام لإنكار هذا الواقع والاستعظام له والتعجب منه، وهي منبهة على أنهم لشـــدة اضـــطرابهم من ذلك الحادث مذبذبون تارة يجزمون باليأس والشر وتارة يشكون فيه وينسبون الأمر إلى سوء تصرفهم، وعليه يدل إضـرابهم: {بل نحن} أي خاصـة {محرمون *} أي حرمنا غيرنا وهو من لا يرد قضـاؤه، فلا حظ لنا في الاكتسـاب، فلو كان الزراع ممن له حظ لأفلح زرعه، قال في القاموس: الغرام: الولوع والشـــر الدائم والهلاك والعذاب، والغرامة ما يلزم أداؤه، وحرمه: منعه، والمحروم، الممنوع عن

الخير ومن لا ينمى لـه مـال والمحـارف- أي بفتح الراء- وهو الممنوع من الخير الذي لا يكاد يكتسـب، وقال الأصـبهاني في تفسـيره: والمحروم ضـد المرزوق، أي والمرزوق المجرود بالجيم وهو المحظوظ.

ولما وقفهم على قدرته في الزرع مع وجود أسـبابه، وقدمهم بشـدة إليه، وكان ربما ألبس نوع لبس لأن لهم فيه سـبباً في الجملة، أتبعه التوقيف على قدرته على التصرف في سببه الذي هو الماء الذي لا سبب لهم في شيء من أمره أصـلاً، فقال مسـبباً عما أفادهم هذا التنبيه مذكراً بنعمة الشـرب الذي يحوج إليه الغذاء: {أفرءيتم} أي أخبروني هل رأيتم بالبصـر أو البصـيرة ما نبهنا عليه مما مضـــى في المطعم وغيره، أفرأيتم {الماء} ولما كان منه ما لا يشـرب، وكانت النعمة في المشـروب أعظم، قال واصـفاً له بما أغنى عن وصـــفه بالعذوبة، وبين موضـــع النعمة التي لا محيد عنها فقال: {الذي تشـربون *} ولما كان عنصـره في جهة العلو، قال منكراً عليهم مقرراً لهم: {أءنتم أنزلتموه} ولما كان الإنزال قد يطلق على مجرد إيجاد الشـيء النفيس، وكان السـحاب من عادته المرور مع الريح لا يكاد يثبت، عبر بقوله تحقيقاً لجهة العلو وتوقيفاً على موضـع النعمة في إثباته إلى أن يتم حصـول النفع به: {من المزن} أي السـحاب المملوء الممدوح الذي شـأنه الإسـراع في المضي، وقال الأصبهاني، وقيل: السحاب الأبيض خاصة، وهو أعذب ماء {أم نحن} أي خاصـة، وأكد بذكر الخبر وهو لا يحتاج إلى ذكره في أصـل المعنى فقال: {المنزلون *} أي له، رحمة لكم وإحساناً إليكم بتطييب عيشكم

على ما لنا من مقام العظمة الذي شـــأنه الكبر والجبروت وعدم المبالاة بشيء، والآية من الاحتباك بمثل ما مضى في الآيتين السابقتين سواء.

▲ تفسير الآيات رقم [70– 76]

{لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70)

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71)

أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72)

نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73)

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74)

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75)

وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76)}

ولما كان الجواب: أنت وحدك فعلت ذلك على غناك عن الخلق بما لك من الرحمة وكمال الذات والصفات، قال مذكراً بنعمة أخرى: {لو نشاء} أي حال إنزاله وبعده قبل أن ينتفع به. ولما كانت صـــيرورة الماء ملحاً أكثر من صيرورة النبت حطاماً، ولم يؤكد لذلك وللتنبيه على أن السامعين لما مضى التوقيف على تمام القدرة صـــاروا في حيز المعترفين فقال تعالى: {جعلناه} أي بما تقتضـــيه صـــفات العظمة {أجاجاً} أي ملحاً مراً محرقاً كأنه في الأحشـــاء لهيب النار المؤجج فلا يبرد عطشـــاً ولا ينبت نبتاً ينتفع به. ولما كان هذا مما لا يسـاغ لإنكاره، سـبب عنه على سـبيل الإنكار والتحضـيض قوله: {فلولا تشـكرون *} أي فهل لا ولم لا تجددون الشـكر على سـبيل الاســـتمرار باســـتعمال ما أفادكم ذلك من القوى في طاعة الذي أوجده لكم

ومكنكم منه وجعله ملائماً لطباعكم مشــتهى لنفوســكم نافعاً لكم في كل ما ترونه.

ولما كانت النار سـبباً لعنصـر ما فيه الماء فيتحلب فيتقاطر كما كان الماء سـبباً لتشـقيق الأرض بالزرع، ولم يكن لمخلوق قدرة على التول بنوع سـبب، أتبعه بما كما أتبع الزرع بالماء لذلك ولبيان القدرة على ما لا ســـبب فيه لمخلوق في الســـفل كما كان إنزال الماء عرياً عن ســـنتهم في العلو، فقال مسبباً عما مضـى تنبيهاً على أنه أهلهم للتأمل في مصنوعاته والتبصـر في عجائب آياته فقال: {أفرءيتم} أي أخبروني هل رأيتم بالأبصـار والبصـائر ما تقدم فرأيتم {النار} ولما كان المراد ناراً مخصـوصــة توقفهم على تمام قدرته وتكشف لهم ذلك كشفاً بيناً بإيجاد الأشياء من أضدادها فقال: {التي تورون *} أي تسـتخرجون من الزند فتوقدون به سـواء كان الزند يابسـاً أو أخضـر بعد أن كانت خفية فيه لا يظن من لم يجرب ذلك أن فيه ناراً أصـــلاً، فكان ذلك مثل التورية التي يظهر فيها شيء ويراد غيره، ثم صار بعد ذلك الخفاء إلى ظهور عظيم وسلطة متزايدة وعظمة ظاهرة تحرق كل ما لا بسـها حتى ما خرجت منه، والعرب أعرف الناس بأمر الزند، وذلك أنهم يقطعون غصناً من شـجر المرخ وآخر من العفار، ويحكون أحدهما على الآخر فتتقدح منها النار على أن النار في كل شـجر، وإنما خص المرخ والعفار لسـهولة القدح منهما، وقد قالوا: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار.

ولما كان هذا من عجائب الصـــنع، كرر التقرير والإنكار تنبيهاً عليه فقال: {ءأنتم أنشأتم} أي اخترعتم وأوجدتم وأودعتم وأحييتم وربيتم وأوقعتم {شجرتها}

أي المرخ والعفار التي تتخذون منها الزناد الذي يخرج منه، وأسكنتموها النار مختلطة بالماء الذي هو ضـــدها وخبأتموها في تلك الشـــجرة لا يعدو واحد منها على الآخر مع المضـــادة فيغلبه حتى يمحقه ويعدمه {أم نحن} أي خاصـــة، وأكد بقوله: {المنشـئون *} أي لها بما لنا من العظمة على تلك الهيئة، فمن قدر على إيجاد النار التي هي أيبس ما يكون من الشـــجرة الأخضـــر مع ما فيه من المائية المضـــادة لها في كيفيتها، كان أقدر على إعادة الطرواة والغضـاضـة في تراب الجسد الذي كان غضـاً طرياً فيبس وبلي، والآية من الاحتباك بمثل ما مضى في أخواتها سواء.

ولما كان الجواب قطعاً: أنت وحدك، قال دالاًّ على ذلك تنبيهاً على عظم هذا الخبر: {نحن} أي خاصـة {جعلناها} بما اقتضـته عظمتنا، وقدم من منافعها ما هو أولى بسـياق البعث الذي هو مقامه فقال: {تذكرة} أي شـيئاً تتذكرونه وتتذكرون به تذكراً عظيماً جليلاً عن كل ما أخبرنا به من البعث وعذاب النار الكبرى وما ينشـأ فيها من شـــجرة الزقوم وغير ذلك مما ننيره لأولي البصـــائر والفهوم من العلوم، قال ابن برجان: فوزان قدح الزناد من الشجر، والزناد وزان الصيحة بهم ووزان إنشائه الأجسام وزان إنشائه الشجرة النار، ويتذكر بإنشـائها في الشجر إنشـاء الحياة في الأجسـام وبإنشـائها من غيبها أن النار الكبرى في غيب ما نشـاهده، وهذا من آثار كونها في الجو- انتهى. وعلق بها سبحانه كثيراً من أسباب المعاش التي لا غنى عنها ليكون مذكراً لهم بما أوقدوا به حاضـــراً دائماً فيكون أجدر باتعاظهم {ومتاعاً} أي إنشـــاءً وبقاءً وتعميراً ونفعاً وإيصـــالاً إلى غاية المراد من الاســـتضـــائة

والاصطلاء والإنضاج والتحليل والإذابة والتعقيد والتكليس، وهروب السباع وغير ذلك، والمراد أنها سبب لجميع ذلك {للمقوين} أي الجياع الذي أقوت بطونهم- أي خلت- من الفقر والإغناء من النازلين بالأرض القواء، والقواء بالكسر والمد أي القفر الخالية المتباعدة الأطراف البعيدة من العمران، وكل آدمي مهيأ للقواء فهو موصوف به وإن لم يكن حال الوصف كذلك، وقال الرازي: أقوى من الأضداد: اغتنى وافتقر، وقال أبو حيان: وهذه الأربعة التي ذكرها الله تعالى ووقفهم عليها من أمر خلقهم وما به قوام عيشهم من المطعوم والمشروب، والنار من أعظم الدلائل على البعث إذ فيها انتقال من شيء إلى شيء إحداث شيء من شيء، ولذلك أمر في آخرها بتنزيهه- انتهى.

ولما دل سبحانه في هذه الآيات على عجائب القدرة وغرائب الصنع، فبدأ بالزرع وختم بالنار والشجر، وأوجب ما نبه التذكر لأمرها والتبصر في شأنها أنها من أسباب ما قبلها، وأنه سبب لها لكونه سبباً لها لإثبات ما هي له، وكان مجموع ذلك إشارة إلى العناصر الأربعة، قال ابن برجان: إلاّ أن الماء والأرض لخلق الأركان، والأخلاق والصفات للهواء والنار، وكان ذلك من جميع وجوهه أمراً باهراً، أشار إلى زيادة عظمته بالأمر بالتنزيه مسبباً عما أفاد ذلك، فقال معرضاً عمن قد يلم به الإنكار مقبلاً على أشرف خلقه إشارة إلى أنه لا يفهم هذا المقام حق فهمه سواه ولا يعمل به حق عمله غيره: {فسبح} أي أوقع التنزيه العظيم عن كل شائبة نقص من ترك البعث وغيره ولا سيما بعد بلوغ هذه الأدلة إلى حد المحسوس تسبيح متعجب من آثار

قدرته الدالة على تناهي عظمته وتسبيح شكر له وتعظيم له وإكبار وتنزيه عما يقول الجاحدون وتعجيب منهم مقتدياً بجميع ما في السماوات والأرض، ومن أعجب ذلك أنه سخر لنا في هذه الدار جهنم، قال ابن برجان : جعل منها بحرارة الشمس جنات وثمرات وفواكه وزروع ومعايش.

ولما كان تعظيم الاسم أقعد في تعظيم المسمى قال: {باسم} أي متلبساً بذكر اسم {ربك} أي المحسن بعد التربية إليك بهذا البيان الأعظم بما خصك به مما لم يعطه أحداً غيرك، وأثبتوا ألف الوصل هنا لأنه لم يكثر دوره كثرته في البسملة منها وحذفوه منها لكثرة دورها وهم شأنهم الإيجاز وتقليل الكثير إذا عرف معناه، وهذا معروف لا يجهل، وإثبات ما أثبت من أشكاله مما لا يكثر دليل على الحذف منه، وكذا لا تحذف الألف مع غير الباء في اسم الله ولا مع الباء في غير الجلالة من الأسماء لما تقدم من العلة.

ولما كان المقام للتعظيم قال : {العظيم *} الذي ملأ الأكوان كلها عظمة، فلا شيء منها إلا وهو مملوء بعظمته تنزهاً عن أن تلحقه شائبة نقص أو يفوته شيء من كمال، قال القشيري: وهذه الآيات التي عددها سبحانه تمهيد لسلوك طريق الاستدلال وكما في الخبر «تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة» هذه الفكرة التي نبه الله عليها.

ولما كان من العظمة الباهرة ما ظهر في هذه السورة من أفانين الإنعام في الدارين، وبدأ بنعمة الآخرة لكونها النتيجة، ثم دل عليها بإنعامه في الدنيا فكان تذكيراً بالنعم لتشكر، ودلالة على النتيجة لتذكر، وفي كل حالة تستحضر فلا تكفر، فوصلت الدلالة إلى حد هو أوضح من المحسوس

وأضــــوأ من المشـــــموس، وكان مع هذه الأمور الجليلة في مظهر أعجز الخلائق على أن يأتوا بمثله من كل وجه، أما من جهة الجواب عن تشبههم وتعنتهم فلكونه يطابق ذلك مطابقة لا يمكن أن يكون شــــيء مثلها، ويزيد على ذلك بما شــاء الله من المعارف من غير أن يدع لبســاً، وأما من جهة المفردات فلكونها النهاية في جلالة الألفاظ ورشاقة الحروف وجمع المعاني، فيفيد ذلك أنه لا تقوم كلمة أخرى مقام كلمة منه أصـــلاً، وأما من جهة التركيب فلكون كل كلمة منها أحق في مواضــعها بحيث إنه لو قدم شـــيء منها أو أخر لاختل المعنى المراد في ذلك السياق بحسب ذلك المقام، وأما من جهة الترتيب في الجمل والآيات والقصص في المبادئ والغايات فلكونه مثل تركيب الكلمات، كل جملة منتظمة بما قبلها انتظام الدر اليتيم في العقد المحكم النظيم، لأنها إما أن تكون علة لما تلته أو دليلاً أو متممة بوجه من الوجوه الفائقة على وجه ممتع الجناب جليل الحجاب لتكون أحلى في فمه، وأجلى بعد ذوقه في نظمه وسائر علمه، فكان ثبوت جميع ما أخبر به على وجه لا مغتمر فيه ولا وقفة في اعتقاد حســـنه، فثبت أن الله تعالى أرســـل الآتي بهذا القرآن صـــلى الله عليه وســلم بالهدى وبالحق، لا أنه آتاه كل ما ينبغي له، فآتاه الحكمة وهي البراهين القاطعة واســـتعمالها على وجوهها، والموعظة الحســنة، وهي الأمور المرققة للقلوب المنورة للصــدور، والمجادلة التي هي على أحســـن الطرق في نظم معجز موجب للإيمان، فكان من ســـمعه ولم يؤمن لم يبق له من الممحلات إلا أن يقول: هذا البيان ليس لظهور المدعى وثبوته بل لقوة عارضــــة المدعي وقوته على تركيب الأدلة

وصـــوغ الكلام وتصـــريف وجوه المقال، وهو يعلم أنه يغلب لقوة جداله لا لظهور مقاله، كما أنه ربما يقول أحد المتناظرين عند انقطاعه لخصـــمه: أنت تعلم أن الحق معي لكنك تســتضــعفني ولا تتصــفني، فحينئذ لا يبقى للخصم جواب إلا الإقسام بالإيمان التي لا مخرج عنها أنه غير مكابر وأنه منصف، وإنما يفزع إلى الإيمان لأنه لو أتى بدليل آخر لكان معرضاً لمثل هذا، فيقول: وهذا غلتني فيه لقوة جدالك وقدرتك على ســوق الأدلة ببلاغة مقالك، فلذلك كانوا إذا أفحمهم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: إنه يريد أن يتفضـــل علينا فيما نعلم خلافه، فلم يبق إلا الإقســـام، فأنزل الله أنواعاً من الأقســـام بعد الدلائل العظام، ولهذا كثرت الآيات في أواخر القرآن، وفي الســبع الأخيرة خاصـــة أكثر، فلذلك ســبب عن هذه الأدلة الرائعة والبراهين القاطعة قوله: {فلا أقسم} بإثبات «لا» النافية، إما على أن يكون مؤكدة بأن ينفي ضـد ما أثبته القسم، فيجمع الكلام بين إثبات المعنى المخبر به ونفي ضـده، وإما على تقدير أن هذا المقام يسـتحق لعظمته وإنكارهم له أن يقسم عليه بأعظم من هذا على ما له من العظمة لمن له علم- والله أعلم.

ولما كان الكلام السابق في الماء الذي جعله سبحانه مجمعاً للنعيم الدنيوية الظاهرة وقد رتب ســـبحانه لإنزاله الأنواء على منهاج دبره وقانون أحكمه، وجعل إنزال القرآن نجوماً مفرقة وبوارق متلالئة متألقة قال: {بمواقع النجوم *} أي بمســـاقط الطوائف القرآنية المنيرة النافعة المحيية للقلوب، وبهبوطها الذي ينبني عليه ما ينبني من الآثار الجليلة وأزمان ذلك وأماكنه وأحواله، وبمســـاقط الكوكب وأنوائها وأماكن ذلك وأزمانه في تدبيره على ما ترون من

الصنع المحكم والفعل المتقن المقوم، الدال بغروب الكواكب على القدرة على الطي بعد النشـــر والإعدام بعد الإيجاد، وبطلوعها الذي يشـــاهد أنها ملجأة إليه إلجاء الســـاقط من علو إلى ســـفل لا يملك لنفســـه شـــيئاً، لقدرته على الإيجاد بعد الإعدام، وبآثار الأنواء على مثل ذلك بأوضـــــح منه- إلى غير ذلك من الدلالات التي يضـــيق عنها العبارات، ويقصـــــر دون علياها مديد الإشـــــارات، ولمثل هذه المعاني الجليلة والخطوب العظيمة جعل في الكلام اعتراضاً بين القسم وجوابه، وفي الاعتراض اعتراضاً بين الموصوف وصفته تأكيداً للكلام، وهزاً لنافذ الأفهام تنبيهاً على أن الأمر عظيم والخطب فادح جسـيم، فقال موضـحاً له بالتأكيد رحمة للعبيد بالإشـارة إلى أنهم جروا على غير ما يعلمون من عظمتنا فعدوا غير عالمين: {وإنه} أي هذا القسـم على هذا المنهج {لقســـم لو تعلمون} أي لو تجدد لكم في وقت علم لعلمتم أنه {عظيم} وإقسـامه لنا على ذلك ونحن أقل قدراً وأضـعف أمراً إعلاماً بما له من الرحمة التي من عظمها أنه لا يتركنا سـدى- كل ذلك ليصـلح أنفسـنا باتباع أمره والوقوف عند زجره، قال ابن برجان : ومن إتقانه جل جلاله في خليقته وحكمه في بريته أن جعل لكل واقع من النجوم الفلكية طالعاً يســـمى بالإضافة إلى الواقع الرقيب دون تأخر، وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى: {رب المشرقين ورب المغربين فبأي آلاء ربكما تكذبان} [الرحمن: 18] يجمع ذلك الشـمس والقمر والنجوم وهي نجوم منازل القمر عددها ثمانية وعشـرون منزلة سـوى تحجبها الشـمس فتمت تسـع وعشـرون منزلة يشـتشـرفها القمر، فربما اســتتر ليلة وربما اســتتر ليلتين، فالقمر ينزل في هذه المنازل كل ليلة

منزلة حتى يتمها لتمام الشهر، وإما الشمس فإنها تقيم فيها أربعة عشر يوماً ويسمى حلولها في هذه المحال ثم طلوع المنزلة التي تليها لوقوع هذا رقيب لها نوء- انتهى، وهو يعني أن من تأمل هذه الحكم علم ما في هذا القسم من العظم، وأشبع القول فيها أبو الحكم، وبين ما فيها من بدائع النعم، ثم قال: ويفضل الله بفتح رحمته كما يشاء فينزل من السماء ماء مباركاً يكسر به من برد الزمهرير فيرطبه ويبرد من حر السعير فيعدله، وقسم السنة على أربعة فصول أتم فيها أمره في الأرض بركاتها وتقدير أقواتها، قال {وبارك فيها وقدر بها أقواتها في أربعة أيام} [فصلت: 10] في قراءتنا (فيها) بدل (بها) ا. هـ. ثم قال: وجعل هذه الدنيا على هذا الاعتبار الجنة الصغرى، ولو أتم القسم على هذا الوجه ثم على الاعتبار تخفيفه الفيح وإنارته الزمهرير والسعير هي جهنم الصغرى.

▲ تفسير الآيات رقم [77- 85]

{إِنَّهُ لَقُرْآَنٌ كَرِيمٌ (77)

فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78)

لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79)

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (80)

أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81)

وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82)

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83)

وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84)

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85)}
ولما أتم القسم على هذا الوجه الجليل، أجابه بقوله مؤكداً لما لهم من ظاهر الإنكار: {إنه} أي القرآن الذي أفهمته النجوم بعموم أفهامها {لقرآن} أي جامع سهل قريب مفقه مبين للغوامض ذو أنواع جليلة {كريم *} ظهرت فيه أفانين إنعامه سبحانه فيما دق من أمور هذه الدنيا وجل من أمور الدارين بما ذكر في هذه السورة وما تقدمها من إصلاح المعاش والمعاد، فهو بالغ الكرم منزه عن كل شائبة نقص ولؤم ودناءة، من كرمه كونه من الملك الأعلى إلى خير الخلق بسفارة روح القدس وبلسان العرب الذين اتفق الفرق على أن لسانهم أفصح الألسن وعلى وجه أعجز العرب.
ولما ذكر المعنى، ذكر محل النظم الدال عليه بلفظ دال على نفس النظم فقال: {في كتب} أي خط ومخطوط فيه جامع على وجه هو في غاية الثبات {مكنون *} أي هو في ستر مصون لما له من النفاسة والعلو في السماء في اللوح المحفوظ، وفي الأرض في الصدور المشرفة، وفي السطور في المصاحف المكرمة المطهرة، محفوظاً مع ذلك من التغيير والتبديل.
ولما كان ما هو كذلك قد يحصل له خلل يسوء خدامه قال: {لا يمسه} أي الكتاب الذي هو مكتوب الذي هو مكتوب فيه أعم من أن يكون في السماء أو في الأرض أو القرآن أو المكتوب منه فضلاً عن أن يتصرف فيه {إلا المطهرون *} أي الطاهرون الذين بولغ في تطهيرهم وهم رؤوس الملائكة الكرام، ولم يكن السفير به إلاّ هم ولم ييسر الله حفظه إلا لأطهر عباده، ولم يعرف معناه إلا لأشرف حفاظه وأطهرهم قلوباً، ومن عموم ما يتحمله اللفظ

من المعنى بكونه كلام العالم لكل شيء فهو لا يحمل لفظاً إلا وهو مراد له أنه يحرم منه على من لم يكن له في غاية الطهارة بالبعد عن الحدثين الأكبر والأصغر، فهو على هذا نفي بمعنى النهي وهو أبلغ، قال البغوي: وهو قول أكثر أهل العلم، وروي بإسناد من طريق أبي مصعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو ابن حزم أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله لعمرو بن حزم رضي الله عنه (أن لا يمس القرآن إلا طاهر) والمراد به المصحف للجوار كما في النهي أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو. ومما يحتمله أيضاً التعبير باللمس أنه لا يقرأه بلسانه إلا طاهر، فإن أريد الجنابة كان النهي للحرمة أو للأكمل.

ولما ذكر الذي منه صيانته، أتبعه شرفه بشرف منزله وإنزاله على حال هو في غاية العظمة مسمياً له باسم المصدر للمبالغة ولأن هذا المصدر أغلب أحواله، ولذلك غلب عليه هذا الأسم: {تنزيل} أي وصوله إليكم بالتدريج بحسب الوقائع والتقريب للأفهام والتأني والترقية من حال إلى حال وحكم بواسطة الرسل من الملائكة.

ولما كان هذا في غاية الاتفاق واليسر ذكر من صفاته ما يناسبه فقال: {من رب العالمين *} من الخالق العالم بتربيتهم.

ولما أفصح من وصف هذا الكتاب العظيم ما يقتضي أن يكون بمجرده مثبتاً لما لا تدركه العقول من كماله وكافياً في الإذعان لاعتقاده فكيف إذا كان ما تحكم العقول وتقضي بفساد ما سواه، فكيف إذا كان مما يتذكر الإنسان مثله في نفسه، عجب منهم في جعله سبباً لإنكار البعث الذي إذا ذكر الإنسان

أحوال نفســـه كفاه ذلك في الجزم به فقال منكراً تعجباً : {أفبهذا} ولما كان الإنســـان مغرماً بما يجدد له من النعم ولو هان فكيف إذا كان أعلى النعم قال: {الحديث} أي الذي تقدمت أوصافه العالية وهو متجدد إليكم إنزاله وقتاً بعد وقت {أنتم} أي وأنتم العرب الفصــحاء والمفوهون البلغاء {مدهنون *} أي كذابون منافقون بسـببه تظهرون غير ما تبطنون أنه كذاب وأنتم تعلمون صدقه بحسن معانيه، وعجزكم عن مماثلته في نظومه ومبانيه، وتقولون: لو شئنا لقلنا مثل هذا: وجميع أفعالكم تخالف هذا فإنكم تصبرون لوقع السيوف ومعانقة الحتوف، ولا تأتون بشـيء يعارضـه يبادئ شيئاً منه أو يناقضـه أو تلاينون أيها المؤمنون من يكذب به ويطعن في علاه أو يتوصـــل ولو على وجه خفي إلى نقض شـــيء من عراه، تهاوناً به ولا يتصـــلبون في تصـــرفه تعظيماً لأمره حتى يكونوا أصلب من الحديد، قال في القاموس: دهن: نافق، والمداهنة: إظهار خلاف ما تبطن كالإدهان والغش، وقال البغوي رحمه الله: هو الإدهـان وهو الجري في البـاطن على خلاف الظـاهر، وقـال الرازي : والفرق بين المداراة والمداهنة يرجع إلى القصـد، فما قصـد به غرض سـوى الله فهو المداهنة، وما قصـــــد به أمر يتعلق بالدين فهو المداراة، وقال ابن برجـان : الإدهـان والمـداهنـة : الملاينـة في الأمور والتغـافـل والركون إلى التجاوز– انتهى . فهو على هذا إنكار على من ســمع أحداً يتكلم في القرآن بما لا يليق ثم لا يجاهره بالعداوة، وأهل الاتحاد كابن عربي الطائي صاحب الفصــوص وابن الفارض صــاحب التائية أول من صــوبت إليه هذه الآية، فإنهم تكلموا في القرآن على وجه يبطل الدين أصـــلاً ورأســـاً ويحله عروة

عروة، فهم أضـــر الناس على هذا الدين، ومن يؤول لهم أو ينافح عنهم ويعتذر لهم أو يحسن الظن بهم مخالف لإجماع الأمة أنجس حالاً منهم فإن مراده إبقاء كلامهم الذي لا أفســد للإســلام منه من غير أن يكون لإبقائه مصلحة ما بوجه من الوجوه.

ولما كان هذا القرآن متكفلاً بسـعادة الدارين، قال تعالى: {وتجعلون رزقكم} أي حظكم ونصــيبكم وجميع ما تنتفعون به من هذا الكتاب وهو نفعكم كله {أنكم تكذبون *} أي توجدون حقيقة التكذيب في الماضي والحال، وتجددون ذلك في كل وقت به وبما أرشد إليه من الأمور الجليلة وهي كل ما هو أهل للتصديق به وتصفونه بالأوصاف المتناقضة، ومن ذلك ما أرشد إليه من أنه لا فاعل إلا الله تعالى فتقولون أنتم إذا أمطركم ما يرزقكم به: هذا بنوء كذا، معتقدين تأثير ذلك النوء، وإنما هو بالله تعالى، فجعلتم جزاء الرزق وبذل الشــكر على الرزق التكذيب، وقال ابن برجان: وتجعلون رزقي إياكم من قرآن عظيم أنزلته، وكلام عظيم نزلته، ونور إيمان بينته، وضــياء يقين جليته، وما أنزلته من السماء من بركات قدرتها ومن رياح أرسلتها، وسحب ألفتها، تجعلون مكان الشكر على ذلك التكذيب.

ولما أنكر عليهم هذا الإنكار، وعجب منهم هذا التعجيب في أن ينسبوا لغيره فعلاً أو يكذبوا له خبراً، ســبب عن ذلك تحقيقاً لأنه لا فاعل ســواه قوله: {فلولا} وهي أداة تفهم طلباً بزجر وتوبيخ وتقريع بمعنى هل لا ولم لا {إذا بلغت} أي الروح منكم ومن غيركم عند الاحتضار، أضمرت من غير ذكر لدلالة الكلام عليها دلالة ظاهرة {الحلقوم *} وهو مجرى الطعام في الحلق،

والحلق مساغ الطعام والشراب معروف، فكان الحلقوم أدنى الحلق إلى جهة اللسان لأن الميم لمنقطع التمام، {وأنتم} أي والحال أنكم أيها العاكفون حول المحتضر المتوجعون له {حينئذٍ} أي حين إذ بلغت الروح ذلك الموضع.

ولما كان بصرهم لكونه لا ينفذ في باطن كالعدم قال: {تنظرون *} أي ولكم وصف التحديق إليه ولا حيلة لكم ولا فعل بغير النظر، ولم يقل: تبصرون، لئلا يظن أن لهم إدراكاً بالبصر لشيء من البواطن من حقيقة الروح وغيرها نحوها {ونحن} أي والحال أنا نحن بما لنا من العظمة {أقرب إليه} أي المحتضر حقيقة بعلمنا وقدرتنا التامة وملائكتنا {منكم} على شدة قربكم منه {ولكن لا تبصرون *} أي مع تحديقكم إليه لا يتأثر عن ذلك التحديق غايته، وهو الإبصار لقربنا منه، ولا ملائكتنا الموكلين بقبض روحه، لتعلموا أن الفعل لنا لا لغيرنا، فلا يتجدد لكم شيء من هذا الوصف لتدركوا به حقيقة ما هو فيه، فثبت ما أخبرنا به من الاختصاص بباطن العلم والقدرة اللذين عبرنا عنهما بالقرب الذي هو أقوى أسبابها.

▲ تفسير الآيات رقم [86- 96]

{فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86)

تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (87)

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88)

فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89)

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90)

فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91)

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92)
فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93)
وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94)
إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95)
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)}

ولما كان الكلام لإثبات هذه الأغراض المهمة قبل جواب «لولا» أعادها تأكيداً لها وتبيناً فقال : {فلولا إن كنتم} أيها المكذبون بالبعث وغيره {غير مدينين *} أي مقهورين مملوكين مجربين محاسبين بما عملتم في دار البلاء التي أقامكم فيها أحكم الحاكمين بامتناعكم بأنفسكم عن أن يجازيكم أو يمنع غيركم لكم منه، وأصل تركيب (دان) للذل والانقياد- قاله البيضاوي {ترجعونها} أي الروح إلى ما كانت عليه {إن كنتم} أي كوناً ثابتاً {صادقين *} أي في أنكم غير مقهورين على الإحضار على الملك الجبار الذي أقامكم في هذه الدار للابتلاء والاختبار، وأنه ليس لغيركم أمركم، وفي تكذيبكم لما يخبر به من الأمور الدنيوية بذل شكركم، وهذا دليل على أنه لا حياة لمن بلغت روحه الحلقوم أصلاً وهذا إلزام لهم بالبعث حاصله أنه سبحانه إن كان لا يعيدكم فليس هو الذي قدر الموت عليكم، وإن كان لم يقدره فما لكم لا ترفعونه عنه لأنه من الفوادح التي لا يدرك علاجها، وأنتم تعالجون مقدماته . وإن قلتم : إنه مقدر لا يمكن علاجه، لزمكم الإقرار بأن البعث مقدر لا يمكن علاجه، فإن أنكرتم أحدهما فأنكروا الآخر، وإن أقررتم بأحدهما فأقروا بالآخر، وإلا فليس إلا العناد، فإن قلتم: نحن لا نعلم أنه قدره

فاعلموا أنه لو لم يكن بتقديره لأمكنت مقاومته وقتاً ما لا سـيما والنفوس مجبولة على كراهته، وفي الموتى الحكماء والملوك، وتقريبه أنكم قد بالغتم في الجحود بآيات الله تعالى وأفعاله في كل شيء إن أرسل إليكم رسولاً قلتم: ساحر كذاب، وإن صـدقه مرسـله بكتاب معجز قلتم: سـحر وافتراء وأمر عجاب، وإن رزقكم من الماء الذي به حياة كل شـيء مطراً ينعشكم به قلتم: صـدق نوء كذا، على حال مؤد إلى التعطيل والإهمال والعبث، فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن عند بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثم مدبر لهذا الكون بالإرسـال والإنزال وإفاضـة الأرواح وقبضـها وبعث العباد لدينونتهم على ما فعلوا فيما أقامهم فيه، تمثيل بأفعال الملوك على ما يعهد، فكما أن ملوك الدنيا لا يرسـل أحد منهم إلى أحد من رعيته فيأخذه قهراً إلا للدينونة فكيف يظن بملك الملوك غير ذلك، فتكون ملوك الدنيا أحكم منه، فإن كان ليس بتمام القدرة فافعلوا برسـله كما تفعلون برسـل الملوك، فإنه ربما خلص المطلوب منهم بنوع من أنواع الخلاص بعد بلوغه إلى باب الملك فإرسـاله سبحانه هو مثل إرسـال الملوك غير أنه لتمام قدرته يأخذ أخذاً لا يقدر أحد على رده، ولا أن يتبع مأخوذه أصـلاً لا ليخدمه بعد الأخذ ولا ليخفف عنه شـيئاً مما هو فيه بغير ما أمر به سـبحانه على ألسـنة رسـله من الدعاء والصدقة ولا ليعلم حاله بوجه من الوجوه بل الأمر كما قيل:

إذا غيب المرء استسر حديثه *** ولم يخبر الأفكار عنه بما يغني

ولما كان التقدير: لا يقدر أحد أصـلاً على ردها بعد بلوغها إلى ذلك المحل لأنا نريد جمع الخلائق للدينونة بما فعلوا فيما أقمناهم فيه وأمرناهم به ولا

يكون إلا ما تريد، فكما أنكم مقرون بأنه خلقكم من تراب وبأنه يعيدكم قهراً إلى التراب يلزمكم حتماً أن تقروا بأنه قادر على أن يعيدكم من التراب فإن أنكرتم هذا اللازم لزمكم إنكار ملزومه، وذلك مكابرة في الحس فليكن الآخر مثله، فثبت أنا إنما نعيد الخلائق إلى التراب لنجمعهم فيه ثم نبعثهم منه لنجازي كلاً بما يستحق ونقسمهم إلى أزواج ثلاثة {فأما إن كان} أي الميت منهم {من المقربين *} أي السابقين الذين اجتذبهم الحق من أنفسهم فقربهم منه فكانوا مرادين قبل أن يكونوا مريدين، وليس القرب قرب مكان لأنه تعالى منزهه عنه، وإنما هو بالتخلق بالصفات الشريفة على قدر الطاقة البشرية ليصير الإنسان روحاً خالصاً كالملائكة لا سبيل للحظوظ والشهوات عليه، فإن قربهم إنما هو بالانخلاع من الإرادة أصلاً ورأساً، وذلك أنه لا شهوات لهم فلا أغراض فلا فعل إلا أمروا به فلا إرادة، إنما الإرادة للمولى سبحانه وهو معنى {وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي} [النحل: 90] أي مطلق الإرادة في غير أمر من الله، لأن المملوك الذي هو لغيره لا ينبغي أن يكون له شيء لا إرادة ولا غيرها– وفقنا الله تعالى لذلك {فروح} أي فله راحة ورحمة ما ينعشه من نسيم الريح ومعنى قراءة يعقوب بالضم طمأنينة في القلب وسكينة وحياة لا موت بعدها {وريحان} أي رزق عظيم ونبات حسن بهج وأزاهير طيبة الرائحة.

ولما ذكر هذه اللذاذة، ذكر ما يجمعها وغيرها فقال: {وجنات} أي بستان جامع للفواكه والرياحين وما يكون عنها وتكون عنه.

ولما كان جنان الدنيا قد يكون فيها نكد، أضـــاف هذه الجنة إلى المراد بهذه الجنان إعلاماً بأنها لا تنفك عنه فقال: {نعيم *} أي ليس فيها غيره بل هي مقصـورة عليه {وأما إن كان} أي الميت منهم {من أصـحاب اليمين *} أي الذين هم الدرجة الثانية من أصحاب الميمنة {فسلام} أي سلامة ونجاة وأمر وقول دال عليه. ولما كان ما يواجه به الشـريف من ذلك أعلى قال: {لك} أي يا أعلى الخلق أو يا أيها المخاطب.

ولما كان من أصـــاب الســـلام على وجه من الوجوه فائزاً، فكيف إذا كان مصـدراً للسـلام ومنبعاً منه قال: {من أصـحاب اليمين *} أي أنهم في غاية من الســـلامة وإظهار الســـلام، لا يدرك وصـــفها، وهو تمييز فيه معنى التعجيب، فإن إضـــافته لم تفده تعريفاً، وفي اللام و {من} مبالغة في ذلك، فالمعنى: فأما هم فعجباً لك وأنت أعلى الناس في كل معنى، وأعرفهم بكل أمر غريب منهم في ســـلامتهم وســـلامهم وتعافيهم وملكهم وشـــرفهم وعلو مقامهم، وذلك كله إنما أعطوه لأجلك زيادة في شـــرفك لاتباعهم لدينك، فهو مثل قول القائل حيث قال:

فيا لك من ليل كأن نجومه *** بكل مقار العمل شدت يذبل

وقول القائل أيضاً حيث قال:

لله در أنو شروان من رجل *** ما كان أعرفه بالدون والسفل

أي عجباً لك من ليل وعجباً من أنو شـروان. ولما ذكر الصـنفين الناجيين، أتبعهما الهالكين جامعاً لهم في صنف واحد لأن من أريدت له السعادة يكفيه ذلك، ومن ختم بشـقائه لا ينفعه ذلك الإغلاظ والإكثار فقال {وأما إن كان}

أي ذلك الذي أخذناه من أصحاب المشأمة وأنتم حوله تتقطع أكبادكم له ولا تقدرون له على شيء أصلاً {من المكذبين}.

ولما كان المكذب تارة يكون معانداً، وتارة يكون جاهلاً مقتصــــراً، قال : {الضـــالين} أي أصـــحاب الشـــمال الذين وجهوا وجهة هدى فزاغوا عنها لتهاونهم في البعث {فنزل} أي لهم وهو ما يعد للقادم على ما لاح {من حميم *} أي ماء متناه في الحرارة بعد ما نالوا من العطش كما يرد أصحاب الميمنة الحوض كما يبادر به القادم ليبرد به غلة عطشــه ويغسـل به وجهه ويديه {وتصلية جحيم *} أي لهم بعد النزل يصلوا النار الشديدة التوقد صلياً عظيماً.

ولما تم ما أريد إثبات البعث على هذا الوجه المحكم البين، وكانوا مع البيان يكذبون به، لفت الخطاب عنهم إلى أكمل الخلق، وأكد تســـميعاً لهم فقال سـائقاً له مسـاق النتيجة: {إن هذا} أي الذي ذكر في هذه السـورة من أمر البعث الذي كذبوا به في قولهم {إننا لمبعوثون} ومن قيام الأدلة عليه. ولما كان من الظهور في حد لا يســـاويه فيه غيره. زاد في التأكيد على وجه التخصيص فقال: {لهو حق اليقين *} أي لكونه لما عليه من الأدلة القطعية المشاهدة كأنه مشاهد مباشر، قال الأصبهاني: قال قتادة في هذه الآية: إن الله عز وجل ليس تاركاً أحداً من الناس حتى يوقفه على اليقين من هذا القرآن، فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك، وأما المنافق فأيقن يوم القيامة حيث لا ينفعه– انتهى.

ولما تحقق له هذا اليقين، سبب عنه أمره بالتنزيه له سبحانه عما وصفوه به مما يلزم منه وصفه بالعجز بعد تقسيمه للأزواج الثلاثة على طريق الإيجاز كما أمره بذلك بعد الفراغ من تقسـيمهم على طريق الإطناب إشـارة إلى أن المفاوتة بينهم مع ما لهم من العقول من أعظم الأدلة على الفعل بالاختيار وعلى فسـاد القول بالطبيعة: {فسـبح} أي أوقع التنزيه كله عن كل شـائبة نقص بالاعتقاد والقول والفعل والصلاة وغيرها بأن تصفه بكل ما وصف به نفسـه من الأسـماء الحسـنى وتنزهه عن كل ما نزه عنه نفسـه المقدس، ولقصـره الفعل لإفادة العموم أثبت الجار بقوله: {باسـم ربك} أي المحسـن إليك بما خصـك به مما لم يعطه أحداً غيرك عما وصـفه به الكفرة من التكذيب بالواقعة، وإذا كان هذا لا سـمه فكيف بما له وهو {العظيم *} الذي ملأت عظمته جميع الأقطار والأكوان، وزادت على ذلك بما لا يعلمه حق العلم سواه لأن من له هذا الخلق على هذا الوجه المحكم، وهذا الكلام الأعز الأكرم، لا ينبغي لشـائبة نقص أن تلم بجنابه، أو تدنو من فناء بابه، وقد انطبق آخر السـورة على أولها في الإخبار بالبعث وتصـنيف الخلائق فيه إلى الأصـناف المذكورة في أولها أيّ انطباق، وزاد هذا الآخر بأن اعتنق بدليله أي اعتناق، واتفق مع أول التي بعدها أيّ اتفاق، وطابقه أجلَّ طباق، وختمت بصفتي الرحمة والعظمة، وجلت عن الاسم الجامع كاللتين قبلها لما ذكره في أواخر القمر من أنه لم يذكر في واحدة من الثلاث أحد من أهل المعصية المصاحبة للإيمان، ليخاطب بالاسم الجامع للإهانة والإحسان،

وإنما ذكر أهل الكفران المستوجبين للهوان بالخلود في النيران، وأهل الإيمان المتأهلين للإحسان بتأبيد الإمكان في أعلى الجنان– انتهى.

http://www.al-eman.com/%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%AA%D8%A8/%D9%86%D8%B8%D9%85%20%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%B1%D8%B1%20%D9%81%D9%8A%20%D8%AA%D9%86%D8%A7%D8%B3%D8%A8%20%D8%A7%D9%84%D8%A2%D9%8A%D8%A7%D8%AA%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%B1%20%20***/i376&n130&p1

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي